أوضح البيان

في تفسير القرآن

تأليف

السيد محمد حسين الجلالي

تحقيق

محمد جواد الحسيني الجلالي

الجزء الخامس

(المؤمنون الى لقمان)

معجم الأحاديث

تأليف

محمد حسين الحسيني الجلالي

تحقيق

محمد جواد الحسيني الجلالي

(12)

(أهل – أيل)

The Open School
P.O. BOX 53573
CHICAGO, IL 60653 - 0398

(٣) .....

أُعِدَّ هذا الكتاب

في كربلاء المقدّسة

محرّم الحرام سنة ١٤٣٧هـ

جميع الحقوق محفوظة للمحقق

الإهداء

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إلى من كلّ من يؤمن بـــــ

(انَّ هَذَا الْقُرْآنَ يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ

وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيراً)

(الإسراء ١٧ : ٩)

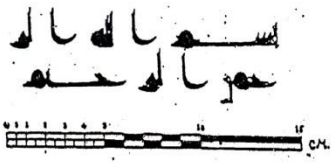
ويعيش في أجواء القران

بما فتح عليه الرحمن من التدبّر في نصوص الآيات، لتطبيقها في الحياة

من المؤلف الفقير إلى رحمة ربه القدير

مُحَمَّد حسين الحسيني الجلالي

والله نعم المولى ونعم النصير



البسملة مقتبسة من

صفحة من القرآن الكريم المنسوب إلى الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام تحتوي على الآيات ١-٣
من سورة البروج المحفوظة في خزانة الروضة الحيدرية في النجف الأشرف – العراق

وصفها كوركيس عواد بقوله: «نسخة مكتوبة بالخط الكوفي الأول العريض، على الجلود المصقولة ، لونها عسلي فاتح، ووضعها كالسفينة، سقط من أولها وآخرها أوراق والباقي منها ١٢٧ ورقة، مقياسها ٢٩ × ١٩,٥ سم تنسب كتابتها إلى الإمام علي (ت ٤٠ هـ)

و للتفصيل راجع كتاب دراسة حول القران الكريم الصفحة 81 طبعة بيروت 1422

تجزية تفسيراوضح البيان
حسب تربيع القران الكريم
المجلد الاول في الربع الاول
من سورة الفاتحة الي اخر الانعام

١ سورة الفاتحة

٢ سورة البقرة

٣ سورة آلعمران

٤ سورة النساء

٥ سورة المائدة

٦ سورةالانعام

المجلد الثاني في الربع الثاني
من سورة اللاعراف الي اخر الكهف

٧ سورة الاعراف

٨ سورة الانفال

٩ سورة التوبة

١٠ سورة يونس

١١ سورة هود

١٢ سورة يوسف

١٣ سورة الرعد

١٤ سورة ابراهيم

١٥ سورة الحجر

١٦ سورة النحل

١٧ سورة الاسراء

١٨ سورة الكهف

المجلد الثالث في الربع الثالث
من سورة مريم الي اخر الفاطر

١٩ سورة مريم

٢٠ سورة طٰهٰ

٢١ سورة الانبياء

٢٢ سورة الحج

٢٢ سورة المؤمنون

٢٤ سورة النور

٢٥ سورة الفرقان

٢٦ سورة الشعراء

٢٧ سورة النمل

٢٨ سورة القصص

٢٩ سورة العنكبوت

٣٠ سورة الروم

٣١ سورة لقمان

٣٢ سورة السجدة

٣٣ سورة الاحزاب

٣٤ سورة سبأء

٣٥ سورة فاطر

المجلد الرابع في الربع الرابع
من سورة يسن الي اخر القران الكريم

٣٦ سورة يٰسٓ

٣٧ سورة الصافات

٣٨ سورة ص

٣٩ سورة الزمر

٤٠ سورة غافر

٤١ سورة فصلت

٤٢ سورة الشوري

٤٣ سورة الزخرف

٤٤ سورة الدخان

٤٥ سورة الجاثية

٤٦ سورة الاحقاف

٤٧ سورة محمد

٤٨ سورة الفتح

٤٩ سورة الحجرات

٥٠ سورة ق

٥١ سورة الذاريات

٥٢ سورة الطور

٥٣ سورة النجم

٥٤ سورة القمر

٥٥ سورة الرحمن

٥٦ سورة الواقعة

٥٧ سورة الحديد

٥٨ سورة المجادلة

٥٩ سورة الحشر

٦٠ سورة الممتحنة

٦١ سورة الصف

٦٢ سورة الجمعة

٦٣ سورة المنافقون

٦٤ سورة التغابن

٦٥ سورة الطلاق

٦٦ سورة التحريم

٦٧ سورةالملك

٦٨ سورةالقلم

٦٩ سورةالحاقة

٧٠ سورة المعارج

٧١ سورة نوح

٧٢ سورةالجن

٧٣ سورة المزمل

٧٤ سورة المدثر

٧٥ سورة القيامة

٧٦ سورة الدهر

٧٧ سورة المرسلات

٧٨ سورة النّباء

٧٩ سورة النازعات

٨٠ سورة عبس

٨١ سورة التكوير

٨٢ سورة الانفطار

٨٣ سورة المطفّفين

٨٤ سورة الانشقاق

٨٥ سورة البروج

٨٦ سورة الطارق

٨٧ سورةالاعلٰى

٨٨ سورة الغاشية

٨٩ سورة الفجر

٩٠ سورة البلد

٩١	سوة الشمس
٩٢	سورة الّليل
٩٣	سورةالضحي
٩٤	سورة الشرح
٩٥	سورةا لتين
٩٦	سورة العلق
٩٧	سورة القدر
٩٨	سورة البينة
٩٩	سورةالزلزلة
١٠٠	سورة العاديات
١٠١	سورة القارعة
١٠٢	سورةالتكاثر
١٠٣	سورة العصر
١٠٤	سورةالهمزة
١٠٥	سورة الفيل
١٠٦	سورة قريش
١٠٧	سورةالماعون
١٠٨	سورة الكوثر
١٠٩	سورة الكافرون
١١٠	سورة النصر

١١١ سورة المسد

١١٢ سورة الاخلاص

١١٣ سورة الفلق

١١٤ سورة الناس

سورة المؤمنون

(٢٣)

مكية بالاجماع، وعددها (١١٨) في الكوفي، و (١١٩) في الباقين.

والايمان من اكثر الموارد المذكورة في القرآن الكريم، وقد وردت بصيغة الجمع فقط (١٧٩) مرة، وقد سميت هذه السورة بالمؤمنون، لذكرهم في مقدمة السورة بقوله سبحانه: (قد أفلح المؤمنون). ويتضمن بصفة عامة خصائص المؤمنين وآيات الايمان في الانفس وفي الانسان خاصة ، والآيات الكونية بصورة عامة، ودعاة الايمان من الانبياء والرسل، وما يستلزم الايمان من الرؤية الواضحة في الحياة من الاعتبار بالآيات في الانفس والآفاق لتنظيم الحياة بما يتضمن الفلاح في الدنيا والرحمة في الآخرة .

صفات المؤمنين:

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ○ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ○ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ○وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ○وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ○ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أو مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ○ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ○وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ○ وَالذين هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ○ أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ○الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) (المؤمنون:١- ١١).

قال سبحانه: (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ)، والفلاح – لغة–: الظفر . و(قد) مع الفعل الماضي يفيد التأكيد ، فان هذا التاكيد على الظفر في الحياة للمؤمنين خاصة ينبع من التوازن بين الروح والمادة، الذي يستلزمه الايمان.

وقد سرد سبحانه الصفات المطلوبة لتحقيق ذلك بقوله:

أوّلاً:(الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ) والخشوع: الخضوع، فان الصلاة صلة روحية بين الانسان وربه، فاذا فقد الخضوع من الصلاة فانها تكون عادة روتينية فاقدة للروح، فلا تكون حينئذ صلة ، بل مجرد عادة.

ثانيا: (وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ) واللغو: ما لا فائدة فيه، سواء كان قولا أو فعلا ، فان الحياة الايمانية تحمّل الانسان مسؤولية يجب أداؤها كانسان ، ولا يكون هناك مجال للغو في حياة الانسان المسؤول بالنسبة إلى المجتمع ، فقد قال سبحانه: (واذا مروا باللغو مروا كراما) (الفرقان: ٧٢) فلا يتأثر المؤمنون باللغو.

ثالثا:(وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ) والزكاة– لغة–: النمو، فان لكل شيء زكاة، وزكاة المال التصدق، وزكاة العلم انفاقه، كما في الحديث، فان المساهمة العملية في الزكاة هي المطلوبة ، وليس الاعتقاد فقط.

رابعا:(وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ)، فان شهوات النفس تفتقر إلى انظباط، للفرق بين الانسان وسائر الحيوانات، بنعمة العقل ، ومن ذلك الشهوة الجنسية في الحدود التي يحددها الشرع في العلاقة الزوجية.

(إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ) من العلاقة الزوجية المشروعة (أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ) من الإماء، والذي لا يوجد له موضوع في عصرنا الحاضر، (فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ) في العلاقات المشروعة المذكورة، دون غيرها .

(فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ) من العلاقات غير المشروعة، مثل الزنا واللواط والعادة السرية ــ الاستمناء ــ وغيرها مما تبيحه بعض القوانين الوضعية (فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ). والعدو: التجاوز ، فان من يرتكب العلاقات غير المشروعة فهو يتجاوز القانون الالهي الفطري، ويترتب عليه الاحكام الشرعية المشروحة في الفقه والعقوبات الشرعية الاسلامية.

خامسا وسادسا:(وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ)، الامانة: الوديعة للشيء العيني مالا، والعهد: الالتزام بالشيء قولا ، وهما يشتركان في تحمل المسؤولية الشرعية ، ولاجل ذلك جمع بينهما في الحكم وان كانا مختلفان من حيث المتعلق، فالامانة مسؤولية عينية والعهد مسؤولية قولية.

والمؤمن مسؤول في رعاية المسؤولية التي يتحملها ، فلا يجوز له التنحي عن المسؤولية بعد قبولها، وان لم يجب عليه قبولها من البداية . والمراعاة بالوفاة ، وتفصيل ذلك مشروح في الفقه.

سابعا: (وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ) بأدائهم لها بالمواصفات المطلوبة فيها من حيث الوقت والصحة ، على ما هو مشروح في كتب الفقه.

فان هذه الصفات السبع في المؤمنين تجعلهم مستحقين لوراثة الفردوس .

(أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ) (الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)، والفردوس: هو اعلى مرتبة في الجنة، حيث تكون الحياة فيها حياة الخلود ، وقد خص الله سبحانه وراثة الفردوس بالمؤمنين لالتزامهم بما تدعو اليه الآيات والانفس في خلق الانسان ، وفي الآفاق من خلق الكون.

خلق الانسان:

قوله تعالى: (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ○ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ○ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ○ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ○ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ).(المؤمنون:١٢- ١٦).

أشار سبحانه إلى مراحل الحياة الانسانية من الخلق والموت والبعث ، وان هذه المراحل محكومة بقوانين ثابتة تنتهي في سلسلة من العلل والمعلولات إلى الذات واجب الوجود تعالى، فان التأمل في ذلك يدعو إلى الإيمان.

فقال عن مراحل خلق الانسان:

١-(وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ)، حيث كان بدأ خلق آدم أبي البشر من الطين المتكون من التراب والماء. والسل: الاخراج، والبشر جميعا استخرجوا من آدم في سلسلة من العلل والمعلولات حيث ينتهي اليه نسبهم، وكان هو عليه السلام مخلوقا من الطين بارادة الله .

٢- (ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ)، والنطفة : أي النطفة من الماء، وهو مني الرجل الذي يستقر في رحم المرأة، ويتلاقح مع البويضة فيها ، والقرار: هو المكان

الذي تستقر فيه البويضة بعد التلقيح، وهي مستحكمة في الحفظ في مرتبة عالية تصونها من الحوادث كي تتمكن من النمو .

٣- (ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً)، وهي الدم المنجمد في مرحلة متطوّرة من الحمل .

٤-(فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً)، والمضغة: اللحم في بداية تكوّنه، فهي كالشئ الممضوغ.

٥-(فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً)، فإن تكون العظام من المادة الممضوغة، لتكوين الهيكل العظمي للانسان .

٦-(فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً)، فان اللحم ينبت حول العظام كالكساء الذي يحتوي على الجسم، فيشتمل اللحم على كل اجزاء الهيكل العظمي.

٧-(ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ) في المرحلة الاخيرة من تكون الجنين، بان يصبح انسانا كاملا في الخلق يفترق عن المراحل الاولى.

٨-(فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ)، والبركة: كثرة الخير، فان هذا الخلق الجديد منبع للخير حيث أكثر الله سبحانه عليه الخير في مراحل نموه ونشاته وارتقائه.

وعن المرحلة الموت، قال سبحانه : (ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ)، فان مرحلة الحياة لابد وان تنتهي بالموت، فـ(كل نفس ذائقة الموت) .(آل عمران: ١٨٥).

وعن مرحلة البعث قال: (ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ) خلقا جديدا بالنشر للحساب.

وقد اجمل سبحانه في هاتين المرحلتين للتشابه بينهما، وبيّن الخلق بالمراحل المشار اليها وانها جميعا داخلة تحت القدرة الالهية، فان القدرة التي خلقت الانسان من العدم في سلسلة من العلل والمعلولات المذكورة، لهي قادرة على خلق الانسان بعد الموت كذلك . وهو على كل شيء قدير.

خلق الآفاق:

قال تعالى:(وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سبع طرائق وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ○ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ○ فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ○ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلْآكِلِينَ ○ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ○ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ) (المؤمنون: ١٧- ٢٢).

وأشار سبحانه إلى آيات الآفاق التي تبعث التأمل فيها إلى الايمان، قال سبحانه:

أوّلاً: في السماوات (وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ)، أي السماوات التي تعلو على الارض، ويراها الانسان في حياته على الارض.

وقد وصف السماوات بوصفين:

الاول: العدد (سبع)، ويستعمل هذا العدد كناية عن الكثرة كما يستعمل في العدد بالضبط .

الثاني: الطريق (طرائق)، والطريق :ما يكون مسلوكا، فان السماوات على اختلاف طبقاتها مسلوكة من قبل الملائكة، ومن الانسان باختراقها بسلطان العلم ,

فليست السماوات غطاء مانعا من النفوذ والاختراق، وهذا ما لم يكن معروفا في عصر الرسالة.

والى النظام الحاكم في الكون من السماء والارض أشار بقوله :(وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ).

فان النظام الحاكم في الارض ومن عليها مرتبط ارتباطا وثيقا بالنظام الحاكم في السماوات في سلسلة مترابطة من العلل والمعلولات التي تنتهي بواجب الوجود سبحانه.

ثانيا : المطر (وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ)، فان المطر النازل من السماء يتبع نظاما متبعا مدروسا في علم الانواء الجوية ,قال سبحانه: (وما ننزله الا بقدر معلوم) (الحجر :٢١).

(فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ)، ليكون مادة لحياة النبات التي يعيش عليها الحيوان والانسان.

(وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ)، فان القدرة التي اوجدها هي قادرة على منعها بسيب الجدب بدل الخصب.

ثالثا: الثروة الزراعية (فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ)، فانه بسبب الماء النازل من السماء مطرا تنشأ الحياة في الصحراء الجرداء، حيث لا توجد الانهار.

(مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ)، ولولا الماء لما كانت هناك ثروة زراعية ينتفع منها للغذاء.

(وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ). تكاد تتفق كلمة المفسرين بان هذه الشجرة هي شجرة الزيتون التي يكثر نموها في طور سيناء، وهو الجبل المرتفع الذي كلم الله فيه موسى تكليما، وقد أشار سبحانه إلى خاصيتن للشجرة لا تزال تتواجد في اشجار الزيتون بقوله:

١- (تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ)، فان نبتها، وهو الزيتون، تحتوي على مادة دهنية.

٢-(وَصِبْغٍ لِلْآَكِلِينَ)، والصبغ: اللون, فان استخدام دهن الزيتون في الطعام يجعلة متلونا باللون الزيني ويستخدم في الاكل.

رابعا: الثروة الحيوانية (وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً)، وهي الابل والبقر والغنم , وأشار إلى موارد العبرة فيها بقوله :

١- (نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا) من اللبن السائغ للشارب.

٢- (وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ) من صوف الغنم ووبر الابل وشعر المعز.

٣- (وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ) من اللحم للاستهلاك والتغذية .

خامسا: الوسائل النقلية (وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ)، والفلك: السفينة، فان من الوسائل النقلية في البر: الابل , وفي البحر: الفلك، وهي انما تستخدم كذلك للقابلية التي اودع الله فيها، لاستخدامها في الحمل والنقل .

وهذه الآيات في الافاق وجودها تستند إلى علل تنتهي في سلسلة العلل والمعلولات إلى الذات الواجب الوجود المستجمع لجميع صفات الكمال والجلال، وهو الذي ارسل الانبياء والرسل للدعوة إلى الايمان برب العالمين .

رسالة نوح:

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ○ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ○ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ○ قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ○ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ○فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ○ وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلاً مُبَارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ○ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ). (المؤمنون: ٢٣- ٣٠).

ورسالة نوح -كغيرها من الرسالات – واجهت دعايات المعارضة واتهاماتها المتوقعة، ولكن المعارضة فيها كانت الاغلبية الساحقة التي أصرت على الكفر بعد وضوح الحجة عن علم وعمد، فكان الابتلاء بامتحان السفينة ونجاة القلة المؤمنة عبرة للتاريخ.

قال سبحانه في محتوى الرسالة :

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ)، وكانت رسالته عالمية، وكان من اولي العزم من الرسل.

(فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ) داعيا إلى توحيد رب العالمين في العقيدة.

(مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ) برفض الشرك بكل اصنافه من الاصنام والحكام الظلام.

(أَفَلَا تَتَّقُونَ) بالاستفهام الانكاري، لما يقتضيه من الحجج، والانذار من الوقاية من الاخطار المحتملة، وانذار الانبياء بالعقاب على مخالفة الأوامر الالهية.

ثم أشار إلى موقف قوم نوح وذكر التهم والدعايات الباطلة التي تستخدم في عرقلة أية دعوة حقيقية، وهذه الدعايات في الحقيقة تكشف عن حقيقة أصحابها اكثر من أي شيء اخر، وانهم لا يؤمنون الا بالمادة والماديات التي تخدم مصالحهم الخاصة.

قال سبحانه:(فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ)، والملأ : الكثرة الغالبة التي تملأ العيون في النظر اليها. وطبيعي ان تختلف الحال فيما اذا كانت المعارضة من القلة . ونقاط الدعاية منهم هي:

أوّلاً: (مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ)، فان الدعوة ليست الهيّة ، بل دعوة سياسية لمصلحة شخصية، هي حب الرئاسة. وهذه التهمة تتكرر في كل رسالة اصلاحية.

ثانيا: (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً)، فان الرسالة الالهية من منطق الماديين لا تليق بالبشر ، بل يجب ان تكون رسالة بواسطة من ليس بشرا كالملائكة.

ثالثا: (مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آَبَائِنَا الْأَوَّلِينَ)، فان الرسالة هي خرق للعادات المتبعة في الاجيال المتفرقة، فترفض ولو كانت دعوة صادقة.

رابعا:(إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ)، وان النبوة التي يدعيها انما هي تخيلات شخصية نابعة من الجنون، وليست عن رؤية واضحة.

خاميا:(فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ)، والتربص: الانتظار، فانه بمضي الوقت تظهر حقيقة الانسان المجنون، لما يصدر منه من أعمال تثبت حقيقته ، وانما قالوا ذلك على سبيل الاستهزاء.

وهذه النقاط الخمس تتناقض بعضها مع البعض، فان التهمة الاولى تدل على تخطيط متعمد للتفضيل والرئاسة. وتهمة الجنون على العكس تماما . وهذا التناقض في نفسه يكشف عن انها دعايات صادرة عن اصحابها للتهريج وليس عن اعتقاد بها كحقائق.

والى موقف نوح أشار بعد اليأس من هداية القوم :

(قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ)، فانه لا سبيل بعد اليأس سوى طلب النصر من الله سبحانه بالنجاة منهم، لغلبة الكفر بنسبة ساحقة.

وعن الامتحان الالهي بصنع السفينة للنجاة ، أشار بقوله:

١-(فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا)، فان صنع الفلك – وهو السفينة –كان بامر الله وعينه التي لا تنام، وحسب وحيه سبحانه من حيث الحجم والاستحكام.

٢-(فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ)، والأمر: هو العذاب بالطوفان، والفوران: النبع. والتنور: منبع الماء الذي يكون منه الطوفان.

٣-(فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ) من انواع المخلوقات التي بها يكون قوام الحياة على وجه الارض .(راجع سورة هود: ٢٥-٤٩).

٤-(وَأَهْلَكَ)، وهم اسرته القريبة المؤمنة برسالته، وهم سام وحام ويافث (إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ) بالعذاب ، وهو ابنه كنعان وامرأته، لاصرارهما على الكفر .

٥-(وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ) جميعا، لتلبسهم بالظلم عن علم وعمد بعد تمامية الحجة، فان الوعد الالهي بالعذاب قد تم بعد تمامية الحجة.
والخطاب بالاسترحام -كما هو واجب النبوة- انما ينفع قبل ذلك.

والى الواجبات بعد النجاة أشار بقوله:

أوّلاً: (فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ)، والاستواء: الاستقرار للنجاة من الطوفان.

(فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)، فان النجاة ليس من اختيار الانسان نفسه، بل من ارادة الله سبحانه، كما ان صنع الفلك كان بارادة الله سبحانه ووحيه.

ثانيا:(وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلاً مُبَارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ)، فان السفينة وسيلة للنجاة ، وهي ليست مضمونة بدون ارادة الله تعالى، ولا يكون الوصول إلى البر والمقصد وهو المنزل الذي نزل فيه من السفينة الا ببركة الله سبحانه، فان المقادير بيده، ومنها النزول، كما كان الامر في الصعود إلى السفينة.

وختم قصة رسالة نوح بالعبرة المتوخاة منها بقوله: (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ)، والابتلاء: الامتحان ، فان في ذلك عبرة للمعتبرين، والنجاة للمؤمنين وان كانوا قلة في المجتمع ، فان الله على كل شيء قدير.

رسالة هود:

(ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ○ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ○ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآَخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ○ وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَراً مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذاً لَخَاسِرُونَ ○ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَاباً وَعِظَاماً أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ ○ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ○ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ○ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ○ قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ○ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ○ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ).
(المؤمنون: ٣١- ٤١).

وحمل النبي هود الرسالة بعد النبي نوح (راجع شجرة الانبياء ، في سورة الانعام، الآيات: ٨٤-٨٧) بقرن واحد، كما يقتضيه الاعتبار، وهو اقل فترة زمنية واحدة طويلة، وقد غلب تحديده في عصرنا بمئة عام، فواجه النبي هود المعارضة المادية الظالمة والتهم والدعايات المشابهة المتوقعة، فأنذرهم النبي هود بالعذاب. وبعد اتمام الحجة واصرار المكذبين عن علم وعمد استحقوا ذلك وكان امر الله مفعولا .

قال سبحانه :

(ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ)، فكان قرن هود بعد قوم نوح، وليس لتحديد الزمن التاريخي مصدر، والقرن- لغة-: البرهة من الزمن من دون تحديد بالسنين، فلا تحديد لزمن قوم عاد سوى انهم كانوا بعد قوم نوح.

وعن محتوى الرسالة قال: (فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ)، فان الرسول اذا كان من القوم يكون اعرف بطرق التخاطب من الغريب الذي لا علم له بالعادات والتقاليد المتبعة والمتعارفة بينهم.

(أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ)، بالدعوة إلى التوحيد الخالص لفاطر السماوات والارض.

(مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ)، برفض الشرك بمختلف انواعه من الاصنام والحكام الظلام .

(أَفَلَا تَتَّقُونَ)؟ بالاستفهام الانكاري، لما يستلزم الانذار من الابتعاد عن أي ضرر محتمل والوقاية منه بما يتيسر، ومن ذلك الانذار المستند إلى الوحي.

والى صفات المعارضة أشار بالصفات التالية:

١-(وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ)، فانهم كانوا المعارضة الظالمة التي تملأ العيون بالنظر اليها.

٢-(الَّذِينَ كَفَرُوا)، بتحجير عقولهم من التفكير الحر، فان الكفر- لغة-: الغطاء.

٣-(وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآَخِرَةِ)، لرفضهم الايمان بغير المادة والماديات المحسوسة.

٤-(وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)، والترف : النعمة الزائدة التي تولد الغرور في الانسان.

فان هذه الصفات الاربع كانت متفاعلة في معارضة رسالة هود.

وعن موقف المعارضة الظالمة ودعاياتها، قال:

أوّلاً: في الصفات الظاهرية (مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ)، فان النبي هود باعتبارة بشرا لا يختلف عن غيره من افراد البشر .

(يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ)، فان شخص النبي كسائر الناس فيما يفتقر اليه في الحياة، ومن أهمها التغذية التي تمد الجسم بالحياة.

وهذه الدعاية يستخدمها الاعداء دائما في تحقير الجانب الاخر، جهلا عن ان العلم والمعرفة شيء آخر زائد على الجسمية، فان الانسان والحيوان يشتركان في الحاجة إلى التغذية، وليسوا سواءا في الانسانية، بل الانسان له شخصية باعتبار تعقله، وكذلك النبي وان كان يشترك مع الناس في الاكل والشرب ولكن ذلك لا يجعله بشرا عاديا، لما له من الرؤية الواضحة في الحياة المستندة الي الوحي .

ثانيا: في الاتباع والطاعة (وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَراً مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذاً لَخَاسِرُونَ)، فان الطاعة ليست للشخص، بل للرسالة بعد اتمام الحجة، وأقلها ضرورة الوقاية من الضرر المحتمل.

ثالثا: في التكذيب بالبعث (أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَاباً وَعِظَاماً أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ)؟ وهذا الاستفهام الانكاري مستند إلى الايمان بالمادة فقط، من دون تفكير في مبدأ الحياة للانسان بالوجود من العدم، وان الحال فيهما سواء ايجادا، فان الخلق والاعادة بالبعث انما يستندان إلى علل تنتهي في سلسلة العلل والمعلولات إلى الواجب تعالى.

وقد اكدوا على انكار البعث بقولهم :

(هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ)، وهيهات: كلمة استبعاد لما لا يمكن ان يتحقق.

(إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا)، و(ان) نافية، فليست الحياة هي المادة المحسوسة (نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ)، فان الموت والحياة في الدنيا محسوس، والبعث امر غير محسوس. والمنطق المادي لا يؤمن بغير المحسوس.

رابعا: في شخص النبي هود (إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً)، بدعوى النبوة وحمل الرسالة الالهية (وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ)، بسبب التهمة والافتراء والكذب.

وهذه النقاط الأربع وتناقض الدعايات تكشف عن عقيدة أصحاب الدعايات اكثر، فان المثلية في البشرية لاتستلزم بطلان الدعوى، والاتهام بالافتراء والكذب مجرد اتهام لا يستند إلى دليل، فيكون مرفوضا .

وبعد اقامة الحجة بان البعث مرة اخرى كالخلق لأول مرة، فانهما من الوجود بعد العدم . وان ذلك كله تحت القدرة الالهية التي بها خلقت السماوات والارض ، بل لا يبقى مجالا للشك بان الدعوة تستند إلى حجة معقولة، فتستحق الاعتبار بها من الانذار أو مقارعة الحجة بالحجة، وليس الاتهام بالافتراء والكذب من الحجة في شيء.

والى موقف النبي هود بعد اليأس من الاكثرية المعارضة، أشار بقوله:

(قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ)، فانه لا يمكن النصر عليهم بالحجة بعد الاصرار على الانكار عن علم وعمد، فينحصر النصر من الله وحده.

وعن نصر الله، أشار بقوله:

(قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ)، لتمامية الحجة واصرار الكفار على الانكار عن علم وعمد وغلبة الكفر المعلن، واجتماع هذه الاسباب يستوجب العقاب .

(فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ)، والصيحة: الصوت الذي يرافق عذاب الصاعقة، فان هذا العذاب كان بالحق، أي عن استحقاق المنكرين له، لما يستوجبه من مواقفهم الظالمة .

(فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً)، والغثاء: القمامة التي لا ينتفع بها مما يزيله السيل في طريق جريانه.

والى سبب استحقاقهم، أشار بقوله :

(فَبُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)، فان الظلم والانحراف عن موقف العدل بالتكذيب المتعمد بعد وضوح الرؤية، هو الذي جعل هؤلاء المنكرين بعيدين عن قبول الواقع، وعدم الاستعداد للوقاية من العذاب.

الرسل تترى:

قال تعالى:(ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُوناً آَخَرِينَ○ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ○ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضاً وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْداً لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ) (المؤمنون: ٤٢- ٤٤).

التواتر- لغة-: المتابعة. ويشير المقطع إلى تتابع الانبياء والرسل في ابلاغ الدعوة إلى الامم في كل مجتمع انساني على مراحل التاريخ. ولم تنقطع رسالة هود النبي، بل استمرت، لاستمرار الصراع بين الحق والباطل في الوجود. وضرورة حماية الحق ممن له

رؤية واضحة في الحياة من الانبياء والرسل أو من يسير على خطاهم من المهتدين بهدايتهم.

واستمرت النبوة من بعد هود في صالح وشيث وابراهيم ولوط واسحاق واسماعيل ويعقوب ويوسف وداود وسليمان وزكريا ويحيي وعيسي ومُحَمَّد (راجع شجرة الانبياء ، في سورة الانعام، الآيات: ٨٤-٨٧)، وكل منهم قام بتبليغ رسالة الله في قومه أو في امته أو المجتمع العالمي في عصره.

قال سبحانه عن الامم :

(ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُوناً آخَرِينَ)، فكان بعد قوم هود قرون وجماعات اخرين في امم متتابعة (مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ)، فان لكل امة اجل، كما ان لكل انسان اجل، وتتدرج الامة في مراحل من الولادة إلى الذروة، ثم الهبوط إلى السقوط، في سلسلة مترابطة من العلل والمعلولات الحاكمة فيها بارادة الله تعالى .

ثم قال سبحانه عن الرسل:

(ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى) بالمتابعة بعضهم لبعض لئلا تخلو الارض من حجة الهية.

وعن موقف المعارضة للرسالة أشار إلى ثلاث:

الاول :(كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا)، فان الرسالة ابلغت على لسان الانبياء والرسل كما تقتضيه واجب الرسالة .

الثاني:(كَذَّبُوهُ)، لما وجدوا رسالة الله تعالى تعارض مصالحهم المادية الشخصية، بعد ان اقيمت عليهم الحجة، فاستخدموا وسائل التكذيب بعد تمام الحجة عن علم وعمد .

الثالث: (فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضاً)، فكانت الامة اللاحقة المكذبة تابعة في الجزاء للامة السابقة عليها في التكذيب .

(وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ)، بسبب العذاب، فكان مصيرهم في خبر كان لما تلبسوا بالكفر والعصيان، ولم يتبعوا طاعة الرحمان .

وعن مصيرهم قال :

(فَبُعْداً لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ)، فان القاسم المشترك الاعظم بين الكفر هو البعد عن الرحمة الالهية، لاستحقاقهم العذاب من رب الارباب .

وحيث ان ذكر الانبياء وأممهم تكرر في مواضع مختلفة ، اكتفى سبحانه في هذا المقام بالأشارة إلى من له اتباع في عصر الرسالة فقط، للعبرة بها .

موسى وهارون:

(ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ○إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً عَالِينَ○فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ○فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ○وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ) (المؤمنون: ٤٥- ٤٩).

وتكررت تجربة الرسالة الإلهيّة في عصر موسى وهارون، وكانت الدعوة الإلهيّة واجهت اساليب الدعاية في التكذيب والنكران، والاعتماد على المنطق المادي البحت في الحياة، لاستبعاد الخلق بالقوة فقام موسى بدوره الرسالي في محاربة عبادة الحكام الفراعنة الظلام كما قام غيره في محاربة الاصنام، وكانت النتيجة واحدة في نجاة المؤمنين وهلاك القوم الكافرين .

قال سبحانه :

(ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ) لتحمل الرسالة الإلهيّة لتطبيقها بالعدل في المجتمع حيث عم الظلم على بني اسرائيل .

والى الحجة أشار بقوله:

أوّلاً : (بِآيَاتِنَا)، ومنها معجزة العصا، التي أعجزت السحرة وابطلت معارضة حجة فرعون بالتهم المادية.

ثانيا : (وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ)، والسلطان : القوة الواضحة بظهور الحجة على المكذبين.

وقال عن المكذبين :

(إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ)، وهم المعارضة الظالمة التي تصارع دعاة العدل.

وقد أشار عن صفاتهم بما يلي:

أوّلاً- (فَاسْتَكْبَرُوا) عن قبول الحق بعد تمام الحجة وانكارها عن علم وعمد.

ثانيا- (وَكَانُوا قَوْماً عَالِينَ) بالاستعلاء على غيرهم من بني اسرائيل في عصرهم لضعفهم وعجزهم عن المقاومة كما هو الحال في الاقليات .

ثالثا- (فَقَالُوا)، على سبيل الاستفهام الانكاري في رفض الانقياد للحق: (أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا)؟!

فان المنطق المادي لا يرى التفضيل للعلم والمعرفة، فلا يرضخ الا للمعايير المادية، وهي لا ترى التفريق بين العالم والجاهل من حيث البشرية .

رابعا- (وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ)، الواو حالية، فان بني اسرائيل بحكم كونهم أقلية مستضعفة كانوا يعبدون الحكام الظلام الفراعنة، كما يعبد المشركون الاصنام ، والايمان برسالة الله تفوت على الفراعنة هذا الاستعلاء .

وبهذه الصفات الاربع استحق الفراعنة العذاب لرفضهم الحقيقة عن علم وعمد بعد تمام الحجة.

فأشار سبحانه إلى الفراعنة بقوله:

(فَكَذَّبُوهُمَا) عن علم وعمد بعد تمامية الحجة .

(فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ) بالغرق في البحر الاحمر حينما خرجوا وراء بني اسرائيل.

والى نجاة بني اسرائيل أشار بقوله :

(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ)، وهو التوراة التي كانت دستورا الهيا لتطبيقه في الحياة، فكان لهم بسببه النجاة من الفراعنة الطغاة.

عيسي بن مريم:

(وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إلى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ) (المؤمنون: ٥٠).

وختم المقطع من قصص الرسل بالأشارة إلى عيسى بن مريم باعتبارة اقرب الانبياء زمانا بالنبى مُحَمَّد ص والذي يعتبر القمة في حمل الرسالة الإلهيّة لتطبيق حكم الله سبحانه في الارض وما رافق حياته من الولادة إلى الصلب من آيات العبرة بقدرة الله تعالى في حياة البشر .

قال سبحانه :

(وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً)، وهي العلامة على قدرة الله تعالى المطلقة، فان الولادة من دون اب ليس امرا طبيعيا، وارادة الله سبحانه حاكمة في الطبيعة وجودا وعدما، ومن ذلك خلق عيسى بن مريم بنفخ الروح ، كما خلق ادم من الطين، كل ذلك بالمعجزة الإلهيّة، وحيث ان هذة الاية كانت مرفوضة من قبل الماديين في عصرهما أشار سبحانه إلى حفظهما من المعارضة المادية الظالمة بوسائل ثلاث بقوله :

أوّلاً- (وَآوَيْنَاهُمَا إلى رَبْوَةٍ)، والايواء: الحماية. والربوة: العلو من المكان، فان تواجدهما في منطقة عالية يجعلها على حذر من تحركات العدو .

ثانيا- (ذَاتِ قَرَارٍ)، والقرار:ما يستقر من المكان للسكن .

ثالثا- (وَمَعِين)، وهو الماء الذي يجرى من العين النابعة.

فان هذة النقاط الثلاث ضرورية في الحياة، فاذا كانت الولادة معجزة فان الحياة العادية تخضع لما تتطلبه الحياة من اسباب ومسببات .

ويتضمن حياة الانبياء والرسل في هذا المقطع، ابتداء من نوح انتهاء بعيسى بن مريم من الصبر ، ما يؤكد على وحدة الرسالة الإلهيّة في المبادئ والوسائل والاهداف .

وحدة الرسل وتعدد المواقف:

(يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ○وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ○فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُراً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ○فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ○أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ○نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَا يَشْعُرُونَ○إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ○وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ○وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ○وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ○أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ○وَلَا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ) (المؤمنون: ٥١- ٦٢).

يتضمن هذا المقطع وحدة الرسل في المبادئ والوسائل والاهداف منذ بداءة تاريخ النبوة حتى النبي الخاتم ص، فان الدعوة لهم جميعا انما هي لتوحيد العبادة لله سبحانه وتطبيق عدالة السماء على الارض بالوسائل المعتادة عند البشر عامة ، ولا تميزهم عن غيرهم من سائر البشر سوى فضيلة الرسالة .

قال سبحانه مخاطبا الرسل عامة بالأشارة إلى خصائص الرسالة بقوله:

أوّلاً- (يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ)، فان الرسالة عن الله سبحانه بنشر كلمته وتطبيق عدالتة التي تميز الانبياء والرسل جميعا عن غيرهم من البشر .

أوّلاً- (كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ)، فالرسل كغيرهم من البشر ياكلون ما ياكل الناس، ويفضلون في الطاعم ما يستطيبون ومنها اكل الطيبات مما خلق الله.

ثانيا- (وَاعْمَلُوا صَالِحاً)، والانبياء يشتركون مع غيرهم بالالتزام بالعمل الصالح في حياتهم الفردية والاجتماعية.

(إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ)، حيث لا تخفى عن علمه شئ في الكون عامة ومنها عمل الانبياء والمرسلين .

ثالثا- (وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً)، فان الامم التى ارسل الله اليهم الرسل للتبليغ فيها لها وحدة في المبادئ والوسائل والاهداف الإلهيّة، وان اختلفت في مراحل زمينية متعددة حسب الظروف والاحوال .

رابعا- (وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ)، وان من هو حقيق بالتقوى هو الذات المقدسة، فان الربوبية الحقيقة له سبحانه دون غيره، فيجب الوقاية من عذابه وحده مني دون أي تأثر بتهديدات اصحاب السلطة في الدنيا.

وهذه الخصائص الاربع تنبع من الرؤية الواضحة للمبادئ والوسائل والاهداف الإلهيّة التي لا تختلف على مر العصور، وان اختلفت في اسلوب تطبيقها حسب الظروف والاحوال .

وطبيعي ان المواقف للناس في المجتمع تختلف تجاه هذه الخصائص بين المؤمنين والمجرمين.

وعن موقف الانحراف قال سبحانه :

(فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُراً)، التقطع: التقسيم بالفصل، والزبر: القطعة المنفصلة من الشئ .

وأشار إلى موقف المنحرفين المفهوم من السياق انهم قطعوا الوحدة الرسالية التى هى من خصائص الانبياء وجعلوها فرقا مختلفة تعرف بأسماء خاصة تميزها عن غيرها، ولا تجد اليوم دينا لم يتفرق إلى فرق متناحرة فيما بينها، في حين انها جميعا تنسب إلى نبي واحد يعترفون به، وكما في الاسلام الذي افترقت امته إلى ثلاث وسبعين فرقة .

(كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ)، والحزب : الجماعة، فانهم فرحون بما لهم من الخصائص تميزهم عن غيرهم من الفرق التي تشترك معها في الخطوط العريضة.

(فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ)، الغمرة: الجهل المستولي على الانسان استيلاء كاملا، فان واجب الرسالة الابلاغ، وقد حصل ذلك على لسان الانبياء والرسل، وليس الواجب الرسالي اكثر من ذلك. ومن غمره الجهل بحيث لا يمكن ان يصل اليه بصيص الامل والعلم لابد وان يترك وحاله حتى يجيئ الحين الذي يوجد فيه بصيص الامل، فيبلغ رسالة الله .

والى الاسباب الداعية إلى الانحراف أشار على سبيل الاستفهام الانكاري بقوله:

(أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ)، فان المال قوة اقتصادية. والبنون قوة اجتماعية .

(نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ)، فان المادة والماديات تعتبر من أبرز الخيرات في المجتمع المادي.

(بَل لَا يَشْعُرُونَ)، فان المادة والماديات في طريقها إلى الفناء وان الاسباب الداعية إلى الانحراف انما يرجع إلى حب المال والبنين، ومن يفضلهما على المبادئ التي أمر الله بها يكون عبدا لهما من دون الله. وهو الشرك بالله حقيقة وان كان لا يشعر بذلك، فلا يكون موقف الانحراف الا سيرا على طريق الشرك أعاذنا الله منه.

وعن موقف المؤمنين قال :

(إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ)، والشفقة : اعلى درجات الخوف، فان الحذر من عقاب الله سبحانه لمن يؤمن به يستلزم كل درجات الخوف .

(وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ)، لعلمهم بان هذه الآيات الكونية في دقة نظامها لها دلالتها على قدرة خالقها مما يستوجب الايمان .

(وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ)، لعلمهم بان الشركة انما تنبئ عن العجز، والله سبحانه منزه عن ذلك .

(وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا) من الاعمال حسب طاقتهم في الدنيا (وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ) الواو حالية، فانهم في نفس الوقت وجلون من التقصير في الواجب.

(أَنَّهُمْ إِلى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ)، فان رجوعهم إلى الله يوم القيامة يصاحب الوجل للخوف من التقصير في في اداء المسؤوليات على كمالها، فان الكمال لله وحده .

(أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ)، فان العلامة البارزة في الايمان هو المسارعة في عمل الخير من دون تأخير أو تثبيط للاخرين.

(وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ)، فان مسارعتهم للخيرات يجعلهم في قائمة السابقين للخير دون المتأخرين والمثبطين والمانعين للخيرات.

(وَلَا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا)، فان العمل بالخيرات انما يكون بحسب القدرة والاستطاعة ولا يكلف الله ما لا يطاق.

(وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ)، وهو استحقاق كل عامل ما عمله .

(وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)، في الجزاء العادل على ما عملوه في الدنيا.

مقارنة:

(بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ○حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ○لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنْصَرُونَ○قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنْكِصُونَ○مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِراً تَهْجُرُونَ) (المؤمنون: ٦٣- ٦٧).

وقد قارن سبحانه موقف الكفار وجزاءهم بموقف المؤمنين وجزائهم.

قال سبحانه بالالتفات إلى الكفار المفهوم من السياق:

(بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا)، فان قلوب الكفار في جهل عن هذا الموقف الايماني الذي وقفه المؤمنون وهم لا يظلمون عن استحقاق، على العكس من الكفار تماما الذين انحرفوا عن خط الايمان .

(وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ)، فان الانحراف عن خط الايمان يتبعه اعمال اخرى من المظالم بالاضافة إلى الجهل، فان جريمة التلبس بتلك المظالم لا يغتفر

بالجهالة كالدعايات المستخدمة ضد الانبياء والرسل واتهاماتهم بالافتراء والكذب والسحر والجنون وما شابه، فان هذه اعمال ظالمة لا تصدر من الجهل بل من التخطيط المتعمد، ولانها صدرت عن علم وعمد استحقوا لذلك العقاب العادل.

قال سبحانه :

(حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ)، الترف: البطر في النعمة، والجؤار: صراخ المستغيث، فان المترف بحكم بطره في جهل وغفلة عن العذاب الذي يستحقه حتى يحل به، ففي مثل هذه االحالة يعلو صوته بالصراخ مستغيثا حيث لا مجال للغوث .

(لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ)، لانه يوم العقاب وليس يوم العمل، فلا تنفع الاستغاثة في استحقاق العقاب.

(انَّكُمْ مِنَّا لَا تُنْصَرُونَ)، لعدم استحقاق النصر، وليس لاحد سواه تعالى ناصر.

وختم المقارنة بالاسباب التي أوجبت العذاب وعدم النصر بقوله:

أوّلاً- (قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ)، بواسطة الانبياء والرسل في الكتب.

(فَكُنْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنْكِصُونَ)، والنكوص: الرجوع إلى الوراء، وهو كناية عن الاعراض عن الامر لعدم الرغبة فيه.

ثانيا- (مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ)، والاستكبار: عدم الرضوخ للقرآن المفهوم من السياق، لاحتوائه الآيات التى تتلى عليهم.

ثالثا- (سَامِراً)، والمسامرة: الحديث للتسلية، فكان موقفهم تجاه القرآن كما هو موقف من يقضي وقته بالتسلية في قراءة القصص المسلية لقتل الوقت، وليس للاعتبار.

رابعا- (تَهْجُرُونَ)، والهجر: القطيعة، وذلك بالاعراض عن الآيات القرانية الداعية إلى العمل للخير في الحياة الفردية والاجتماعية.

وهذه الامور الاربعة تجعل المترفين مستحقين للعذاب، لانهم يقومون بما يقومون به عن علم وعمد واختيار. أما عن غير المترفين فيختلف حالهم، فمنهم من يكون كذلك فيشترك معهم في العذاب، ومنهم من يكون ذيلا وتبعا فلا يكون بنفس المستوى.

اتمام الحجة:

(أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ○أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ○أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ○وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ○أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجاً فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ○وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ○وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآَخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ○وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ○وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ○حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ) (المؤمنون: ٦٨- ٧٧).

وقد سرد في هذا المقطع سلسلة من الاستفهامات الانكارية، التى تدل على تمامية الحجة على الكفار، وانهم انما اتخذوا موقف الكفر عن علم وعمد لمعارضة الحق.

قال سبحانه:

أوّلاً- (أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ) الذي جاء به الرسل واخرهم النبي القائد بالقران الكريم، فانه ابلغه بلسان القوم، قال تعالى:(انا انزلناه قرانا عربيا لعلكم تعقلون) (يوسف:٢)

ثالثا- (أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ)، فان رسالة النبي مُحَمَّد ص انما جاءت مصدقة لما بين بديه من الكتب، وليست تناقض رسالة الانبياء في المبادئ والوسائل والاهداف .

ثالثا- (أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ)، لقيام الآيات بنبوة الرسول القاند في التوراة والانجيل، وما ظهر على يده من المعجزات الدالة على صدقه، ومنها: القران الكريم. فلا يكون الانكار الا عنادا عن علم وعمد .

رابعا- (أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ)، وهو الاتهام ، وقد فنده بقوله:

(بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ)، فان هذه التشريعات الدقيقة التى يحتويها القران لا يمكن أن تصدر عن مجنون، فانها تتطابق في اصولها مع المبادئ والوسائل والاهداف التي اكدت عليها الاديان السماوية من قبل من التوراة والانجيل .

ثم رد شبهة المساومة على الحق كما هو شأن السياسيين في الحياة – وذلك بان يهادن الرسول أهواء هؤلاء المشركين والكفار في بعض المبادئ، وبذلك تتوحد الكلمة بين الجانبين .

وقد رد سبحانه هذا الاحتمال بشدة بقوله:

(وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ)، بالمساومة على بعض النقاط سواء في الشرك أو الحكم أو في الكتب المنزلة.

(لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ)، لان حكم الله تعالى ليس في معرض المساومة، وانما هو للتطبيق لحكم العدل الالهي على الارض وأي خلل في ذلك خرق للعدالة الالهية التي تعم السماوات والارض ومن فيهن فلا يمكن المساومة على الحق في أية نقطة.

ثم اكد على واجب الرسالة بقوله:

(بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ)، والذكر: هو القران الذي يؤكد المجتمع في عصر الرسالة بالعمل به وتطبيقه في الحياة. وكان موقف المشركين الاعراض عن ذلك عن علم وعمد فاستحقوا بذلك العذاب.

خامسا- (أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجاً)، والخرج : هو الاجر على العمل، فإن مسؤولية الرسالة ليس موردا للمساومة.

(فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ)، فان الاجر للرسالة لا يكون الا من الله الذي ارسل الرسول، وليس من الناس الذين ليس لهم دور في الرسالة سوى العمل.

(وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ)، بالنسبة إلى الناس الذين لا يدفعون شيئا مهما كان قليلا الا لمصلحة في مقابلها، والله يرزق من يشاء بغير حساب.

وهذه الاسئلة الخمسة تبرز موقف الاعداء ضد الرسول (ص)، وانها مواقف نابعة من المصالح الشخصية، وليست موقف المسؤولية .

ونتيجة هذه الاسئلة قال سبحانه:

بالنسبة إلى موقف الرسول القائد (ص) :

(وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)، وهذا هو الهدف الاول في الرسالة المحمدية مهما كانت التهم والدعايات الباطلة.

وبالنسبة إلى موقف الاعداء قال:

(وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآَخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ)، والنكوب: الميل عن الشئ، فان الميل عن الصراط المستقيم انحراف مهما كانت درجة الميل يمينا أو شمالا، ولا علاج للانحراف الا بتعديل المسير.

ثم ختم المقطع باستحقاق الكفار للعذاب في الدنيا بقوله:

(وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ)، وهو السوء بسبب العذاب، فشمتلهم الرحمة الالهية التي وسعت كل شيء.

(لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ)، والطغيان: تجاوز الحد. واللجاج: التمادي في الشيء. والعمه: العمى، فان الرحمة إنما يستحقها من يقدرها. والكافر الطاغي في موقفه لا يقدرها، بل يستخدمها لزيادة الطغيان.

ثم أشار إلى حالة مماثلة بقوله:

(وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ)، والاستكانة: الرضوخ، فان الحياة في الدنيا لا تخلو من العذاب الدنيوي باختلاف الدرجات في المصائب الشخصية أو العائلية، الاقتصادية أو الإجتماعية، وكان هذا العذاب كافيا للرجوع إلى الله والتضرع اليه، ولكن لم يحصل ذلك منهم، لأن نظرتهم إلى الحياة نظرة مادية بحتة.

وعن نتيجة هذه النظرة المادية البحتة قال :

(حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ)، والابلاس : اليأس الكامل، فان من لا يعتبر بالعذاب الدنيوي حينما يواجه العذاب الشديد الاخروي يكون يائسا، لعلمه بما قصر به في الاستعداد للوقاية من هذا العذاب الشديد.

التوحيد وشبهات الكفار:

(وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ○ وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ○ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ○ بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ○ قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ○ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ○ قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ○ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ○ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ○ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ○ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ○ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ○ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ○ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ

مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ○ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ)(المؤمنون: ٧٨- ٩٢).

استفتح المقطع بالأشارة إلى صفات الذات المقدسة الدالة على التوحيد، فقال سبحانه:

أوّلاً- (وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ)، فان ايات الحكمة في الانفس التي تتوقف الحياة العامة عليها هي:

أوّلاً: السمع للتخاطب.

ثانيا: الابصار للرؤية.

ثالثا: الفؤاد – وهو القلب- للتعقل.

ومن يفقد شيئا منها يختل علاقته بالاخرين، ومن فقدها جميعا كان من المهملين في الحياة.

وهذه الأعضاء الحيوية في الانسان تستوجب الشكر على القدرة التي كونتها، وهي في وجودها تستند إلى علل طبيعية تنتهي في سلسلة العلل والمعلولات إلى الذات المقدسة.

ثانيا:(وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ)، والذرء: الايجاد، والحشر: الاخراج، فان وجود الانسان على الارض انما يبتدأ بخلق أول انسان ، ومنه يحصل التناسل ، وهو في وجوده التكويني يبدأ بارادة الله سبحانه وينتهي اليه بعد الموت. فان

المبدأ والمعاد اليه تعالى. ومن يعلم بوجود نفسه لابد وان يقر بمبدأ لوجوده ونهاية لما يعود اليه .

ثالثا:(وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ)، فان هذه الحالات الاربع من الحياة والموت واختلاف الليل واختلاف النهار ليست تحت قدرة أي انسان في نفسه، بل خارجة عن ارادته، فان وجودها تستند إلى علل تنتهي في سلسلة العلل والمعلولات إلى الذات المستجمع لجميع صفات الكمال والجلال وهو الله سبحانه وتعالى.

ثم أشار سبحانه إلى اهم شبهات الكفر التي تتشابه في جميع ملل الكفر في التاريخ بقوله :(بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ) في الأمم السابقة.

ثم استعرضها بالاجمال موضحا وجه الشبه فيها بتفنيدها:

شبهة البعثة:

(قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ)، وهذا الاستفهام الانكاري من المشركين في عصر الرسالة والكفار في كل عصر ومصر، لا يزال يتكرر.

(لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ)، فان هذه الشبهة كانت تطرح في كل عصر في مواجهة رسالات الانبياء.

(إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ)، و(ان) نافية، فان من ينظر إلى الحقائق من منظار مادي بحت ينفي ذلك، ويعتبرها من الاساطير والقصص الخيالية التي كانت رائجة في الامم المتقدمة.

فمن هذا المنطق المادي البحت لا يمكن الايمان بالبعث الذي ليس امرا ماديا محسوسا.

وقد فنَّد سبحانه هذه الشبهة المادية بوجوه مبدوءة بقوله: (قل) .

الوجه الاول:(قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)؟ وهذا الاستفهام التقريري لا يكون له سوى جواب فارد، هو:

(سَيَقُولُونَ لِلَّهِ)، فان خلق الارض ومن فيها لا يمكن ان يستند إلى ارادة انسان عادي، بل لابد وان ينتهى في سلسلة العلل والمعلولات إلى الذات المستجمعة لصفات الكمال، ومنها: القدرة المطلقة في خلق الارض وما فيها. فان القدرة المطلقة التي اوجدت الارض وما فيها من العدم، لهي قادرة على البعث كذلك .

وختم سبحانه هذا الوجه بالاستفهام التقريري، فقال:(قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ)؟ فان في خلق الارض وما فيها عبرة لتذكر القدرة المطلقة التي خلقتها، ونفس القدرة الخالقة لهي قادرة على اعادتها.

الوجه الثاني:(قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ)؟، وهذا الاستفهام التقريرى ليس له سوى جواب فارد، هو:

(سَيَقُولُونَ لِلَّهِ)، لان النظام الحاكم فيها يخضع لربوبية الله للكون كله، ويستلزم هذا الجواب الوقاية والحذر من العقاب الالهي، لاحتمال الخطر على اثر الانذار من الانبياء والرسل ، فعقّبه سبحانه بقوله:

(قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ)؟، فان هذا الجواب يوجب الحذر والوقاية من العذاب المحتمل.

الوجه الثالث:(قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ)؟، والملكوت: باطن الملك، حيث تحكم ارادته في كل شيء في الكون، لافتقار كل شيء اليه في وجوده. وغناه سبحانه عن كل شيء في الوجود.

(وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)، والجوار: الحماية، فان الله ينصر ولا يفتقر إلى النصر (فانه غنى عن العالمين) (ال عمران:٩٧).

ولذلك ليس لهذا السؤال سوى جواب فارد، هو :(سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ○ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ). والسحر: هنا الخدعة، فان الوعي الكامل يمنع من الانخداع بشبهات الكفار.

وهذه الوجوه الثلاثة تكشف بوضوح عن ان الذات المقدسة المتصفة بالكمال والجمال تعم قدرته وربوبيته وملكه جميع السماوات والارض، كما لا يمكن أن ينكر ذلك من يتأمل في آثار عظمة الله سبحانه في الكون كله، ومع الاقرار بهذه الصفات لا يبقى مجال للشك في إمكان البعث، كما أخبر به الانبياء والرسل، لانه ليس بأعظم من خلق السماوات والارض.

وقد لخص سبحانه هذه الوجوه الثلاثة في امكان البعث بقوله:

(بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ)، فان الحق الثابت بالنسبة إلى البعث يستند إلى العلم بقدرة الله، والوقاية من عذاب الله، والوعي الكامل من الانخداع بالشبهات بعد توارد الحجج من الانبياء والمرسلين.

وختم المقطع بصفات الذات المقدسة التي تنفي الشرك بكل صوره، فقال سبحانه:

(مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ)، كما يدعيه المشركون من أن الملائكة هم بنات الله.

(وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ) في الخلق والملك.

وقد فنّد ذلك بامور:

أوّلاً: (إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ)، فان الشركة في الالوهية يستلزم الانفراد في الخلق لطائفة دون أخرى، فكانت القدرة لاحد الشريكين محدودة بما خلق، دون ما خلقه الاخر، فكان لكل واحد منهما الاستقلال والخلق بالنسبة إلى ما خلق، وذلك يستلزم الفقر في الآخر.

ثانيا:(وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ) بالغلبة، لكون المفروض فقر أحدهما في جانب وفقر الاخر في جانب آخر، وطبيعة الشركة كذلك الغلبة والعلو من القوي على الضعيف. والى ذلك أشار في قوله: (لو كان فيهما الهة الا الله لفسدتا). (الانبياء:٢٢).

ثالثا:(سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ) من الشركة، فانه منزّه عن هذه الصفة التي تستلزم الفقر للاخر، (وان الله غني عن العالمين)(ال عمران:٩٧).

والى السبب في هذا الاستغناء أشار بقوله:

(عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ)، فان العلم عين الذات المقدسة، ولا يكون هناك تفريق بين الغيب والحضور، لانه في كل مكان وزمان، وكذلك كل صفاته الذاتية .

وعن نتيجة العلم بصفات الذات المقدسة أشار بقوله :

(فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ)، فان الشركة انما هو مقياس مادي لتقييم ما وراء الطبيعة، وذلك أمر محال، فان المادة والماديات لا يمكن ان تمثل المجردات، فلا يمكن معرفة الذات المقدسة بالكنه، بل بالصفات المنزهة، فسبحانه وتعالى عما يشركون .

دور النبي:

قال سبحانه:(قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ○ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ○وَإِنَّا عَلَى أَنْ نُرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ○ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ○ وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ○ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ) (المؤمنون: ٩٣- ٩٨).

يستعرض هذا المقطع دور النبي (ص) ومواقف المشركين بعد اتمام الحجة عليهم، ووضوح استحقاقهم للعذاب الالهي بانكارهم الحقائق عن علم وعمد. ويتوجه سبحانه بالخطاب إلى النبي (ص)، باعتباره قائد الامة وان دوره لا يتعدى الابلاغ للرسالة.

وقد قام بدوره الرسالي كما هو المطلوب، وهو يعلم ان ليس بيده التنفيذ للعذاب، بل امره إلى الله تعالى، ولكن العذاب إذا نزل يكون عاما، وبه يحترق الأخضر واليابس، فامر سبحانه نبيه بالنقاط التالية ليكون قدوة واسوة للمؤمنين عامة. قال سبحانه:

أوّلاً- (قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ) من العذاب، و(اما) مركبة من (ان) الشرطية و(ما) الزائدة.

وجوابها قوله:(فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)، وذلك بالنجاة من آثار العذاب كما حصل للنبي نوح ولوط وغيرهما من الانبياء.

ثم اكد سبحانه على ان امر العذاب بيده بقوله :

(وَإِنَّا عَلَى أَنْ نُرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ)، ولكن أخر العذاب لحكم هو اعرف بها، ولا ينفذها سبحانه الا في ظروف خاصة، وقد يستنبط من عذاب قوم نوح وهود وصالح ولوط ان الكثرة الكاثرة اذا كانت على الكفر معلنة للفحشاء تكون سببا لنزول العذاب، دون ما اذا كانت هناك قلة يمكنها الحفاظ على تطبيق المبادئ والوسائل والاهداف الاسلامية، لكي تكون حجة على غيرها ، والله العالم.

ثانيا: (ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ)، فان الواجب في مواجهة الشرك هو الدفاع ورد السيئة بالمقاومة من دون هجوم، فان الدخول في حرب غير متكافئة من حيث العدة والعدد يكون فيه القضاء على الطبقة المؤمنة، والله اعلم بالخطة المناسبة في تشريع القتال بالهجوم.

(نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ)، وما يستلزم في مواجهة المشركين، وهو في المجتمع المكي في عصر الرسالة ليس الا الدفاع، لعدم التكافؤ في العدة والعدد.

ثالثا: (وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ)، فان الدعاء والاستعاذة بالله في كل الحالات صلة مباشرة بين الإنسان وربه، سواء في القائد أو القاعدة، وتشتد الحاجة إلى الاستعاذة من الشيطان في طرقه، والتي اهمها :

١-(مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ)، والهمزة: الوسوسة في الصدور.

٢- (وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ)، والحضور: التواجد والقرب من المكان.

فان النبي القائد ص وان كان معصوما من تأثير الشياطين حيث قال تعالى:(ان عبادي ليس لك عليهم سلطان الا من اتبعك من الغاوين) (الحجر:٤٢)، الا أن مجرد

الوسوسة والحضور يكون مشوشا وان لم يكن موثرا، فلا يستغنى عن التحصن من بلاء الشيطان احد، وان كان مصونا من التأثر.

في طريق الآخرة:

قال تعالى:(حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ○ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ○ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ) (المؤمنون: ٩٩- ١٠١).

يشير سبحانه في هذا المقطع إلى المراحل التي يمر بها الانسان ، من الحياة والموت والبرزخ والحشر. وموقف الكفار حينما يواجهون الحقائق حيث تتضح لهم الحقائق عما يفتقرون اليه بعد الممات.

أوّلاً: قال سبحانه عن الموت:(حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ)، وهو في حال الاحتضار والنزع حيث يشاهد عالم الاخرة بآثارها الظاهرة، (قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ) إلى الدنيا بالحياة فيها لفترة اطول من التي مضت.

(لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ)، فيكون العمل الصالح عدة للاخرة .

ولكن الجواب له حينئذ هو :(كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا)، وربما هو آخر كلمة، لانه في طريق الاخرة، حيث انتهى وقت العمل في الدنيا. وبحلول الاجل لا ينفع أي أمل.

ثانيا: وعن البرزخ قال سبحانه:

(وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ)، والبرزخ – لغة –: الحد الوسط، وهي الفترة من ما بعد الموت إلى البعث في يوم القيامة، ولا يعلم أمدها سوى الله سبحانه.

ثالثا: عن البعث قال سبحانه:

(فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ)، والصور: البوق، والنفخ فيه يتحقق بواسطة الملك اسرافيل مرتين، في المرة الأولى يكون فيه الموت لجميع الاحياء، وفي المرة الثانية يكون البعث. والسياق يقتضي ان تكون النفخة الثانية، فان من آثار هذه النفخة الثانية ما يلي:

١–(فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ)، فان كل انسان رهين بعمله خيرا أو شرا.

٢–(وَلَا يَتَسَاءَلُونَ)، أي لايسأل بعضهم عن الاخر، فان كل انسان منشغل بنفسه، لهول البعث في وقت النفخة. والله العالم.

وهذه الآيات الثلاث انما هي في طريق الاخرة التي يتبعها الحساب في يوم القيامة.

يوم الحساب:

وعن يوم الحساب قال سبحانه :

(فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)، والثقل في الميزان بسبب صالح الاعمال التي يدعوا اليها الايمان، فيكون الفلاح لهم دون غيرهم.

ثم أشار إلى جزاء الخاسرين والفائزين.

فعن الخاسرين قال:

(فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ○ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ○ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ○ أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ○ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْماً ضَالِّينَ○ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ○ قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ) (المؤمنون: ١٠٢- ١٠٨).

قال سبحانه عن الخاسرين في يوم الحساب:

(وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ) من الاعمال الصالحة. والسياق يقتضي خفتها التامة بخلوها وفراغها.

(فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ)، بسبب إهمال واجباتهم في الدنيا.

(فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ)، عقابا عادلا، لسبق انذارهم بذلك.

(تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ)، واللفح: الحريق، فان تأثيرها في الوجه أشد.

(وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ)، والكلح: تقلص الشفتين بسبب الشواء بالنار.

والى استحقاقهم العذاب الذي كذبوا به في الدنيا قال على سبيل الاستفهام الانكاري: (أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ)؟ فان يوم القيامة هو موعد ذلك العذاب الذي استحقوه بافعالهم في الدنيا.

(قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْماً ضَالِّينَ). وهذا اعتراف منهم باستحقاقهم العذاب لأمرين هما: الشقوة والضلال.

وغريب أن يتجرؤوا على استخدام المقاييس المادية الدنيوية بعد هذه المشاهد المروعة حيث قالوا:

(رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ)، فان هذا الاستدعاء بعد الاعتراف بالاستحقاق للعقوبة، وهو العلم بسبق الانذار، لا يغير ما استحقوه من العقاب، فان الانذار قد سبق بالخلود في النار، وليس بالدخول فيه فقط ثم الخروج منه. واليوم يوم الجزاء وليس يوم العمل.

(قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا)، والخسأ: الزجر عن الكلام، والامر بالسكون تحقيرا.

(وَلَا تُكَلِّمُونِ)، حيث لا يحق الكلام في وقت الجزاء بعد انقضاء وقت العمل.

وعن الفائزين قال:

(إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ○فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ○ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ).(المؤمنون: ١٠٩- ١١١).

قال سبحانه عن الفائزين مخاطبا الخاسرين:

(إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ)، وقد جمع بين دعواهم الايمان وطلب المغفرة والرحمة، وكانت مواقف الكفار تجاه المؤمنين ثلاث:

أوّلاً- (فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا)، بسبب ايمانهم في الدنيا.

وعن هذه السخرية في الدنيا قال:

ثانيا:(حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي)، فكان علم الكفار بسخرية المؤمنين وكانت السخرية قد استغرقت كل اوقاتهم، فلم يبق لهم وقت لذكر الله، فان الكفار لو لم يتشاغلوا بسخرية المؤمنين لكان لهم وقت لذكر الله تعالى.

ثالثا:(وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ)، لايمانهم وذكرهم ربهم.

وهذه المواقف الكافرة لم تزعزع المؤمنين عن رؤيتهم الواضحة، بل التزموا بواجباتهم الاسلامية من الصبر فاستحقوا الفوز.

(إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ) في يوم الحساب ما يستحقونه من الجزاء.

(بِمَا صَبَرُوا) في الدنيا على مواقف الكفر صدهم بسبب الصبر.

(أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ)، أي انهم بسبب تلك المواقف الايمانية المتحلية بالصبر من قبل يوم الحساب فازوا. وهكذا يمتاز الخاسرون من الفائزين بسبب اعمالهم المتضادة في الدنيا الفانية.

الحياة الدنيا:

(قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ○ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أو بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ○ قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلاً لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ○ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ). (المؤمنون: ١١٢- ١١٥).

أشار سبحانه إلى مدة الحياة الدنيا وانها لو قورنت بالحياة الاخرة، لا تعد الا قليلة، وقد وجه الخطاب إلى المنكرين للبعث كما يقتضيه السياق . والغرض من هذا

السؤال هو مقارنة العمل المطلوب في الدنيا الفانية مع الجزاء الدائم في الاخرة الخالدة، فان الحياة القصيرة لا تفضل على الحياة الخالدة.

فقال سبحانه:

(قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ)، فانها مهما بلغت، لا تكون الحياة في الدنيا خالدة، بل مقصورة على عدد من السنين الطبيعية باختلاف الاعمار.

وفي الجواب: (قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أو بَعْضَ يَوْمٍ)، لان الحياة في الدنيا لقصرها مهما كان عدد سنيها، تكون قليلة بالنسبة إلى الحياة الابدية في الاخرة، فتبدو لهؤلاء يوما أو بعض يوم، كما تبدو لغيرهم أنها ساعة. قال سبحانه: (ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة) (الروم:٥٥).

وبسبب اختلاف الاجوبة والتقديرات قالوا:(فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ) ممن له هذه المهمة من الكرام الكاتبين، فهم أضبط في حفظ الارقام من الناس في يوم الحساب.

(قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلاً) مهما اختلفت الآراء في العدد، ساعة أو يوما أو بعض يوم.

(لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)، فان الحياة الدنيا ليس الا فترة زمنية زائلة، وهي قليلة على كل حال بالقياس إلى الحياة الاخرة.

وقد فضّل منكروا البعث هذه الحياة الدنيا القليلة الزائلة على الحياة الاخروية، ولم يستعدوا ليوم الحساب بالرغم من كثرة الانذار من الانبياء والرسل والكتب من رب الارباب.

وختم هذا المقطع بالاستفهام الانكاري عن موقف المنكرين للبعث بقوله: (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً)؟، فان الله خلق الانسان مسؤولا عن واجباته الانسانية في النفس والمجتمع.

(وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ) للحساب في يوم المعاد.

والحسبان والظن غير وارد في صنع الحكيم المتعال الذي أوجد الكون في نظام دقيق، وخلق الانسان في احسن تقويم، لكي يقوم بالمسؤوليات الملقاة على عاتقه في الحياة الدنيا. والله المستعان.

ختام السورة:

(فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ○ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آَخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ○ وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ) (المؤمنون: ١١٦- ١١٨).

وختم السورة بصفات الذات المقدسة المستجمعة لجميع صفات الكمال والجلال، وان ذلك يستلزم التوحيد الخالص في العقيدة. والشرك يناقض ذلك في كل مظاهره، ولا فلاح للكفر لا في الدنيا ولا في الاخرة.

قال سبحانه:

١-(فَتَعَالَى اللَّهُ) عن الشرك وكل مظاهره من المادة والماديات.

٢-(الْمَلِكُ الْحَقُّ) الذي ملكه ثابت في كل مظاهر الكون في الحياة الدنيا والاخرة.

٣-(لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ)، فان كل ما يعبد من دونه من الاصنام والحكام الظلام مخلوق يفتقر اليه.

٤- (رَبُّ الْعَرْشِ)، والعرش كناية عن القدرة الكاملة على الكون.

٥-(الْكَرِيمِ) في خلقه ورزقه على العالمين أجمعين، ومن جعل الكرم صفة للعرش يظهر كونه مظهرا للكرم الالهي.

ونتيجة هذه الصفات الخمس هي نفي الشرك بكل مظاهره.

(وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ) من المشركين وعبدة الأوثان فلهم الخصائص التالية:

أوّلاً-(لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ)، فانه يتبع هواه من دون برهان على الشرك.

ثانيا-(فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ)، فان الله يحاسبه على إهمال مسؤوليته الانسانية الناقضة للفطرة بالشرك.

ثالثا-(انَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ)، فان الكفر هو الغطاء، والمشرك قد غطى عقله من التّفكر الحر، فلا يكون له ظفر في الدنيا لاهماله تحكيم عقله، ولا في الاخرة لما أوعد عليه من العذاب.

وختم السورة كلها بالدعاء الذي يفتقر اليه كل انسان مسلم في حياته: (وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ)، حيث ان المسؤوليات الانسانية كثيرة، والقصور فيها غير مأمون مهما حاول الانسان العمل بها، لعدم الضمان من صحتها أو كمالها، فان حسنات الابرار سيئات المقربين، وليس من ملجأ سوى الاستغفار من رب العالمين، فانه ارحم الراحمين.

سورة النور

(٢٤)

مدنيّة بلاخلاف، عددها (٦٤) في العراقي والشامي ، و(٦٢) في الحجازي.

وردت صيغة النور في القران الكريم (٤٣) مرة، وليس في شئ منها ذكر النور من صفات الذات المقدسة سوى في هذه السورة في قوله تعالى:(الله نور السماوات والارض) (الاية:٣٥).

وقد تضمنت السورة وضعا مقتضيا لمحتواها بانها فريضة منزلة من الله للملائكة، وتتضمن الاحكام الاخلاقية في تحصين الاسرة المسلمة من الانحرافات الخلقية والاجتماعية.

وفيها حكم العقوبات الاسلامية على الزنا والقذف واللعان، لما في كل منها من الآثار في تفكك الاسرة.

كما ان فيها أشارة إلى حادثة الافك الأثيمة وآثارها والموقف الاسلامي منها، وفيها مواعظ للمتقين حول خطوات الشيطان والمسؤوليات الاسلامية في عشر نقاط، وفيها الأشارة إلى ان منبع هذه المواعظ هو الايمان بالله، وبيان مواقف الإيمان والكفر والنفاق، التي تتواجد في درجات مختلفة في كل مجتمع بشري.

وفيها الوعد الالهي بالخلافة والحكم الاسلامي القائم على صلة المؤمنين حقا كقاعدة مرتبطة بالقيادة الرشيدة، وختامها ان المصير الي الله فهي عندئذ تظهر حقيقة الايمان .

وكل ذلك تحتوي وعلى دروس وعبر في صيانة الاسرة المسلمة من الانحراف في متاهات الشهوات الحيوانية والابتعاد عن المسؤوليات الانسانية.

السورة الفريضة:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) .(النور:١).

استفتح سبحانه سورة النور هذه بأوصاف أربعة هي:

أوّلاً:(سُورَةٌ)، والسور: ما يحيط بشئ كالحائط بالنسبة إلى الدار .

ثانيا :(أَنْزَلْنَاهَا)، والنزول: هو بواسطة الوحي كسائر السور القرآنية.

ثالثا:(وَفَرَضْنَاهَا)، والفرض: الواجب الذي يكون التخلف عنه معصية.

رابعا:(وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ)، وأهمها آية النور التي بها سميت السورة، وختمها في الحكمة لذلك كله بقوله: (لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)، فان هذه الاوصاف الاربعة تستلزم أهميتها في الحياة الروحية للتذكر بها.

ولم ترد كلمة السورة في القرآن الكريم مقرونة بالفرض في غير هذه الآية، فقد وردت تسع مرات في القران الكريم، وسياقها يقتضي ان للسورة وحدة موضوعية

تميزها عن غيرها من الآيات القرآنية، بخلاف سورة النور هذه، فانها وصفت بالسورة مع ان محتواها ليس في وحدة موضوعية الا في الخطوط العريضة للتقوى والايمان، التي منها العقوبات الاسلامية التي بها تصان الاسرة من الانحراف، فكانت فريضة باعتبارها الخلية الاولى لبناء المجتمع الاسلامي.

عقوبة الزنا:

قال سبحانه:(الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ○ الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أو مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أو مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ) .(النور:٢ -٣).

ابتدأ سبحانه في العقوبات الاسلامية بعقوبة الزنا، باعتباره الانحراف المهدد لكيان الاسرة التي هي اللبنة الاولى في بناء المجتمع، وقد شدد على اعلان العقوبة اعلانا عاما ليكون عبرة لكل من يتعدى حدوده في الاخلال بهذه اللبنة الاصلية، وذلك في مواد أساسية في العقوبة، وتفصيلها في الفقه الاسلامي من حيث الشرائط في الاثبات والعقوبة.

قال سبحانه:

أوّلاً:(الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ)، والزنا: العلاقة الجنسية غير المشروعة. والجلد: الضرب بالسوط عقوبة. وتقديم الزانية انما هو لان الزنا لا يتحقق موضوعا الا بالعلاقة غير المشروعة مع المرأة، وفي غيرها لايكون الزنا .

الثاني:(وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ)، والرأفة: العطف ترحما، لان العقوبة بعد استحقاقها لا تستلزم العطف والرحمة.

(إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ)، فان من مستلزمات الايمان تنفيذ العقوبات، كما هو الحال في تنفيذ الطاعات على حد سواء، واهمال احداها بأية درجة كان يكشف عن عدم الايمان على اختلاف الدرجات.

(وَلْيشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)، بان يكون تنفيذ العقوبة في مشهد عام، وانما خص المؤمنين لان غيرهم لا يعتبر بما لا يؤمن كالمشركين.

رابعا: (الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أو مُشْرِكَةً)، النكاح: العلاقة الجنسية المشروعة الدائمة، وبهذا التحديد ينافي الزنا الذي هو علاقة جنسية غير مشروعة.

وبما ان علاقة الزنا علاقة مشروعة من وجهة نظر طائفتين هما: طائفة الزناة وطائفة المشركون، فان هذين الطائفتين لايؤمنان بحرمة الزنا، فتكون العلاقة الجنسية مشروعة في اعتقادهما، دون غيرهما.

وهذا اخبار عن حقيقة جارية في مجتمعات الكفر والشرك، سواء بالنسبة إلى الرجال أو النساء.

(وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أو مُشْرِكٌ)، لاشتراكهما في العقيدة بشرعية هذه العلاقة غير المشروعة اسلاميا.

خامسا: ثم ذكر سبحانه الحكم الاسلامي القاطع في هذه العلاقة بقوله:

(وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ)، فان العلاقة الجنسية الدائمة لا تكون مشروعة قط الا بالنكاح الشرعي، وينافي ذلك الزنا بكل صوره، سواء المحصن أو غير المحصن، كما قال سبحانه:(ولاتنكحوا المشركات حتى يؤمنّ ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو اعجبتكم ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم) (البقرة:٢٢١).

فان المشرك لا يؤمن بلوازم العلاقة الجنسية المشروعة من المنطلق الاسلامي كما هو الحال في الزاني على حد سواء ، وطبيعي ان هذا الحكم يختلف فيما اذا تغيرت موقفهما، من الشرك إلى الايمان في المشرك، ومن العصيان إلى التوبة في الزاني، فيكون حالهما حال المؤمنين حيث لايكونان حينئذ متلبسين بمادة الاشتقاق، وهي الشرك والزنا، كما هو مشروح في علم الاصول، (راجع المادة في مبادئ الاصول).

وهذه المبادئ الخمس تحدد وجهات النظر المختلفة في العقوبة بين الاسلام الذي يؤكد على صيانة الاسرة من الانحراف باعتبارها اللبنة الاولى في بناء المجتمع، وبين الشرك الذي لا يهتم ببناء هذه الخلية على اسس الطهارة، وفي النتيجة يختلفان في العقوبة عليها.

والسياق يقضي أن هذا التشريع بالجلد كان بعد التشريع بالحبس في قوله تعالى :(واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن اربعة منكم فان شهدوا فامسكوهن في البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلا)(النساء:١٥).

فان تشريع الجلد سبيل اخر جعله الله لهن، والله العالم.

عقوبة القذف:

قال تعالى:(وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَداً وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ○ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ).(النور: ٤-٥).

الرمي – لغة-:الإلقاء، ويطلق على استخدام السهم لجرح الآخرين، واستعير في رمي المرأة بالزنا، واصطلح عليه في الفقه الاسلامي بالقذف (راجع المادة في المعجم).

وقد شرح في تفسير هذه العقوبة، ان العقوبة لاتختص بالرجل القاذف، وانما ذكر تغليبا،. بل يعم الحكم المرأة القاذفة للرجل بالزنا كذلك.

وفي اثبات هذه الجريمة شدة تكاد يستحيل معها الاثبات، للردع في الشرع عن القذف من دون العلم القاطع، فاوجب سبحانه الشهادة بأربعة فيها، مع ان الشهادة تثبت في غيرها باثنين كسائر البينات، وفرض عقوبة شهادة القذف اذا لم يمكن الاثبات، فان هذه التهمة تهدم اساس العلاقة الزوجية التي بها تنهدم وحدة الاسرة التي هي عماد المجتمع الانساني .

قال سبحانه:(وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ) بالقذف بالزنا من دون دليل قاطع.

(ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ)، فان هذه التهمة الكبيرة تستدعي طرق الإثبات أكثر من المعتاد، فاذا كانت البينة يكتفى فيها بشهادة اثنين فان القذف لا يحكم فيه الا بأربعة شهداء.

ثم ذكر سبحانه عقوبتين لهذه التهمة:

الاولى: (فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً)، فان القاذف يجلد على هذه التهمة بما هو اقل من الزنا نفسه، بنسبة ثمانين في الماءة، لاشتراكهما في الأثر وهو هدم الخلية الصالحة في المجتمع عن علم وعمد، وللاختلاف بين المباشرة في الزنا . والسبب في القذف كان تحقق الحكم بنسبة عشرين في الماءة من القذف.

الثانية: (وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَداً) حتى في الحالات الاخرى التي لا ترتبط بالموضوع، فان الذي يهدم مستقبل الاسرة في المجتمع يستحق رفضه من المشاركة في أي أمر يهم المجتمع ومنها قبول الشهادة ، بل يترك ليعيش في عزلة مهتما بأموره الخاصة فقط.

ثم أشار إلى الحكمة في هذه العقوبة الشديدة بقوله:

(وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)، والفسق: المعصية، وبحسب درجات المعاصي في علم الله حدد سبحانه العقوبات العادلة كما هي الحال هنا.

ثم أشار إلى الاستثناء بقوله: (إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا)، فان العقوبات على شدتها ترتفع بعد الالتزام الصادق بتعديل الموقف. وقد أشار إلى ان ذلك يفتقر إلى امرين:

الاول: التوبة، بالاعلان عن الرجوع عن المواقف الاجرامية .

الثاني: الاصلاح لما اوجب من الاضرار التي يمكن اصلاحها.

(فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) بعد تحقق الامرين معا، لان العقوبات ليس انتقاما، بل وسيلة لاصلاح المجتمع. والله ارحم الراحمين.

عقوبة اللعان:

قال سبحانه: (وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ○ وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ○ وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ○وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ○ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيم) .(النور: ٦-١٠).

يتضمن هذا المقطع حكم القذف خصوصا من الزوج لزوجتة بالزنا خاصة، وبما أن هذه قضية عائلية داخلية في داخل الاسرة، فالعقوبة تكون بما يحفظ كرامة الطرفين المتنازعين عند الحاكم الشرعي. وحيث ان هذه العقوبة تستلزم اللعن من الجانبين، ورد مصطلح "اللعان" في الفقة على ما هو مشروح (راجع المادة في المعجم). فعند فقدان أي اثبات شرعي على الدعوى يكون على الزوج القاذف زوجتة بالزنا عقوبة اللعان, ليدرأ عنه عقوبة القذف، فيشهد اربع مرات بذلك في المحكمة الشرعية ويلعن نفسه في الخامسة. وكذلك الزوجة.

ويكون اللعان فسخا للعلاقة الزوجية بحرمة أبدية بين الزوجين على تفصيل مشروح في الفقة.

قال سبحانه:

(وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ)، أي الرجال الذين يرمون زوجاتهم بالزنا، والزوج يؤكد وقوع ذلك ، بينما الزوجة تنفيه (وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ)، و(الواو) حالية،

أي حال فقدان أي اثبات من حجة سوى دعوى الطرفين القذف بالزنا من الزوج ودعوى الزوجة البراءة من الزنا.

فان عقوبة القذف هو "اللعان" في المحكمة الشرعية، وهي:

أوّلاً : (فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ)، بان يقول الزوج :"اشهد بالله أني لمن الصادقين في قذف زوجتي بالزنا " . ويكرر ذلك أربع مرات.

وثانيا: (وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ)، ويختم الزوج الشهادة بلعن نفسه ان كان من الكاذبين، بان يقول:"لعنة الله علي ان كنت من الكاذبين في اتهام زوجتي بالزنا".

وبهذا اللعان يسقط عن الزوج القاذف حد القذف.

وعن طريق سقوط الحد عن الزوجة قال:

(وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ)، وهو عقوبة الزنا بالدفاع عن نفسها باللعان، هكذا:

أوّلاً:(أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ)، بان تقول: " أشهد بالله أن زوجي من الكاذبين في اتهامي بالزنا" وتكرر ذلك اربع مرات.

ثانيا:(وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ)، بان تقول :"غضب الله عليّ ان كان زوجي من الصادقين في نسبة الزنا إليّ".

وبهذا اللعان من جانبها يسقط عن الزوجة حد الزنا ايضا.

ويترتت على اللعان المتحقق بشروطها عند الحاكم الشرعي فسخ العلاقة الزوجية. كما يترتب على ذلك الحرمة الابدية بينهما وعدم التوراث وانتفاء الولد عن الزوج شرعا على ما هو مشروح في الفقه.

والى الحكمة في هذا التشريع أشار بقوله:

(وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ)، وجواب (لولا) مفهوم من السياق، أي :"لشقيتم"، فان العلاقة الزوجية القائمة على التهمة من الجانبين عين الشقاء، وحلها بتشريع اللعان فضل من الله ورحمة للزوجين، فيدرأ حد القذف والزنا عنهما.

وتظهر حقيقة هذا الشقاء في الامم التي لاتؤمن بفسح العلاقة الزوجية في مثل هذه الحالات. عصمنا الله منها.

(وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ)، فان تشريع اللعان وسيلة للتوبة والرجوع إلى الله لحكمته سبحانه في اللعان بما يدرأ عنهما العقوبة المادية بالعقوبة التشريعية.

قصة الإفك:

قال سبحانه: (إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ○ لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْراً وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ○ لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ○ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ○ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ○ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا

سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ○ يَعِظُكُمَ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَداً إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ○وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيات وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ○ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آَمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآَخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ○ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ) .(النور: ١١-٢٠).

لم يتوقف المشركون والمنافقون – لحظة ما في حياتهم- من معارضة الدعوة الاسلامية بكل قواهم، فاستخدموا أساليب النفاق في المعارضة المتيسرة لهم في الشكيك في المبادئ التي يدعوا اليها الاسلام وفي شخصية النبي القائد بالتهم الموجهة اليه شخصيا كالجنون والصباوة، ومنها: الاتهام بالنسبة إلى عائلته الكريمة. بالافك، وهو الكذب العظيم الأثر في النفس والمجتمع.

وقد واجه النبي القائد كل هذه المحأوّلاًت على اسس اسلامية أعلن عنها في دعوته، وطبقها في حياته. ولم ينحرف عنها إلى العادات والاعراف الجاهلية قط، حتى في الامور الشخصية، وهي حادثة الافك التي اشاعها المنافقون، فأعلن عنها في هذا المقطع موقفه القيادي الاسلامي، كما أشار إلى المواقف الاسلامية المطلوبة من المؤمنين في الإسلام بقوله تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

ثم قال سبحانه: (لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْراً وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ)، و (لولا) للتحضيض .

وفي المواقف الالهية من الفضل بقوله تعالى: (لولا)، للامتناع. كل ذلك التزاما منه بالمبادئ والوسائل والاهداف الاسلامية من دون أي تاثير عاطفي.

وقد روي في حادثة الافك ما أخرجه ابن جرير الطبري (ت/٣١٠هـ) في حادثة الإفك ، ما ملخصه:

زعموا أن عائشة زوج النبي (ص)، قالت : كان رسول الله (ص) إذا أراد سفرا أقرع بين نسائه ، فأيتهن خرج سهمها خرج بها . قالت عائشة : فأقرع بيننا في غزاة غزاها ، فخرج سهمي ، فخرجت مع رسول الله (ص) ، وذلك بعد ما أنزل الحجاب ، وأنا أحمل في هودجي وأنزل فيه . فسرنا ، حتى إذا فرغ رسول الله (ص) من غزوه وقفل إلى المدينة ، آذن ليلة بالرحيل ، فقمت حين آذنوا بالرحيل ، فمشيت حتى جاوزت الجيش فلما قضيت شأني ، أقبلت إلى الرحل ، فلمست صدري ، فإذا عقد لي من جزع ظفار قد انقطع ، فرجعت فالتمست عقدي ، فحبسني ابتغاؤه . وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلون لي ، فاحتملوا هودجي ، فرحلوه على بعيري الذي كنت أركب ، وهم يحسبون أني فيه . قالت : وكانت النساء إذ ذاك خفافا لم يهبلهن ولم يغشهن اللحم ، إنما يأكلن العلقة من الطعام . فلم يستنكر القوم ثقل الهودج حين رحلوه ورفعوه ، وكنت جارية حديثة السن ، فبعثوا الجمل وساروا ، فوجدت عقدي بعد ما استمر الجيش ، فجئت منازلهم وليس بها داع ولا مجيب . فتيممت منزلي الذي كنت فيه ، وظننت أن القوم سيفقدوني ويرجعون إلي . فبينا أنا جالسة في منزلي ، غلبتني عيني ، فنمت حتى أصبحت . وكان صفوان بن المعطل السلمي ثم الذكواني ، قد عرس من وراء الجيش ، فأدلج فأصبح عند منزلي ، فرأى سواد انسان نائم ، فأتاني ، فعرفني حين رآني ، وكان يراني قبل أن يضرب الحجاب علي ، فاستيقظت باسترجاعه حين عرفني ، فخمرت وجهي بجلبابي ، والله ما تكلمت

بكلمة ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه حتى أناخ راحلته ، فوطئ على يديها فركبتها ، فانطلق يقود بي الراحلة ، حتى أتينا الجيش بعد ما نزلوا موغرين في نحر الظهيرة . فهلك من هلك في شأني ، وكان الذي تولى كبره عبد الله بن أبي ابن سلول . فقدمنا المدينة ، فاشتكيت شهرا ، والناس يفيضون في قول أهل الإفك ولا أشعر بشئ من ذلك ، وهو يريبني في وجعي أني لا أعرف من رسول الله اللطف الذي كنت أرى منه حين أشتكي ، إنما يدخل فيسلم ثم يقول : كيف تيكم ؟ فذلك يريبني ، ولا أشعر بالشر . حتى خرجت بعد ما نقهت ، فخرجت مع أم مسطح قبل المناصع ، وهو متبرزنا ، ولا نخرج إلا ليلا إلى ليل ، وذلك قبل أن نتخذ الكنف قريبا من بيوتنا ، وأمرنا أمر العرب الأول في التنزه ، وكنا نتأذى بالكنف أن نتخذها عند بيوتنا . فانطلقت أنا وأم مسطح ، وهي ابنة أبي رهم بن عبد المطلب بن عبد مناف ، وأمها ابنة صخر بن عامر ، خالة أبي بكر الصديق ، وابنها مسطح بن أثاثة بن عباد بن المطلب . فأقبلت أنا وابنة أبي رهم قبل بيتي ين فرغنا من شأننا ، فعثرت أم مسطح في مرطها ، أو لم تسمعي ما قال ؟ [فقلت:] وما قال ؟ فأخبرتني بقول أهل الإفك ، فازددت مرضا على مرضي . فلما رجعت إلى منزلي ، ودخل علي رسول الله (ص) ، ثم قال : كيف تيكم ؟ فقلت : أتأذن لي أن آتي أبوي ؟ قال : نعم . قالت : وأنا حينئذ أريد أن أستثبت الخبر من قبلهما . فأذن لي رسول الله (ص) ، فجئت أبوي ، فقلت لأمي : أي أمتاه ، ماذا يتحدث الناس ؟ فقالت : أي بنية ، هوني عليك فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر ، إلا أكثرن عليها . قالت : قلت : سبحان الله ، أو قد تحدث الناس بهذا وبلغ رسول الله (ص) ؟ قالت : نعم ، فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم ، ثم أصبحت ، فدخل علي أبو بكر وأنا أبكي ، فقال لأمي : ما يبكيها ؟ قالت : لم تكن علمت ما قيل لها . فأكب يبكي ، فبكى ساعة ، ثم قال :

اسكتي يا بنية فبكيت يومي ذلك لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم ، ثم بكيت ليلى المقبل لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم ، ثم بكيت ليلتي المقبلة لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم ، حتى ظن أبواي أن البكاء سيفلق كبدي . فدعا رسول الله (ص) علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد ، حين استلبث الوحي ، يستشيرهما في فراق أهله قالت : فأما أسامة ، فأشار على رسول الله (ص) بالذي يعلم من براءة أهله وبالذي في نفسه من الود ، فقال : يا رسول الله ، هم أهلك ، ولا نعلم إلا خيرا . وأما علي فقال : لم يضيق الله عليك ، والنساء سواها كثير ، وإن تسأل الجارية تصدقك ، يعني بريرة . فدعا رسول الله (ص) بريرة ، فقال : هل رأيت من شئ يريبك من عائشة ؟ قالت له بريرة : والذي بعثك بالحق ، ما رأيت عليها أمرا قط أغمصه عليها ، أكثر من أنها حديثة السن تنام عن عجين أهلها فتأتي الداجن فتأكله فقام النبي (ص) خطيبا ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم قال : من يعذرني ممن قد بلغني أذاه في أهلي ؟ يعني عبد الله بن أبي ابن سلول.(١)

انتهى كلام الطبري . (٢)

---

(١) جامع البيان عن تأويل أي القرآن – محمد بن جرير الطبري – ج ١٨ – ص ١١٨ – ١٢١.

(٢) عنون العلامة المجلسي قدس سره هذه الآيات بتمامها في ج ٢٠ ص ٣٠٩ – ٣١٦ باب قصة الإفك، ثم فسر الآيات اقتباسا من كلام الطبرسي في مجمع البيان (ج ٧ ص ١٣٠) والبيضاوي في أنوار التنزيل (ج ٢ ص ١٣٣ – ١٣٧) بأنها نزلت في افك المنافقين بعائشة وصفوان بن معطل السهمي . ثم نقل عن تفسير القمي : ٤٥٣ أن العامة روت أنها نزلت في عائشة وما رميت به في غزوة بنى المصطلق من خزاعة، وأما الخاصة فإنهم رووا أنها نزلت في مارية القبطية وما رمتها به عائشة . وزاد بعده وقال : حدثنا محمد بن جعفر قال : حدثنا محمد بن عيسى عن ، الحسن بن علي بن فضال قال : حدثني عبد الله بن بكير عن زرارة قال : سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول : لما هلك إبراهيم بن رسول الله صلى الله عليه وآله حزن عليه رسول الله صلى الله عليه وآله حزنا شديدا. فقالت عائشة : ما الذي يحزنك عليه ؟ فما هو الا ابن جريج . فبعث رسول الله صلى الله عليه وآله عليا (ع) وأمره بقتله ، فذهب علي عليه السلام إليه ومعه السيف وكان جريج القبطي في حائط فضرب علي (ع) باب البستان. فأقبل إليه جريج ليفتح له الباب ، فلما رأى عليا عرف في وجهه الشر. فأدبر راجعا ولم يفتح الباب . فوثب علي (ع) على الحائط ونزل إلى البستان وأتبعه وولى جريج مدبرا، فلما خشي أن يرهقه

صعد في نخلة وصعد علي عليه السلام في اثره ، فلما دنا منه رمى جريج بنفسه من فوق النخلة فبدت عورته ، فإذا ليس له ما للرجال ولا له ما للنساء . فانصرف علي عليه السلام إلى النبي صلى الله عليه وآله فقال : يا رسول الله إذا بعثتني في الامر أكون فيه كالمسمار المحمى أم أثبت ؟ قال : لا، بل أثبت . قال : والذي بعثك بالحق ماله ما للرجال وماله ما للنساء ، فقال : الحمد لله الذي صرف عنا السوء أهل البيت . وهكذا ذكر القصة في ص ٦٣٩ عند قوله تعالى : " يا أيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا " الآية في سورة الحجرات : ٤٩ . ومما ورد عن الخاصة أنها نزلت في افك عائشة بمارية القبطية ، ما رواه الصدوق في الخصال ج ٢ ص ١٢٠ – ١٢٦ مناشدة علي عليه السلام برواية عامر بن واثلة وفي آخرها : قال : نشدتكم بالله هل علمتم أن عائشة قالت لرسول الله : ان إبراهيم ليس منك وأنه ابن فلان القبطي ، قال : يا علي ! اذهب فاقتله فقلت : يا رسول الله إذا بعثتني أكون كالمسمار المحمى في الوبر أو أتثبت ؟ قال : لا بل تثبت ، فذهبت، فلما نظر إليّ استند إلى حائط فطرح نفسه فيه ، فطرحت نفسي على أثره ، فصعد على نخل وصعدت خلفه ، فلما رآني قد صعدت رمى بإزاره فإذا ليس له شئ مما يكون للرجال. فجئت فأخبرت رسول الله صلى الله عليه وآله فقال : الحمد لله الذي صرف عنا السوء أهل البيت ؟ ... . وهكذا ذكر القصة السيد المرتضى علم الهدى في الغرر والدرر ج ١ ص ٧٧ وقال : روى محمد بن الحنفية عن أبيه أمير المؤمنين عليه السلام قال : كان قد كثر على مارية القبطية أم إبراهيم في ابن عم لها قبطي كان يزورها ويختلف إليها، فقال لي النبي صلى الله عليه وآله " خذ هذا السيف وانطلق ، فان وجدته عندها فاقتله " قلت : يا رسول الله أكون في أمرك إذا أرسلتني كالسكة المحماة أمضى لما أمرتني ، أم الشاهد يرى مالا يرى الغائب ؟ فقال لي النبي صلى الله عليه وآله : " بل الشاهد يرى ما لا يرى الغائب " وذكر مثل ما مر . وروى الصدوق في علل الشرائع– باب نوادر العلل، تحت الرقم ١٠، عن ماجيلويه عن عمه عن البرقي ، عن محمد بن سليمان ، عن داود بن النعمان ، عن عبد الرحيم القصير قال : قال لي أبو جعفر (ع) : أما لو قد قام قائمنا (ع) لقد ردت إليه الحميراء حتى يجلدها الحد ، وحتى ينتقم لابنة محمد فاطمة عليها السلام منها ، قلت : جعلت فداك و لم يجلدها الحد ؟ قال : لفريتها على أم إبراهيم عليهما السلام . قلت : فكيف أخره الله للقائم ؟ فقال : لان الله تبارك تعالى بعث محمدا صلى الله عليه وآله رحمة وبعث القائم (ع) نقمة . وأما أصل هذا الإفك – فهو الإفك بمارية القبطية وابن عم لها يقال له "مأبور" – فهو مسلم عند العامة مشهور عندهم ، وممن صرح بذلك ابن حجر في الإصابة ترجمة مأبور الخصي وأبو عمر في الاستيعاب ترجمة مارية القبطية وابن الأثير في أسد الغابة ترجمة مارية ومأبور معا . ذكر ابن الأثير ، عن محمد بن إسحاق أن المقوقس أهدى إلى رسول الله جواري أربعا، منهن مارية أم إبراهيم وأختها سيرين التي وهبها النبي صلى الله عليه وآله لحسان بن ثابت، فولدت له عبد الرحمن ، وأما مأبور فهو الخصي الذي أهداه المقوقس مع مارية ، وهو الذي اتهم بمارية، فأمر النبي صلى الله عليه وآله عليا أن يقتله ، فقال علي: يا رسول الله أكون كالسكة المحماة أو الشاهد يرى ما لا يرى الغائب؟... الحديث . وذكر ابن حجر عن ابن سعد: أن مارية كانت بيضاء جميلة فأنزلها رسول الله صلى الله عليه وآله في العالية : مشربة أم إبراهيم، وكان يختلف إليها هناك وكان يطؤها بملك اليمين وضرب عليها مع ذلك الحجاب، فحملت منه ووضعت هناك في ذي الحجة سنة ثمان ، ومن طريق عمرة عن عائشة قالت : ما غرت على امرأة الا دون ما غرت على مارية ، وذلك أنها كانت جميلة جعدة ، فأعجب بها رسول الله صلى الله عليه وآله، وكان أنزلها أول ما قدم بها في بيت الحارثة بن النعمان فكانت جارتنا ، فكان عامة الليل والنهار عندها حتى تعنى أو عناها ، فجزعت فحولها إلى العالية ، وكان يختلف إليها هناك ، فكان ذلك أشد علينا ، الخبر . فالظاهر أن الرجل كان اسمه كان اسمه جريجا، والمأبور وصف له غلب عليه، ومعناه الخصي الذي أصلح ابرته، وهي كناية عن عضو الانسان. عن التاج ، أو هو بمعنى المتهم ، يقال : فلان ليس بمأبور في دينه، أي بمتهم ، قال الفيروزآبادي . وقول علي عليه السلام : " ولست بمأبور في ديني " أي بمتهم في ديني، فيتألفني النبي صلى الله عليه وآله بتزويجي فاطمة . فالمسلّم من روايات الفريقين أن الرجل كان متهما بذلك لاختلافه

عند مارية وكونه نديما لها نسيبا منها ، وكان اتهامه شايعا عند المنافقين والفساق : يتلقونه بألسنتهم من لدن أن حبلت مارية بإبراهيم، زعما منهم أن رسول الله قد عقم لعلة، ولذلك لا يلدن نساؤه، حتى صرحت بذلك عائشة في وجه النبي صلى الله عليه وآله تسلية له بوفاة إبراهيم ابنه! فغضب رسول الله وأمر عليا بما انتهى إلى براءة مارية ومأبور . فآيات الإفك المعنونة في صدر الباب تنطبق بلا ريب على افك مارية ومأبور أكمل انطباق ، مضافا إلى أن السورة نزلت في سنة تسع بشهادة آيات اللعان الواقعة في صدرها قبل آيات الإفك ، كما عرفت سابقا ، وقد كان وفاة إبراهيم بن رسول الله صلى الله عليه وآله في سنة تسع أيضا . وأما ما رواه العامة من أنها نزلت في عائشة وما رميت به في غزوة بنى المصطلق من خزاعة، فقد رووا في ذلك عن عائشة – وهي قهرمانة القصة – روايات متعددة تعلو عليها آثار الاختلاق والأسطورة، والغالب عليها طنطنة القصاصين ، ويمكن النقد عليها : ١ – راوية هذا الإفك نفس عائشة ، وقد تفردت بنقله ، ولم يرد في سرد غزوة المريسيع ذكر من ذلك ، وكل من ذكر القصة أفرد لها فصلا على حدة بعد ذكره غزوة المريسيع برواية عائشة . ٢ – ان رسول الله صلى الله عليه وآله لم يكن ليخرج معه نساءه في الغزوات ، ولم يرد ذكر من ذلك في غزوة من غزواته حتى في غزوة بني المصطلق الا من عائشة في حديثها هذا . ٣ – غزا رسول الله بنى المصطلق مغيرا يسرع السير إليهم فهجم عليهم ، لما بلغه أنهم يجمعون له ، فلم يكن يناسب له مع هذا أن يخرج معه عائشة ولا غيرها . ٤ – كان رسول الله صلى الله عليه وآله نزل بالجيش فبات به بعض الليل ثم ارتحل بالليل ، ولم تكن عائشة تحتاج بالليل أن تبعد عن الجيش لقضاء حاجتها ، فكيف لم تسمع همهمة الركبان وقعقعة السلاح وصهيل الأفراس حين قفلوا وأبعدوا ، وكيف لم تعد حتى تدرك القافلة ، وكيف غلبتها عينها فنامت والحال هذه . ٥ – هل كانت عائشة في هذه الغزوة وحدها ، ولم تكن معها امرأة أخرى من خادم و غيره ؟ وكيف يعقل ذلك ؟ ولو كان معها غيرها كيف لم يخبر الرحالين أن عائشة راحت لتتفقد عقدها ، والهودج خال عنها . ٦ – أشار على على رسول الله أن يسأل الجارية – وهي بريرة مولاة عائشة – فان كانت هي عندها في سفرتها هذه فكيف لم تخبر الناس أن الهودج خال منها، وإذا لم تكن عندها فكيف أشارت على رسول الله أن يسألها، ثم كيف يمكن تصديق أنه ص ضربها ضربا شديدا لتصدق، وكيف أقدم رسول الله على سؤالها عن ذلك وهي لم تكن في السفرة . ٧ – تكلمت عائشة مع أمها أم رومان ، وقد رووا أنها توفيت سنة أربعن وقيل سنة خمس ، لكنهم قالوا بوفاتها آخر سنة ست تحكما ليتوافق مع خبر الإفك ، وهو كما ترى . ٨ – ان سعد بن معاذ استشهد بعد غزوة بني قريظة سنة خمس، فكيف تشاور مع سعد بن عبادة بعد غزوة بني المصطلق في سنة ست ؟ فقد حكموا بأن الغزوة كانت قبل الخندق ليتوافق مع خبر الإفك، وهو تحكّم . ٩ – ان سيرين أخت مارية القبطية أهديت إلى النبي صلى الله عليه وآله في سنة سبع وقيل سنة ثمان ، فوهبها النبي صلى الله عليه وآله لحسان – ترى نص ذلك في كتب التراجم : ترجمة صفوان ، وسيرين ومارية وعبد الرحمن بن حسان – فكيف تقول عائشة : وهبها رسول الله لحسان في هذه القصة، وهي حينئذ بالإسكندرية عند مالكها المقوقس . ١٠ – زعمت أن صفوان كان حصورا – والحصور إن كان بمعنى حبس النفس عن الشهوات ، فهو وصف اختياري ، لا ينفع كتبرئة لها ، مع أنه لا يصح التعبير بأنهم وجدوه كذلك . وإن كان وصفا لخلقته ، فقد روى في حديث صححه ابن حجر عند ترجمة صفوان أنه جاءت امرأة صفوان بن المعطل إلى النبي صلى الله عليه وآله فقالت يا رسول الله ان زوجي صفوان يضربني ...الحديث ، قال ابن حجر ، وقد أورد هذا الاشكال قديما البخاري، ومال إلى تضعيف الحديث . فترى أنهم يضعفون الحديث الصحيح ليصح لهم حديث الإفك ، ان هذا لشئ عجاب . ١١ – لقد صح ان رسول الله صلى الله عليه وآله بعدما قال عبد الله بن أبي ما قال ، رحل من المريسيع ولم ينزل بهم الا في اليوم الثاني حين آذتهم الشمس ، فوقعوا نياما ، وإنما فعل ذلك ليشغل الناس عن الحديث الذي كان بالأمس ، ثم راح بعد يقظتهم حتى سلك الحجاز ونزل بقعاء ثم رحل مسرعا حتى قدم المدينة ، فلم ينزل ليلا أو بعض ليل حتى يصح قولها في رواحها لقضاء الحاجة . ١٢ – كيف تصدى القرآن العزيز ردا على ابن أبي في قوله : " ليخرجن الأعز منها الأذل" ، فأنزل سورة المنافقون وذكر فيها مقاله وخبث نيته

قال سبحانه عن حادثة الافك: (إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ). الافك: الكذب العظيم. والعصبة: الجماعة ما فوق العشرة إلى الاربعين. وبذلك يتحدد النسبة التقريبية للمنافقين في المجتمع الاسلامي في المدينة .(وَلَا تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَكُمْ)، فان الدعايات الكاذبة لابد وان تظهر حقيقتها الدعائية، وعند ظهور الحقائق يكون سببا للوعي في المجتمع، كما هو الشأن في كل الدعايات ، فيظن اصحابها انهم أثروا في تشويه سمعة شخص ما.

(بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ)، فان من تصله الدعايات الكاذبة سوف يتحقق عنها، وعند ظهور حقيقتها ينقلب ضد الكاذب، فيكون من المخلصين بل أشد اخلاصا من غيره، لعلمه بنوايا اصحاب الدعايات.

(لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ)، فان اصحاب الدعايات الكاذبة سوف يرون جزاء اعمالهم (فمن يعمل مثقال ذرة شرا يره) (الزلزال:٧).

فان كل فرد من العصبة يكون متلبسا بجريمة الاثم الذي قام به عن علم وعمد، فتكون عقوبة المشاركين من العصبة على حسب درجاتهم في الجريمة.

ولم يذكر قصة الإفك وظرفها في سورة المنافقين ، ثم ذكرها في سورة النور ، وقد نزلت في سنة تسع بعد ثلاث سنين . ١٣ – تقول آية الإفك :" والذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات " فوصفها أوّلاً بالغفلة عن هذا الإفك ، وهو يناسب مارية القبطية حيث كانت خارجة عن المدينة نازلة في مشربتها لا يختلف عندها الا رسول الله صلى الله عليه وآله ونسيبها المأبور ، واما عائشة فقد كانت قهرمانة الإفك، حيث بقيت مع صفوان وحدها ، ولم يدركا الجيش الا في نحر الظهيرة، فلتذهب نفسها كل مذهب ، وكيف كانت غافلة عن ذلك وهي تقول : " فارتعج العسكر ، لما رأوا أن طلع الرجل يقود بي " . ١٤ – وصفتها آية الإفك بالايمان ، والحال أن القرآن العزيز يعرّض بعدم ايمان عائشة في قولهك " عسى ربه ان طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن مسلمات مؤمنات "... الآية، وهكذا يؤذن بتظاهرها على النبي صلى الله عليه وآله في قوله:" ان تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما وان تظاهرا عليه فان الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير " ثم يعرّض بالخيانة في قوله : " ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا فخانتاهما ، فلم يغنيا عنهما من الله شيئا وقيل ادخلا النار مع الداخلين " (بحار الأنوار – العلامة المجلسي – ج ٧٦ – هامش ص ١٠٣، بتصرف).

(والَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ)، ولكن الرئيس الآمر في هذه العصبة تكون عقوبته اعظم من غيره من افراد العصبة، باعتباره الموجد والمخطط والآمر. والكبر: الشئ العظيم كثرة، والمتولي: من يقوم بالشئ، فان رئيس المنافقين هو الذي قام بنشر هذه الدعايات الكاذبة أكثر من غيره من افراد العصبة، فيكون عقوبته كذلك اعظم من غيره.

وبهذه الحقيقة ظهر الموقف الاسلامي القيادي من النبي الأعظم صلى الله عليه واله وسلم بانه لم تؤثر فيه الدعايات، وانه جعل العقوبة حسب من تلبس بها في درجات يكون الاكثر تلبسا أكثر عقوبة في الدنيا، حيث تنفضح دعاياته الباطلة وتنكشف حقيقته في المجتمع، وفي الاخرة فان عذاب الله اشد.

ومن يتأمل تاريخ الدعايات الباطلة للاشخاص والامم يجدها أشد على اصحابها، حيث أن دعاياتهم تكون سببا للتحقيق من ذوي الافكار الحرة في الدفاع عن الحق بما يتيسر لهم. فتنكشف الحقائق.

ثم أشار سبحانه إلى المواقف الاسلامية المفروضة تجاه الدعايات الباطلة والموقف الالهي في نصرة الحق، في مواقف خمسة:

الموقف الاول: ظن الخير:

وقد أشار الله سبحانه بقوله (لولا) للتحضيض والحث على ظن الخير كمواقف اسلامي اصيل في وجه كل الدعايات، قال سبحانه: (لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْراً)، فان الموقف الاسلامي الاول للمؤمنين والمؤمنات ان

يضنوا بأنفسهم خيرا حينما يسمعون الافك، ولا يدعون مجالا لشياع الدعايات مهما كانت. ومن آثار هذا الظن الخير قوله:

(وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ)، لكونه نابعا من خارج دائرة المؤمنين والمؤمنات، وأي شيئ يصدر من الجهة التي لا تؤمن، لاتكون مرتبطة بالمبادئ الاسلامية تكون من الأعداء، ومن البين ان العدو لا يعلن ما فيه مصلحة المجتمع الايماني، فلا يصدر منه الا ما هو في مصلحته، ومنها: تهمة الافك.

الموقف الثاني: عقوبة القذف:

وأشار سبحانه الى ذلك بـ(لولا) التحضيضية، فان الموقف الاسلامي في القذف – ومنها: الافك – هو العقاب بتنفيذ العقوبة الاسلامية للقذف، وهي ما تقدمت في الآية الرابعة بقوله تعالى:(والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولاتقبلوا لهم شهادة ابدا واولئك هم الفاسقون) (النور:٤).

قال سبحانه:

(لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ)، فان في تهمة الافك قذف لشخصية القائد في عائلته الكريمة، فيجب ان تطبق في ذلك العقوبات الاسلامية المنصوص عليها في القانون الاسلامي.

(فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ)، والمفروض كما هو معروف في السيرة النبوية ان المنافقين لم يكن لهم أي شاهد سوى سوء الظن منهم في الموضوع.

(فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ)، لان دعوى الافك عارية عن الشهادة، وأية دعوى لا تستند إلى حجة فهي دعوى كاذبة.

الموقف الثالث: فضل الله:

وهذا موقف الهي في بيان حقيقة الافك وأهداف النفاق في اشاعته، وبذلك تظهر حقيقة المنافقين من ناحية وحقيقة موقف النبي القائد من ناحية اخرى، وواجب الموقف الاسلامي من المجتمع المسلم من ناحية ثالثة.

قال سبحانه:(وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآَخِرَةِ)، و(لولا) هنا امتناعية، فان الفضل من الله بكشف الحقيقة ورحمته في الدنيا منعت من الانحراف وفضحت دعايات الاعداء من التأثير، وفي الاخرة من العذاب.

(لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ)، والمس: كناية عن الاصطلاء بالعذاب، والإفاضة: التجاوز في موضوع الافك من دون رؤية واضحة للمبادئ والوسائل والاهداف الاسلامية فيه.

(إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ)، فان تقبل الاخبار الكاذبة من دون دليل، ليس من الموقف الاسلامي المطلوب، قال سبحانه: (لاتقف ما ليس لك به علم) (الاسراء:٣٦).

(وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ)، فان الافك في نفسه جريمة، وبالنسبة إلى زوجة الرسول القائد (ص) تكون افضع، ونقل هذه الاشاعات تحقق اهداف الاعداء. ويحسب الناقل لها انه امر هين وبسيط، حيث انه ليس سوى ناقل، مع ان الناقل في نقله يكون قد ساعد العدو في اهدافه، وهو امر عظيم.

الموقف الرابع: وجوب الرفض:

وبيان ما يجب على المؤمن بالمبادئ والوسائل والاهداف الاسلامية في مثل هذه الضروف، وهو ان يرفض الافك، لانه ليس من الاسلام في شيء، وقد امر سبحانه بذلك بـ(لولا) للتحضيض فقال:(وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ)، أي الافك المشاع من جهة المنافقين.

(قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا)، لان المبدأ الاسلامي يمنع من القول بغير علم، والمفروض ان هذه التهمة العظيمة لاتساندها أية حجة أو شهادة.

(سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ)، فان الافك في نفسه بهتان، وهو الكذب المعلن، لانه عار من الحجة والشهود، فيكون بالنسبة إلى عائلة الرسول القائد اعظم.

ثم أشار سبحانه إلى ضرورة الرفض للافك بقوله:

أوّلاً:(يَعِظُكُمَ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَداً إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)، فان الايمان بالمباديء والوسائل والاهداف الاسلامية تناقض الافك في اية حالة، ومن أي انسان مهما كان، فيجب الحذر من العود إلى مثل ذلك ابدا، لانه لايجتمع مع الايمان .

ثانيا:(إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آَمَنُوا)، سواء بتلفيقها كما حصل من رأس المنافقين، أو بنقلها واشاعتها بين الناس كما حصل من آخرين. والفاحشة: الشئ الشديد القبح، ومنها: تهمة الافك.

(لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا)، حيث تنفضح خططهم عاجلا ام اجلا، فتكون النتيجة العكسية أشد عليهم في الدنيا.

(وَالْآَخِرَةِ)، فان عذاب الاخرة لا يعلمه على حقيقته سوى الله سبحانه. (وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ).

الموقف الاخير من الله هو الفضل والرحمة:

قال سبحانه: (وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ)، و(لولا) امتناعية، وجوابها مفهوم من السياق المتقدم، أي (لمسكم في ما افضتم فيه عذاب عظيم)

وأعيد هذا الموقف الالهي مرة أخرى، وختم بها المقطع، لضرورة بيان هذا الفضل والرحمة في كشف خطط العدو والمواقف الاسلامية التي لا يمكن ان تنجح الا بفضل من الله سبحانه ورحمة منه.

(وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ)، فان تشريعه لقانون العقوبات الاسلامية هو سبب الرأفة والرحمة على الأمة من الانحراف في الاعراف القبلية القائمة على شريعة الغاب، والله العالم.

موعظة المتقين:

يتضمن هذا المقطع سلسلة من النقاط التي ترتبط بالحياة العائلية، والتي يستخدمها الشيطان في خطواته للتحريف عن المبادئ والوسائل والاهداف الاسلامية في الحياة، وابتدأها بالنهي عن ذلك بقوله:

النقطة الاولى – خطوات الشيطان:

قال سبحانه:(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَداً وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيم) .(النور: ٢١).

وحيث ان كل ما يؤثر في تفكيك الرابطة العائلية من قريب أو بعيد يعد من وسائل الشيطان، خاطب سبحانه المجتمع الايماني بالتحصن ضدها بالوعي الكامل لها ولآثارها، فقال سبحانه:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)، وتخصيص الخطاب للمؤمنين باعتبار ان هذه الخطوات العشر تميز المجتمع الايماني عن غيره.

(لَاتَبِتِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ)، والخطوة: القدم، وهي كل وسيلة يستخدمها الشيطان في تحقيق اهدافه.

(وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ)، فانه لا يتبع خطوات الرحمان. والخبر لقوله (من) مفهوم من السياق، فان خطوات الشيطان وخطوات الرحمن خطان متوازيان لايلتقيان في أي زمان أو مكان.

ثم أشار سبحانه إلى اهم هذه الخطوات:

أوّلاً:(فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ)، وهو ما كان واضح القبح، كالزنا الذي يعاقب عليه في أي مجتمع انساني .

الثاني:(وَالْمُنْكَرِ)، وهو ما يستنكر في المجتمع الانساني عامة، كالسرقة والقتل. ثم أشار إلى فضل التشريع الاسلامي في هذا الحال بقوله:

(وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ) بتشريع القوانين الاسلامية العادلة في التحصن من خطوات الشيطان والوسائل التي يستخدمها (مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَداً)، والزكاة: الطهارة بالتحرر من التقليد الاعمى الجاهلي.

(وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ) باراءته طريق التزكية النفسية والروحية بتشريع العبادات والطاعات.

(وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيم) بما يفتقر اليه الانسان في الحياة من القوانين العادلة لصيانة نفسه والمجتمع من الانحراف.

النقطة الثانية ـ صلة المسلمين:

(وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) .(النور: ٢٢).

ونهي سبحانه عن الابتلاء، وهو الحلف بما يوجب القطيعة بين المسلمين لاي سبب كان.

قال سبحانه:(وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ)، والإيلاء، وهو الحلف على امر يناقض المبادئ الاسلامية، وقد خص منها بالذكر: الطبقة التي لها الفضل والزيادة عما تحتاج اليه، لسعة حالتها الاقتصادية، فان هذه الطبقة تتمكن من الحلف عن انفاق الزائد ، فنهى سبحانه عن ذلك، لانه يناقض المبادئ الاسلامية بالنسبة إلى المحتاجين، وخص منهم ثلاثا:

الاولى:(أنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى)، فان صلة الرحم من الواجبات التي تأتي في قائمة الاولويات في الاسرة، قال سبحانه: (وأولوا الارحام بعضهم اولى ببعض في كتاب الله) (الانفال: ٧٥).

الثانية:(والْمَسَاكِينَ)، والمسكين: من لا يملك قوت يومه، قال سبحانه:(فآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل)(الروم:٣٦).

الثالثة: (وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) بالهجرة إلى مدينة الرسول ص والمشاركة في واجب الجهاد، قال سبحانه: (والسابقون الاولون من المهاجرين والانصار والذين اتبعوهم بإحسان ﷺ) (التوبة:١٠٠).

ثم أشار سبحانه إلى لوازم الصلة بقوله:

(وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا)، والعفو : التجاوز. والصفح: التجاوز مع الاحسان، فان هذه الصلة بأسبابها ونتائجها مما يحبه كل إنسان لنفسه، وأشار إلى ذلك بالاستفهام الانكاري بقوله:

(أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)، فان الرابطة الانسانية تستوجب ان يحب الانسان لغيره ما يحب لنفسه، فكما ان الانسان المسلم يحب المغفرة من الله لنفسه، فان من وسائل المغفرة: العفو والصفح وصلة من يستحقها بالقرابة والفقر والهجرة، فان الله يغفر ويرحم من يغفر ويرحم غيره.

النقطة الثالثة ـ عقوبة القذف:

قال سبحانه:(إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ○ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ○ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ) .(النور: ٢٣-٢٥).

قال سبحانه:

(إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ) النساء بتهمة الخيانة الزوجية – الزنا – من دون حجة، فانه يستحق العقوبة، وقد وصف النساء بثلاث صفات، هي:

أوّلاً: (الْمُحْصَنَاتِ)، والاحصان: المنع، فان الرابطة الزوجية تجعل المرأة في حصانة.

ثانيا:(الْغَافِلَاتِ)، وذلك لغفلتهن عن التهمة الموجهة اليهن من الاعداء.

ثالثا:(الْمُؤْمِنَاتِ)، لالتزامهن بالمبادئ الاسلامية في الحياة.

وكل واحدة من هذه الصفات تكفي في المنع عن ان تحوم التهمة حولهن، فكيف اذا جمعن؟!!.

وعن العقوبة أشار إلى عقوبتين:

الاولى: (لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ)، واللعن: الطرد، فان القاذف يكون مطرودا بالعقوبة التي شرعها الاسلام ، وهي الجلد ثمانين جلدة اضافة إلى العذاب الاخروي عند الله يوم القيامة.

الثانيثة:(وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) ايضا في الدنيا، حيث يفقد المجتمع الثقة به –مهما كانت مكانتة الاجتماعية– حيث لايأمن ممن يتبع عورات الناس أن يكون موردا للثقة عند أي انسان يعرف دوره الشخصي في التجسس على الناس، وكذلك في الاخرة بما يصيبه من العذاب في يوم الحساب.

وعن العقاب العادل في يوم القيامة أشار بقوله:

(يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)، فان الكلام الصادر من ألسنتهم وما ارتكبوه بأيديهم أو سعوا اليه بأرجلهم كلها مسجلة بواسطة الكرام الكاتبين الذين قال عنهم الله سبحانه:(وان عليكم لحافظين كراما كاتبين يعلمون ما تفعلون).(الانفطار:١٢).

(يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ)، والوفاء: العطاء الكامل، والدين: الجزاء، والحق: الثابت. فان يوم الحساب هو اليوم الثابت الذي يتحقق فيه الجزاء الكامل لكل انسان حسب عمله.

(وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ)، لوضوح الحكم الالهي العادل في ذلك اليوم الفاصل بالعلم اليقيني الكامل.

النقطة الرابعة - براءة المؤمنات:

قال سبحانه:(الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ) .(النور: ٢٦).

أشار سبحانه إلى براءة المجتمع الايماني من التهم الكاذبة مهما كانت الدعايات قوية. لان المجتمع الايماني يظهر حقيقة الانسان بالعمل، وحينئذ تنتفي كل التهم بنفسها بعد ظهور الحقائق.

وقد وصف من الخصائص التي يمتاز المجتمع الايماني عن غيره بأمرين أساسيين يرجع اليهما سائر الصفات في الجانبين، ولكل منهما اصحابها.

الاول: الخبث، وهو- لغة-: القبح، سواء في العقيدة أو القول أو العمل، قال سبحانه:(الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ)، فان الذي يجمع بينهما هو الخبث، فلا يكون للخبيث انسجام مع من يضاده في هذه الصفة.

الثاني: الطيب، وهو الطهارة. سواء في العقيدة أو القول أو العمل. قال سبحانه:(وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ)، فان المجتمع الايماني يقوم على مبادئ تجتمع في الايمان المستلزم لطهارة النفس والمجتمع.

وعن نتيجة هذه الصفة (الطهارة)، قال:

أوّلاً:(أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ)، أي يقول الخبثاء في شأنهم من الدعايات الكاذبة، لان اعمالهم الطيبين تكشف عن حقيقتهم بالبراءة.

ثانيا:(لَهُمْ مَغْفِرَةٌ)، فان صبرهم على الدعايات الكاذبة يكون سببا لمغفرة ما قصروا فيه من المسؤوليات.

ثالثا:(وَرِزْقٌ كَرِيمٌ) في الاخرة التي وعد الله سبحانه الصابرين على صبرهم.

النقطة الخامسة ـ الاستئذان:

قال سبحانه:(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ○ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَداً فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ○ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ) .(النور: ٢٧-٢٩).

يعد رعاية الاداب الاسلامية في التعامل داخل الاسرة خطوة في التحصن من التهم التي قد يخططها الاعداء للاسرة. قال سبحانه:(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غير بُيُوتِكُمْ)، فان الرابطة الخارجية مع الآخرين يجب أن تخضع لأمرين:

الأول: الإعلام (حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا) ، والبيت: ما يسكنه الانسان للبيتوتة، والاستئناس: الاعلام بما يرفع الوحشة والشبهة بين الطرفين، كالطرق للباب.

الثاني: السلام (وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا)، فان السلام اعلان بالتزام الزائر بمسؤولياته، التي هي في الدرجة الاولى السلام.

والى الاثر الطبيعي لهذين الامرين أشار بقوله:

(ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)، فان كلا من الاعلام والسلام يرفعان الشبهة من الجانبين، وتشريع هذا الادب الاسلامي للذكرى بما يقتضيه الايمان.

ونتيجة الالتزام بهذا الادب الاسلامي أمور:

أوّلاً:(فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَداً فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ)، فان البيوت بحكم كونها بيوتا مملوكة لاصحابها، فلا يجوز التصرف في ملك الاخرين الا بإذن المالك، ومنها: الدخول فيها.

ثانيا:(وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا)، فان لصاحب البيت الحق في بيته، فله أن يأذن أو لا يأذن.

(هُوَ أَزْكَى لَكُمْ)، لانه ليس للزائر أن يفرض ارادته على غيره.

(وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ)، فان الطهارة الذاتية التي يؤكد عليها الاسلام تقتضي الالتزام بما شرعه الدين من الاداب، وليس للانسان أن يتصرف حسب مصالحه الوقتية.

ثالثا:(لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا)، وهي البيوت التي هجرها اهلها، ولا يعلم هل هذه الهجرة كانت عن اعراض أم لا، فانها بحكم كونها غير مسكونة، فهي تختلف عن البيوت المسكونة في الحكم، فشرع سبحانه بقوله: (فيها مَتَاعٌ لَكُمْ)، والتمتع: الانتفاع، فان الانتفاع حينئذ يكون مباحا، وليس هذا تملكا ، فإن عدم السكنى فيها بالهجرة أمارة على الاذن بالانتفاع منها من غير تملك.

(وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ) من النية حين الانتفاع من البيوت غير المسكونة.

النقطة السادسة ـ مسؤولية النظر:

قال سبحانه:(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ○ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنّ) .(النور: ٣٠-٣١).

أولى خطوات الانحراف: النظر إلى ما لا يحل النظر اليه، فان مناظر السرقة والخيانة توحي إلى الاقتباس للناظر، ومن هذا المنطلق تؤثر الأفلام في المغرمين بها من ذوي الاحلام.

وقد حدد هذا المقطع مسؤولية النظر باعتباره الخطوة الاولى في بناء شخصية الانسان المسلم.

وقال سبحانه بالنسبة للرجال:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ) بان مسؤولية النظر تحدد لهم أمرين:

الاول :(يَغُضُّوا منْ أَبْصَارِهِمْ)، والغض: الكف، ويدل السياق على ان الغرض انما هو بالنسبة إلى مظاهر النساء الجنسية وان لم تذكر.

الثاني:(ويَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ)، وهي العورة، مما لا يحل في العلاقات الجنسية .

وإلى الحكمة في هذا التشريع أشار بقوله:

(ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ)، فان الفساد الخلقي والجنسي يستمد من النظر كوسيلة وتظهر في النفس الانسانية بقية آثار الانحراف طبيعيا.

(إِنَّ اللَّه خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ) في حياتهم العامة، ومنها: مسألة النظر.

وقال سبحانه بالنسبة إلى النساء:

(وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ) بأن مسؤولية النظر بالنسبة اليهن أشد وأزيد. ويشتركن مع الرجال في امرين ويختصن بالثالثة:

الاول:(يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ) بالنظر إلى مظاهر الرجال الجنسية.

الثاني:(وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ) عما لايحل من العلاقة الجنسية.

الثالث:(وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ)، وهذا خاص بالنساء، حيث ليس للرجال بطبعهم ما يتزينون به من الحلى كما تتزين النساء ومن سار على منوالهن من المخانيث. والابداء: الاظهار.

زينة النساء:

قال سبحانه: (وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أو آبَائِهِنَّ أو آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أو أَبْنَائِهِنَّ أو أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أو إِخْوَانِهِنَّ أو بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أو بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أو نِسَائِهِنَّ أو مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أو التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أو الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) .(النور: ٣١).

وفي هذه الخصيصة الثالثة للنساء أشار سبحانه إلى استثنائات تستوجبها طبيعة العلاقات الاجتماعية في المجتمع الاسلامي في داخل الاسرة وخارجها.

قال سبحانه بالنسبة المجتمع عامة:

أوّلاً: (وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا)، وظاهر النص النهي عن الزينة نفسها، مع ان الزينة في نفسها ليست محرمة، وانما المحرم هو ابداؤها واظهار مواضعها من البدن كالنحر والمعصم، لتلازمها في الظهور. ومن اجل ذلك تكاد تتفق كلمات الفقهاء بان المراد مما ظهر هو الوجه والكفان، وليس ما ظهر من الزينة على الثياب.

(وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ)، والخمار: ما تغطي رأس المرأة وعنقها. والجيب: ما يقطع من الشئ، وفي المقام ما يظهر في أعلى القميص عند الصدر. وهذا أمر بان تغطي بالخمار الرأس والعنق والصدر باعتبارها مواضع الزينة للمرأة، وقد تصاحبها انواع الحلى التي تستخدمها النساء في حياتهن.

ثم أشار سبحانه إلى المستثنيات، وهي على نوعين:

أوّلاً- بالنسبة إلى الاسرة:

١-(إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ)، والبعل: الزوج، فان الرابطة الزوجية وجدت بينهما بالزواج.

٢-(أَوْ آبَائِهِنَّ)، مهما علت سلسلة النسب من الاجداد من الطرفين للاب والام.

٣-(أَوْآبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ)، أي أب الزوج مهما علت سلسلة النسب من الطرفين.

٤-(أَوْ أَبْنَائِهِنَّ) من الأوّلاًد مهما نزلت سلسلة النسب من الاحفاد.

٥-(أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ) من الزوجات الاخريات، فانهم يعدون كأوّلاًدها بسبب الزواج.

٦-(أَوْ إِخْوَانِهِنَّ)، سواء كانت لاخوة من الابوين أم لا.

٧-(أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ) من الأوّلاًد مهما نزلت سلسلة النسب كأوّلاًد الأوّلاًد أو أوّلاًد الاخ.

٨-(أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ) من الأولاد كذلك.

ثانيا: بالنسبة إلى غير الاسرة:

١-(أَوْ نِسَائِهِنَّ)، أي النساء اللائي يجمعهن وإياها رابطة كالصحبة وما شابه.

٢-(أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ)، من العبيد. والحمد لله الذي حرر الانسان من العبودية لغير الله. فلم يعد حاجة لذلك في عصرنا الحاضر.

٣-(أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ)، والتابع: هم الطبقة المحسوبة على العائلة وليست منها كالخدم، فان شرط الاستثناء ان يكونوا من غير أولي الإربة . والإربة: الحاجة – وهي كناية عن الرغبة الجنسية – لموانع تمنع من ذلك ككبر العمر.

٤-(أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ)، والطفل: الصغير، وهو من كان دون سن البلوغ. والظهور: الاطلاع، فان الشرط في هذا الاستثناء ان يكون الطفل ممن لم يطلع على عورات النساء، فيتحدد العمر ببلوغ التمييز، ويختلف ذلك بحسب الرشد في سن الطفولة.

وهذه في مجموعها إثني عشرة مادة مستثنات من النظر، سواء بالنسبة إلى أفراد الاسرة أو خارجها.

ثم ختم سبحانه المقطع بما يدعوا إلى النظر بقوله:(وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ) على الأرض حيث قد تحتوي الأرجل على بعض أنواع الزينة التي ليست ظاهرة.

(لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ)، فان صوت الخلخال الذي تلبسه المرأة في رجلها يجلب الانتباه للرجل ويدعوا ذلك إلى النظر اليها، فيكون ما يدعوا إلى النظر محرما كما هو الحال في النظر نفسه.

وحيث ان هذه الموعظة طبيعية في الحياة العامة، وقد تقع في المخالطة – عن علم أو غير علم — بين كثير من الناس، ختم سبحانه المقطع بقوله:(وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)، فان النجاح في الحياة انما يتحقق بعدم الانزلاق في الشهوات النفسية، بل بالتركيز على المسؤوليات، ومن اهم عوائق ذلك الشهوات الجنسية التي تبتدئ بالنظرة التي هي سهم من سهام ابليس.

النقطة السابعة – النكاح:

قال سبحانه: (وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) .(النور: ٣٢).

النكاح: هو العلاقة الشرعية بين الرجل والمرأة، ولكل أمة نكاح، وقد اختص الاسلام بالترغيب فيه في نصوص كثيرة، باعتباره الركن الأصيل في نمو المجتمع، فان أية أمة لم يكن لها كثافة بشرية فهي على طريق الانقراض كما هو مشهود في التاريخ.

وقد خاطب في هذا المقطع الأمة الاسلامية بصفة عامة ترغيبا بالامر به، والامر كما هو مشروح في علم الاصول يفيد الوجوب. (راجع: مباني الاصول، بحث الاوامر)، ولكن انعقد الاجماع على ان الامر هنا يفيد الاستحباب كما يشهد به السياق من النقطة اللاحقة.

قال سبحانه:

(وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ)، والأيم: الأعزب، سواء الرجل أو المراة، وهذا حث على الزواج كخطوة لتحصين العزاب من الانحراف، حيث ينمو فيهم الرغبات الجنسية بنموهم الجسدي.

(وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ)، ومقتضى العطف الامر بالزواج سواء كانوا أيامى أم لا، لان الزواج سبب مباشر في الكثافة البشرية التي بها قوام الأمة.

وعن الموانع المادية للزواج قال:

(إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ)، فان الموانع المادية انما هي ليست بدرجة الأضرار الاجتماعية التي تترتب على العزوبة، وهي على الأغلب موانع خيالية يمكن التغلب عليها بالقناعة والاقتصاد.

النقطة الثامنة – الاستعفاف:

قال سبحانه: (وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحاً حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ) .(النور: ٣٣).

والعفة: خصلة حميدة في الانسان في كل الحالات، وتختلف باختلاف الدرجات، وحيث ان هذه الخصلة لا تتحقق الا بالتمرين عليها في عدة فترات، أشار سبحانه إلى ضرورة الاستعفاف، وهو طلب التخلق بهذه الخصلة الحميدة، فان ذلك محمود في كل مرافق الحياة، حيث ان الوصول إلى الاهداف التي يريد الانسان تحقيقها في حياته يمكن بطريقين لا ثالث لهما:

الاول: الطريق المشروع، بسلوك الطرق القانونية لتحصيل الهدف من العلم أو الغنى أو السلطة وما شابه.

الثاني: الطريق غير المشروع، بالغلبة والسرقة والظلم وما شابه. ولا ثالث لهما، فان الطريق المزيج من المشروعة وغير المشروعة يعتبر غير مشروع، وبالنسبة إلى من لا يتمكن من الوصول إلى هدفه – لأي سبب كان – يكون البديل المشروع هو الاستعفاف بأية درجة ممكنة، وهو يختلف باختلاف الحالات من درجة واحدة إلى ٣٦٠ درجة، وهي الدرجة القصوى العكسية نعوذ بالله منها.

ومن موارد ذلك في التطبيق: النكاح. قال سبحانه:

(وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحاً)، لأي سبب كان، سواء الفقر أو عدم تيسر المواصفات المطلوبة، فان البديل الافضل هو الاستعفاف بالصبر.

(حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ) بتيسير ما يتوقف عليه النكاح ماديا ومعنويا، فان الاستعفاف حصانة في نفسه وفضيلة يستحق بسببها فضيلة حميدة. ومن يقدم على طلب الزواج لكونه صاحب تاريخ نظيف من أي انحراف خلقي، وهو اللبنة الاولى في بناء الاسرة الرشيدة التي يتكون منها المجتمع الرشيد.

النقطة التاسعة - تحرير المماليك:

قال سبحانه: (وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ) .(النور: ٣٣).

المكاتبة من الطرق التي كانت تستخدم في تحرير العبيد، وذلك ان العبد يكاتب مالكه بان يعمل ويدفع الثمن الذي اشتراه المولى به، ليكون حرا .

وكانت المكاتبة من الطرق العملية لتحرير العبيد في المجتمع الذي حكم فيه نظام الرق، وبهذه الطريقة حارب الاسلام نظام الرق، فان محاربة الفساد يتحقق بطريقين:

الاول: توفير البديل الصالح كالنكاح في العلاقة الجنسية والبيع في المعاملات الربوية.

الثاني: المنع من البديل الفاسد كالزنا في العلاقة الجنسية والربا في الاقتصاد.

والمكاتبة من البديل الصالح لعلاج مسألة الرق من دون اضرار بالمالك أو العبيد.

والحمد لله الذي أراح المجتمع الاسلامي من هذه المشكلة بانتفاء موضوع الاسترقاق في عصرنا.

قال سبحانه:

(وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ)، فان العبيد لهم الخيار في المكاتبة وعدمها، فان منهم من كان يفضل البقاء مع سيده بسب العلاقة الحسنة التي كانت تمارس معه، أو لكبر العمر بحيث لم يمكنه الاستقلال في تأمين معاشه بنفسه. وهذا مشاهد في تواريخ فترة الانتقال من الرقية إلى الاستقلال، فأمر سبحانه بالنسبة إلى من يرغب في التحرر بواسطة الكتابة بان يستخدم هذا الطريق للتحرر من الرقية بشرط اساسي هو (إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً)، فان الرقية في الاسلام لم تكن للاستعباد، بل للتثقيف بالوعي الاسلامي حتى يتحرر من العبودية للمادة والماديات ، فاذا حصل هذا الوعي له يكون على طريق التحرر.

(وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ)، فان المال الذي يملكه الانسان انما هو من فضل الله، فلابد وان يستخدم في سبيل الله، ومن ذلك تحرير العبيد ليتمتعوا بنعمة الحرية والحياة على حد سواء مع سائر الناس.

النقطة العاشرة ـ تحريم البغاء:

قال سبحانه: (وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ○ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَمَثَلاً مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ) .(النور:٣٣-٣٤).

البغاء – بالكسر–: الزنا، لأنه بغي وانحراف عن العلاقة الجنسية المشروعة، فبعد ان أشار سبحانه إلى الحلول المتصورة للتحصن من الانحراف الخلقي والزنا، أشار إلى أنه لا مبرر لهذه الجريمة الخلقية سوى الاكراه، أشار إلى السبب والاثر لهذا الاكراه الذي ينافي الفطرة الانسانية، فقال سبحانه: (وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ)، فانهن بحكم العمر الطبيعي يصبحن هدفا للاكراه بوسائل الانحراف المادية ، فيقعن في الفخ على الرغم من ارادتهن الشخصية ضد الاكراه.

(إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً)، أما من لم ترد منهن التحصن فانها خارجة عن موضوع الاكراه، ويجري عليها حكم الجريمة الاخلاقية عن علم وعمد واختيار، من عقوبة الزنا.

والى السبب الرئيسي في جريمة الاكراه أشار بقوله:

(لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)، فان دور البغاء قائمة على استخدام الفتيات للتجارة والحصول على المنافع المادية في الدنيا التي لا دوام لها، فهي منافع تعرض في الحياة لفترة قصيرة زائلة لا محالة.

وزهرة الشباب يجب أن تكون خطوة في بناء مستقبل الفتيات لتحمل مسؤولياتهن في الحياة لبناء المستقبل، وليس للشهوات العارضة الآئلة إلى الزوال.

ثم أشار سبحانه إلى موقف الفتيات المكرهات بقوله:

(وَمَنْ يُكْرِهُّنَّ)، فانه يعاقب عقوبة الاكراه، كما هو مفهوم من السياق، وبالنسبة إلى الفتيات المكرهات قال:

(فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ)، حيث ان الامر ليس بأيديهن، ولا يكون لهن عقوبة، لمكان الاكراه .(راجع المادة في المعجم).

وبعد استعراض النقاط العشر الملازمة مع التقوى قال سبحانه:

(وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ)، المشار اليها في النقاط العشر، والتي تشترك في أن لكل منها أثرا خاصا.

(وَمَثَلاً مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ)، كما هو مشروح في كتب التاريخ.

(وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ)، للوقاية عن الانحراف عن الفطرة الانسانية، فان الانحراف في الفرد والمجتمع انما يكون بسب عدم الايمان بالله تعالى، المنور للسماوات والارض، فان نور الايمان يدعوا إلى الوقاية من هذه الانحرافات.

الله نور السماوات والأرض:

قال سبحانه: (اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) .(النور: ٣٥).

الحمل حقيقي، فان الذات المقدسة نور مختص بالذات المقدسة، وليس النور المحسوس، لتنزهه تعالى عن الجسمية، وحيث ان حقيقة نوره تعالى كوجوده ومحال ان يدركه فكر الانسان المادي، أشار سبحانه إلى آثار هذا النور تكوينا وتشريعا في الكون، فانها جميعا تنتهي في سلسلة العلل والمعلولات اليه تعالى في الوجود التكويني المحسوس لآثار الخلق في السماوات والارض، وفي التشريع ما أشير اليه في النقاط العشر المتقدمة التي وقايتها تحصّن المجتمع من الانحراف عن الفطرة الانسانية.

قال سبحانه:

(اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)، فان آثار الوجود في الكون كله تستند إلى علل تهديها تكوينا في التاثير والتأثر في الحياة حسب القدرة التي أودعها الله فيها.

وحيث ان النور الالهي أمر غير محسوس بالذات، فمثل سبحانه بما هو محسوس للانسان بقوله:

(مَثَلُ نُورِهِ)، وليس حقيقة نوره، لانها ليست مادية، فلا يمكن للعقل المادي معرفته على حقيقته. والتمثيل: الدوام. والشمول: البقاء، ويتكون المشبه به من نقاط:

١-(كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ)، والمشكاة: موضع النور، والمصباح: آلة تستخدم في الانارة.

٢-(الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ)، وهي جسم شفاف يصنع من الرمل يوضع فيها المصباح لحفظه من الطوارئ كالقنديل.

٣-(الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ)، والدر:حجر كريم يلمع تلألؤا لصفائه، والزجاجة تشبه الدر في صفائها وتلألؤها.

٤-(يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ)، والمادة الممدة للنور هي شجرة تشبه في النقاء دهن شجرة الزيتون التي هي أنقى الأدهان المستخرجة من النباتات، وهذه الشجرة مباركة لكثرة خيرها في الكون.

٦-(لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ)، وتختلف هذه الشجرة المباركة عن شجرة الزيتون المادية بعدم افتقارها إلى شروق الشمس عند الصباح وغروبها عند المساء كما هو الشأن في شجرة الزيتون المادية.

٦-(يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ)، وتختلف زيت هذه الشجرة المباركة عن غيرها بأن الزيت يضئ بنفسه من دون حاجة إلى ضياء، لانه صفة واجب الوجود.

وقوله سبحانه:(يكاد)، تقريب لصفاء الزيت بالاضاءة، وكأنه لا يفتقر ضياؤه إلى ما يكون سببا للاضاءة.

٧-(نُورٌ عَلَى نُورٍ)، فان هذا النور بالذات منبع لكل نور يتصوره الانسان المادي، فكل ما يتصوره يكون نورا يضاف إلى النور نفسه.

وهذه النقاط السبع وجوه الشبه بين النور الالهي الواجب لذاته في الدوام والشمول والنقاء، فان كل ما في الوجود تستمد من هذا النور الالهي في وجوده باعتباره مخلوقا لله تعالى ومظهرا من مظاهر قدرته في الكون عامة. وفي المقام بحوث فلسفية وكلامية خارجة عن نطاق هذا التفسير ، فليراجع طالب التفصيل الى مظانها.

ثم أشار سبحانه إلى الاثر التشريعي لهذا النور الالهي بقوله:

(يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ)، باراءة الطريق بواسطة الانبياء والمرسلين أو بالايصال إلى المطلوب لمن يريد الهداية باختياره من دون اجبار.

(وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ)، فان التمثيل المذكور -كما هو الشأن في كل تمثيل - لا يكون تعبيرا حقيقيا، بل لتقريب الافهام إلى مظاهر آثار الملك العلام.

(وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)، بما يفتقر اليه الانسان من التذكير بالآيات الكونية والتشريعية.

بيوت الله:

قال سبحانه: (فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآَصَالِ○ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ○ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ) .(النور: ٣٦-٣٨).

ومن مستلزمات الهداية الالهية في حياة الانسان: التوازن بين الدنيا والاخرة، بحيث لا تلهيه الارتباطات في الجانب الدنيوي عن اهمال المسؤوليات في الجانب الاخروي.

ويتضمن هذا المقطع مسؤوليات الانسان المهتدي بهداية الله في الحياة، قال سبحانه عن المهتدين: انهم رجال يسبحون لله من فروض الطاعات في بيوت الله، وفي نفس الوقت لايلهيهم ذلك عن الواجبات الاخرى الدنيوية كالتجارة والبيع، وبذلك يحققون التوازن في الحياة.

قال سبحانه: (في بيوت)، هذا ظرف لقوله: (يسبح له)، وقد قدم للتاكيد على دور المساجد في العبادة (في بيوت) خاصة للعبادة، وهي المساجد التي تختص بصفتين:

الاولى:(فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ) هذه البيوت باقامتها على اساس يؤمن حاجة المجتمع.

الثانية:(وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ) بالعبادات الخمس الفرائض وغيرها من الطاعات.

(يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآَصَالِ رِجَالٌ)، والغدو: الصباح، والاصيل: العصر، فان الانسان عادة يبدأ أعماله اليومية بالصباح ويختمها بالمساء.

وعن صفات هؤلاء الرجال قال سبحانه:

أوّلاً: (لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ)، فان كلا منهما عمود فقري للاقصاد في المجتمع، واغلب طرق المعاش ترتبط بهما، والفرق بينهما: ان البيع آني في الحال، والتجارة مهنة مستمرة، فان هذه المسؤوليات الدنيوية لا تلهي رجال الله عما يلي:

١-(عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ) على كل حال وفي كل الأوقات.

٢-(وَإِقَامِ الصَّلَاةِ) المفروضة في أوقاتها الخاصة.

٣-(وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ)، بالمساهمة في تأمين حاجة المحتاجين ماديا.

ثانيا: (يَخَافُونَ يَوْماً)، هو يوم الحساب العادل وما يترتب عليه من الجزاء العادل، وهو يوم (تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ)، فان من طبيعة ذلك اليوم العصيب: الفزع الذي لا يمكن معه النظر بالبصر إلى جهة خاصة، ولا يمكن للفكر التركيز على أمر خاص، فان الخوف من الحساب يوجب الفزع حيث لا يأمن المؤمن من القصور أو التقصير، والامر في الكافر واضح.

والى نتيجة الأعمال الصالحة في بيوت الله ، أشار بأن هؤلاء عملوا بواجباتهم ومسؤولياتهم (لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا)، والفعل المتعلق به اللام مفهوم من السياق.

(وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ) على ما يستحقونه من الجزاء العادل، لحسن ايمانهم. (وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ)، لفضله العميم على المؤمنين.

أعمال الكفار:

قال سبحانه: (وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ○ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ). (النور: ٣٩-٤٠)

وعلى بالعكس تماما من أعمال المومنين أعمال الكفار، لاختلاف الايمان والكفر في المبادئ والوسائل والأهداف، فان المؤمن انما يسير برؤية واضحة في ذلك كله، والكافر انما يسير على الاحتمالات والظنون فيها كلها.

ثم مثّل لموقف الكفار بمثالين محسوسين في الارض وفي البحر.

فقال سبحانه عن الاول في الارض:

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا) بالمبادئ والوسائل والاهداف الاسلامية.

(أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ)، والسراب: ما يترائى كالماء حيث لا يوجد ماء، والقيعة: جمع القاع، وهو الارض، فان هذا السراب توهم خيالي.

(يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً)، فان القوة المتخيلة تولد له هذا الاحساس الذي لا أساس له.

(حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً)، حيث لا يوجد الماء حقيقة.

(وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ)، حيث انه سبحانه الحق الثابت. ووعده الحق (والله لايخلف الميعاد). (الزمر: ٢٠).

(فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ)، حيث انه لم يعمل الا أعتمادا على الظن، فلا يكون للظن من أثر يغني عن الواقع، فيكون جزاؤه الخسران.

(وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ)، في الجزاء العادل على الاعمال.

وقال سبحانه عن المثال الثاني في البحر:

(أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ)، واللجة: تلاطم الأمواج، وهي من طبيعة البحر خاصة.

(يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ)، فان عمل الكافر أشبه شئ بظلمات البحر الذي يعلوه أمواج البحار المتلاطمة فتزيده ظلمة.

(مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ)، ويعلو هذه الامواج سحاب تمنع نور الشمس من ان تصل إلى أعماق البحار.

(ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ)، وهي ظلمات البحر والامواج والسحاب.

ونتيجة هذه الظلمات فانه:

(إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا)، مع ان اليد أقرب أعضاء الانسان إلى نفسه، فان الظلمات المذكورة تكاد تمنع من رؤيته.

وهذان المثالان لأعمال الكافر، لأنها لا تقوم الا على المصالح الوقتية، وهي قائمة على الظنون، فلا يكون لها استقرار في الحياة، لانها تعتمد بصفة رئيسية على استعباد الاخرين، وهذه العبودية لايمكن ان تستخدم إلى الابد، فيكون لها النتائج العكسية.

ثم ختم المقطع بالأشارة إلى السبب الاصيل في الحياة النفسية المضطربة التي يعيشها الكافر في حياته الشخصية والاجتماعية بأنها قائمة على نكران الهداية الالهية.

قال سبحانه:(وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ)، فقد خلق النور للجميع، ورفض الكافر الاهتداء بهذا النور الالهي عن علم وعمد، ولم يجعل الله له النور، لانه باختياره رفض النور. والله لايجبر أحدا على عمل، فان كل انسان مسؤول عن نفسه، واجباره على اختيار خاص سلب لانسانيته. والله العالم.

آيات الله:

قال سبحانه:(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ○ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ○ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَاماً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ○ يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ○ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ○ لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) .(النور: ٤١-٤٦).

يشير هذا المقطع إلى آيات الله سبحانه في الكون التي في وجودها تنتهي في سلسلة العلل والمعلولات إلى الذات الواجب الوجود المستجمع لجميع صفات الكمال والجلال، وهي محسوسة لمن يتدبرها في الحياة.

قال سبحانه:

أوّلاً: بالاستفهام التقريري:(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ)، فان كل ما في الوجود يسبح بحمد الخالق بالتسبيح التكويني، فان وجودها في أنفسها دليل على عجزها وافتقارها إلى الخالق سبحانه، ومنهم:

١-(مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ) من الملائكة على اختلاف درجاتها.

٢-(وَالْأَرْضِ) من الانسان الذي خلق في أحسن تقويم.

٣-(وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ) للأجنحة ببسطها في الجو.

وهذه الاصناف الثلاثة تتباين في الخلق والحياة، كل بحسب طبيعيته وحاجاته.

(كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ) التكويني، لمعرفة كل منها بحدودها ووظائفها، وكذلك الصلاة والتسبيح التشريعي، فهو بالنسبة إلى الانسان ظاهر، وبالنسبة إلى غيره مما لايعلمه الانسان قال سبحانه:(ولكن لا تفقهون تسبيحهم).(الاسراء:٤٤).

(وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ) في الحياة من صلاة أو تسبيح أو غيرهما.

ثانيا: (وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)، فان كل شئ في الوجود يسير إلى نهايته بالموت والفناء، في حركة دائبة مستمرة، وليس لاحد ان يوقف هذه الحركة قط. وهذا يكشف عن عجز الانسان وغيره من المخلوقات بالنسبة إلى خالقها.

(وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ) في هذه المسيرة بعد الموت والفناء، لسعة ملكوته تعالى على كل المخلوقات.

ثالثا: بالاستفهام التقريري: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ) في خلق الآيات التكوينية ، واودع سلسلة العلل والمعلومات في الحياة.

١-(يُزْجِي سَحَاباً)، والإزجاء: الدفع، فان السحاب تحمل الامطار من مكان إلى آخر.

٢-(ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ)، وبعد الحركة تجتمع السحب في قطعة واحدة لا تتميز فيها القطع المختلفة المجتمعة.

٣-(ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَاماً)، والركام: توارد الاشياء بعضها على بعض، فان السحاب تتوحد بعد توارد بعضها على بعض بشكل طبقات متكاثفة.

٤-(فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ)، والودق: القطر من ماء المطر، فينزل من السحاب.

٥-(وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ)، والبرد: وهو المطر المتجمد النازل بكثرة كالجبال.

٦-(يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ)، والسنا: النور، والبرق: الضوء السريع الذي يظهر في السحاب. وقد أثبت العلم الحديث ان سرعة الضوء هو (٣٠٠ الف) كيلو متر في الثانية الواحدة.

وهذه المراتب في سلسلة مترابطة في العلّيّة، فلا يكون البرد الا من الودق الخارج من خلال السحاب المتراكم بعضها على بعض بعد تأليفها من قطع مختلفة.

(فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ)، فان تأثير ذلك إنما يكون بارادة الله بالنسبة إلى البعض دون الآخر.

رابعا:(يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ)، فان اختلاف الليل والنهار من المحسوسات التي يحس به كل انسان أو حيوان في كل الفصول الاربعة في الفترة الزمنية طولا وقصرا.

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ)، في بيان الاختلاف في دقة نظامه، ولايكون اعتباطا، بل مستندا إلى حكمة حاكمة في الكون.

خامسا:(وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ)، والدابة: ما تمشي على الارض، فان كل حيوان في وجوده ينتهيالى التولد من الماء للذكر والبويضة للانثى، وذلك على اختلاف الحيوانات:

١-(فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ) من الحيوانات الزواحف كالحية.

٢-(وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ) كالانسان.

٣-(وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ) من الانعام كالإبل والبقر والغنم.

(يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ) من انواع الحيوانات المدروسة حياتها في علم الحيوان، والتي لا تدخل تحت حصر وعدّ.

(إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) مهما دق من المخلوقات كالنمل أو كبر كالشمس والقمر, فان هذه المخلوقات على اختلاف انواعها تشترك في افتقارها الى علة في

وجودها، وكل علة منها تنتهي في سلسلة العلل والمعلولات إلى ذات الواجب الوجود تعالى. وإلى ذلك أشار في ختام المقطع بقوله:

(لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ)، فانها آيات كونية محسوسة، وتنتهي كل آية منها لمن يتدبر دلالتها على عظمة الخالق سبحانه.

(وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ) أن يختار الهداية باراءته الطريق (إلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) في الحياة، وأما من يرفض الهداية فلا يجبر على شئ، لأن الاجبار سلب لصفة الاختيار من الانسان، وان من خصائص الانسان ان يكون مختارا ، لا مجبرا، والله العالم.

علامتا النفاق- العلامة الاولى:

قال سبحانه: (وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ○ وَإِذَا دُعُوا إلى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ○ وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ○ أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمَ الظَّالِمُونَ○ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إلى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ○ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ) .(النور:٤٧_٥٢).

كما ان ألايمان والكفر خطان متوازيان لا يلتقيان، فكذلك النفاق والصدق والايمان. وقد أشار سبحانه في هذا المقطع إلى علامتين بارزتين للنفاق هما: الاعراض عند الضرر والاذعان عند المنفعة من جانب، والتأكيد بالقسم بالله من جانب آخر.

من حيث أن صدق الايمان يتلازم مع موقف واحد عند الضرر والمنفعة، وان الطاعة لا تحتاج الى تأكيد بالقسم بالله .

قال سبحانه:

(وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا)، وهذا ما يقتضيه الاسلام من الأركان الثلاثة: الايمان بالله وبالرسول والطاعة، وفي اعلان ذلك يشترك المسلمون جميعا منافقين وصادقين.

فقال عن المنافقين:

(ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ)، بل هم المنافقون والتولي: الاعراض في مرحلة العمل والتطبيق.

والى العلامة الاولى للمنافقين أشار بقوله:

(وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ) عن الرضوخ لحكم الله، حيث يجدون الحكم في غير مصلحتهم .

(وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ) بالاقرار بالحكم اذا كان في مصلحتهم فقط حيثما دار.

ثم أشار إلى أسباب النفاق الثلاث بقوله:

أوّلاً:(أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ) تمنعهم من الرضوخ لحكم الله لعدم الايمان.

ثانيا:(أَمِ ارْتَابُوا)، لحصول الشك لهم في الايمان بعد الاقرار.

ثالثا:(أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ)، والحيف: الجور، فان الله رحيم بعباده ، بل هو ارحم الراحمين.

وهذه الاسباب هي التي تدعوا إلى النفاق وتكشف عن عدم الايمان حقيقة، فقال سبحانه عن المنافقين:

(بَلْ أُولَئِكَ هُمَ الظَّالِمُونَ)، لانحرافهم عما يستلزمه الايمان.

وعلى النقيض من موقف المنافقين موقف المؤمنين بالنسبة إلى حكم الله، فقال سبحانه:

(إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ) حقا بالمبادئ والوسائل والاهداف الاسلامية.

(إِذَا دُعُوا إلى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا)، فان الطاعة من لوازم الايمان، سواء كانت لمصلحة الانسان أم ضدها، فان المبادئ الحقة أولى بالاتباع.

(وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) في حياتهم، لاذعانهم بما هو الحق وعدم رضوخهم للشهوات النفسانية الشخصية.

ثم أشار إلى سبب الفلاح بقوله:

(وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ) في القول والعمل معا (فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ)، فان فوز الحق هو فوز للعدل في المجتمع عامة، ويشمل كل الأفراد بما فيهم المتخاصمون، فان الحكم الصادر على اساس الحكمة الاسلامية نابع من العدل

الالهي، وليس البديل لهذا الحكم سوى التسلط بالغلبة والثورة عليها فيكون الضرر على من رفضها ضررا عاما على المجتمع بما فيه المتضرر نفسه.

العلامة الثانية ـ القسم:

قال سبحانه:(وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ○ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ) .(النور:٥٣-٥٤).

والعلامة الثانية البارزة للمنافق: القسم بالله بكل جهد يتصور حتى يطمئن الطرف إلى الحالف، مع ان الصدق لا يحتاج إلى الحلف ولا التأكيد، بل الحقيقة تقوم بنفسها سواء اكد عليها بالقسم أو أية وسيلة أخرى، أم لا .

قال سبحانه:

(وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ)، فان المنافقين يستخدمون القسم بالله وسيلة للضغط على صحة دعاويهم.

(لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ)، أي إلى ساحة الحرب والجهاد فيما اذا صدر الامر القيادي من النبي (ص).

وقد فنّد سبحانه دعوى النفاق هذه وان كانت مقرونة بالقسم بأمرين:

أوّلاً:(قُلْ لَا تُقْسِمُوا)، فان الكلام الصادق لا يفتقر إلى القسم.

(طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ)، وانما المطلوب هو الطاعة من دون قسم.

(إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)، كما هو خبير بما تقولون. والعمدة هو التطابق بين القول والعمل، وهو مفقود في المنافقين.

ثانيا:(قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ)، وهذا هو الواجب هو ملازم للايمان، فان طاعة الرسول بإعتباره القائد الاسلامي هي من طاعة الله تعالى، ولا يمكن التفريق بين الطاعتين.

(فَإِنْ تَوَلَّوْا) بالاعراض عن الطاعة لأي سبب كان (فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ)، فان مسؤولية الرسول لا تسقط بالاعراض من المنافقين، ولا أن مسؤولية المسلمين عامة تنقضي باعراض المنافقين التواجد بين المسلمين.

(وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا)، لان القيادة الصالحة انما تنظر الى المصلحة العامة التي فيها الخير للجميع بما فيه المتضرر.

(وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ)، بالإعلان العام عن المبادئ والوسائل والاهداف الاسلامية ليهتدي من اهتدى عن بينة، ويضل من ضل عن بينة.

الخلافة في الارض:

قال سبحانه:(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ○ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ○لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ) .(النور:٥٥-٥٧).

لقد وعد سبحانه استخلاف المؤمنين في الارض (والله لايخلف الميعاد) (الزمر:٢٠). والخلافة في الأرض انما هي للمؤمنين الذين عملوا الصالحات بالرغم من مواقف الكفر والنفاق التي تباين مواقف الايمان وتعارضها بكل ما اوتيت من حول وطول، لان الحق يعلوا ولا يعلى عليه، وذلك بعد أن تظهر حقائق المواقف في المجتمع، ويزداد اهل المعرفة صلابة والتزاما بالمبادئ والوسائل والاهداف الاسلامية التي أمر تبارك الله سبحانه بها، وطبقها الرسول القائد في حياته، قال سبحانه:

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)، وعدا بالبنود التالية:

أوّلاً:(لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ)، فيكون المؤمنون خلفاء لمن سبقهم في الحكم.

(كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ)، فان وجه الشبه: ان كل أمة تسعى إلى هدف بالشروط المطلوبة في النجاح لابد وان تصل إلى الهدف المنشود، فانه (ليس للانسان الا ما سعى وان سيعه سوف يرى) (النجم:٣٩).

ثانيا: القدرة (وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ)، فان الحق ينتصر في النهاية ويحكم بقدرة كاملة حسب المقومات التي فيها رضا الله سبحانه.

ثالثا: الأمن (وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً)، فتتبدل الحالة التي سبقت الحكم من الخوف من ظلم الظالمين إلى أمن وسلام.

وتاريخ الاسلام في عصر الرسالة وبعدها حتى اليوم يشهد بان القوى الظالمة مهما علت وطغت فان مصيرها السقوط، لان البناء القائم على الظلم ولابد وان ينهار، وعلى العكس فالبناء القائم على العدل لابد وان يستقيم مهما كانت الظروف والاحوال. والاسلام حكم في القلوب المجتمع الاسلامي حتى في احلك الظروف التي

عم فيها الظلم والطغيان. وحكم الظالمين لم يستمر اكثر من مدة حياتهم في فترة زمنية محدودة كشفت عن حقيقتهم للمجتمع، فرفضهم الناس رفضا قاطعا.

ثم أشار سبحانه إلى حقيقة المؤمنين والكفار، فعن المؤمنين بعد الانتصار قال:

(يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً)، فان الخلافة في الارض ليست غاية، بل هي مجرد وسيلة لتطبيق الاسلام، ومنها التوحيد في العبادة ورفض الشرك في كل مظاهره من الاصنام والحكام الظلام.

وعن الكفار بعد الانتصار قال:

(وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)، اذ أن الكفر بعد ظهور الحق ليس الا معصية زائدة على الكفر.

والى مسؤوليات المؤمنين أشار بقوله:

أوّلاً:(وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ)، باعتبارها رمز عبادة الخالصة لله سبحانه.

ثانيا:(وَآتُوا الزَّكَاةَ)، باعتبار أنها مساهمة اقتصادية مؤثرة في حياة المجتمع الاسلامي.

ثالثا:(وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)، فان في الطاعة للقيادة الحكيمة رحمة للأمة جميعا.

رابعا:(لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ)، فان القوة التي يدعيها الكفار لا يمكنها ان يقهر قوة الايمان، لان قوة الكفر لا يعتمد على التضحية للنفس في

سبيل الله، دون قوة المؤمنين التي تبذل النفس والنفيس وتتغلب على حاجز الخوف النفسي.

(وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ)، حيث ان المصير للكفر ليس مصيرا مطلوبا لانفسهم بالموت.

والتأمل في تاريخ الحروب التي خاضها الكفار يظهر انهم يحاولون الحفاظ على انفسهم بكل ما يتيسر لهم من الوسائل الحربية، ولايبادرون الى التضحية بالنفس في سبيل الشهادة، دون المؤمنين الذين يبذلون كل ما في وسعهم لتحقيق المبادئ قربة الى الله تعالى، والنصر لمن يتحرر من خوف الموت للفوز بإحدى الحسنيين ، اما النصر أو الشهادة.

ثلاث عورات:

قال سبحانه: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيات وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ○ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آَيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ○ وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحاً فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) .(النور:٥٨-٦٠).

العوار– لغة–: ذهاب البصر، وتوسع فيه لكل ما يستقبح ويستر استحياء، وما فيه خلل وعيب، ويتضمن هذا المقطع أدب العلاقات الداخلية في الاسرة، حيث يكره الاختلاط وتحدد حالات خاصة لا يرغب الانسان فيها بالمفاجئة، فامر سبحانه الاستندان في اوقات ثلاث بقوله:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ)، وهم الإماء والعبيد لقيامهم بمسؤوليات الخدمة في الاسرة.

(وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ)، وهم الاطفال دون البلوغ الشرعي، وهؤلاء الطائفتان يرتبطان بالاسرة ارتباطا وثيقا، ويكثر الارتباط والتماس بينهم وبين سائر أعضاء العائلة، ولكن هذا الاختلاط يحدد الاستئذان في اوقات خاصة، وهي (ثَلَاثَ مَرَّاتٍ)، حيث يكون الانسان عادة فيها في حالة خاصة يفتقر إلى التخلي بنفسه عادة.

الاولى:(مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ)، فان حالة الإستيقاظ من النوم حالة يختلي الانسان بنفسه غالبا, ويستقبح فيها اللقاء مع الاخرين.

الثاني:(وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ)، وهو وقت الاستراحة في البلاد التي يغلب فيها حرارة الجو، أو مواصلة العمل لفترة قصيرة حسب الحاجة والعادة.

الثالث:(وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ)، وهو وقت النوم بعد نهاية العمل الروتيني اليومي، ولا يستساغ اللقاء فيه مع من لا يرغب من الناس.

وتجمع هذه الاوقات صفة مشتركة بينها في جميع الافراد والملل وفي كل الحالات أنها (ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ)، حيث يتعمد الانسان للتستر من الاخرين فيقبح الدخول على الانسان من دون استئذان.

وبالنسبة الى ما عدى هذه الاوقات الثلاثة قال:

(لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ)، لان سائر الاوقات ليست للتستر، فلا حاجة إلى الاستئذان.

(طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ)، والطواف: الدوران حول الشئ ،كناية عن كثرة التردد من الخدم والاطفال من أفراد الاسرةن فلا حاجة إلى الاستئذان، بل قد يكون كثرة الاستئذان موجبا للحرج ومشقة لا تستساغ.

(كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيات)، في تشريع الاستئذان حفاظا على كرامة الانسان في مختلف الحالات من الخلوات وغيرها.

(وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)، في تشريع ما يفتقر اليه الانسان في الحياة.

ثم استثنى سبحانه حكم الاطفال بعد البلوغ الشرعي بقوله:

(وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ)، وهو البلوغ الشرعي، فلا يجري عليهم الحكم الذي كان قبل الحلم من الاستئذان عند العورات الثلاث فقط.

(فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ)، أي غيرهم، فان الاطفال بعد الحلم انما هم رجال مكلفون كسائر الرجالن فيجب عليهم الاستئذان مطلقا سواء عند العورات الثلاث ام عند غيرها من الاوقات.

(كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ)، في تشريع الحكم الاستئذان حسب حاجة الانسان.

(وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)، بأن الاحكام التشريعية تتبع المصالح والمفاسد، والله سبحانه اعلم بها.

وختم المقطع بالأشارة إلى الاستثناء في الحجاب عن العجائز باعتبارهن من الافراد اللواتي يكثر التردد عليهن وخاصة في افراد الاسرة، فقال سبحانه:

(وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ)، ذهب المفسرون إلى ان القاعدة: من قعدت عن النكاح، والسياق القرآني يأباه، بل القعود كناية عن العجز عن النشاط الذي تتمتع به النساء الشابات، حيث قال سبحانه بعد ذلك: (اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحاً)، وهذا قيد احترازي كما يقتضيه السياق، وليس توضيحيا فيستلزم التكرار من دون سبب.

(فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ)، فان الحكمة من فرض الحجاب هي التحصن من الانحراف، وهو منتف موضوعا بالنسبة إلى العجائز من النساء.

ثم أشار سبحانه الى أن الحجاب في نفسه رمز للعفة بقوله:

(وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ)، فان رمز الحجاب يدل على التزام من يتجمل بهذا الرمز بالمبادئ والوسائل والاهداف الاسلامية، فيكون الالتزام بالحجاب خير عائد على الامة جمعاء فيعود الخير في النتيجة عليهن كذلك.

(وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)، يسمع الدعوات المتضادة، ويعلم ما فيها من المصالح للعبادن ويشرع ما فيه الخير العام للبلاد.

وحدة الاسرة:

قال سبحانه: (لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أو بُيُوتِ آبَائِكُمْ أو بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أو بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أو بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أو بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أو بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أو بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أو بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أو مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ أو صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً أو أَشْتَاتاً فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيات لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ).(النور:٦١).

يؤكد هذا المقطع على وحدة الاسرة على اختلاف طبقاتها بتشريع ما يزيد في تماسكها دون أي تهميش للأفراد ذوي العلاقة بالاسرة مهما كانت الاسباب كالعمي والعرج والمرض – على سبيل المثال – فإن تهميش هذه الطوائف بعزلهم عن الاسرة في مؤسسات خاصة تجعلهم بمعزل عن العطف الاسري وتحت رحمة من لا يرحمهم الا بالمادة التي تدفع بسببهمن ومن يدرس تاريخ هذه المؤسسات القائمة باسم البر والاحسان يقف على حقيقة ما أمر به الرحمن لحفظ كرامة الانسان.

قال سبحانه:

(لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ)، فان العمى وان كان علة تعوق الأعمى من المساهمة في المجتمع فيما يفتقر الى البصر، لكنه لا يستوجب القطيعة من البيت والاسرة.

(وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ)، فان العرج عوق في الجسم لا يمنع من المساهمة في المجتمع فيما لا يتوقف على هذه العاهة.

(وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ)، فان المرض- على اختلاف انواعه – عاهة تفتقر الى العلاج الطبين وذلك لا يستلزم العزلة عن الاسرة.

(وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ) ممن لا يتصف بالعمى أو العرج أو المرض، فان الاسرة الواحدة تشترك فيما يربطها اكثر مما يفرق بينهان فان كل فرد من أفراد الاسرة مسؤولة عن التعامل مع غيرها من الأفراد كنفسها. ويدخل في ذلك بنت الابن والزوجة، وقوله تعالى:(ولا على انفسكم ان تأكلوا)، يدل على إرادة وحدة الاسرة في هذه المواقفن فانه لاحاجة إلى نفي الحرج من أن يأكل الانسان نفسه من بيته كما هو واضحن بل للأشارة إلى التعامل مع اصحاب الاعذار من افراد الاسرة كنفس الانسان، والله اعلم.

ثم أشار سبحانه الى ما يربط الاسرة من العلاقات الاسرية، فنفى الحرج عن الاكل الذي هو علامة الرضا في البيوتات التالية:

١-(أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ)، ويعتبر بيت الانسان نفسه المركز لسائر البيوتات التي تجمعها الروابط العائلية حسب درجات الارث الشرعي.

٢-(أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ)، مهما علت سلسلة النسب في الجد من طرفي الاب والام.

٣-(أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ)، مهما علت سلسلة النسب من طرفي الاب والام.

٤-(أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ)، من طرفي والاب والام أو أحدهما.

٥-(أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ)، من طرفي الاب والام أو أحدهما.

٦-(أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ)، مهما علت سلسلة النسب في الأعمام من طرفي الاب.

٧-(أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ)، مهما علت سلسلة النسب في العمات من طرف الاب.

٨-(أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ)، مهما علت سلسلة النسب في الاخوال من طرف الام.

٩-(أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ)، مهما علت سلسلة النسب في الخالات من طرف الام.

وهذه الطوائف التسع يجمعها طبقات الارث.

فبيوت الاباء والامهات من الطبقة الاولى.

وبيوت الاخوة والاخوات من الطبقة الثانية.

وبيوت الاعمام والاخوال من الطبقة الثالثة.

ثم عقب سبحانه ما يرتبط بالاسرة من غير البيوتات وقال:

(أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ)، أي البيوت التي ليست للانسان، مما هو مخول في التصرف فيها بالاذن ،كملك المفتاح بالوكالة أو الاجارة وما شابه من أنواع التصرفات المأذون فيها، فهي وان لم يكون بيوتات مملوكة للانسان نفسه، ولكنها تحت تصرفهن فتكون كالمملوكة له.

(أَوْ صَدِيقِكُمْ)، فان الصداقة الصادقة تستلزم الاذن في التصرف المقبول عادة، وحدد ما يستلزم هذه الروابط الاسرة والصداقة بقوله:

أوّلاً:(لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً أو أَشْتَاتاً)، والمراد بالجميع: الاجتماع، والاشتات: التفرق، فانه لا إثم في الاكل المعتاد من هذه البيوت في كل الحالات لاستلزام الرابطة ذلك عادة، الا ان يصدر منع عن ذلك.

ثانيا:(فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ)، بالسلام على الحاضرين الذين هم من نفس الاسرة او الاصدقاء.

(تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً)، فان السلام تحية الاسلام في الدنيا والاخرة، قال سبحانه: (تحيتهم فيها سلام).(يونس:١٠).

(كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيات) في تشريع ما يحكم الروابط العائلية التي بها يكون قوام المجتمع.

(لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) المبادئ والوسائل والاهداف الاسلامية التي لا تكون للامة استقلالها وكرامتها الا بالتمسك بها في جميع مجالات الحياة.

طاعة القيادة:

قال سبحانه: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آَمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ○ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ

يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذاً فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أو يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) .(النور:٦٢-٦٣).

تختلف المواقف عادة في القرارات المصيرية التي تنعكس اثارها على المجتمع، وحيث ان القيادة هي المسؤولة عن هذه القرارات، فتختلف المواقف إزائها من المساندة أو المعارضة أو المحايدة، ولا تنجح أية قيادة اذا لم يساندها الاكثرية الا بالظلم، وطبيعي وجود المعارضة، بل ضروري اذا لم تتحول إلى معارضة مسلحة ضد الرأي العام.

وهذا المقطع يشير إلى الموقف المسؤول من القاعدة بالنسبة إلى القيادة ويتكون من أمرين، قال سبحانه: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آَمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا) من عند القائد:

١-(حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ) أي الرسول القائد ص، فان الذهاب من دون االاستئذان يعد معارضة عملية.

وعن طبيعة الاستئذان قال سبحانه:

(إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ) عند إرادة الذهاب، يعتبر استئذانهم موقفا عمليا بالمساندة.

(أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ)، لان الإستئذان اقرار بشرعية القيادة والاعلان للطاعة للقيادة فيما لو رفض الاذن.

الموقف الاول – طاعة القيادة الشرعية:

قال سبحانه:(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آَمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ)، فان الله سبحانه هو المشرع، والرسول هو القائد المنفذ.

(وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ)، وهو ما يتحقق بالشورى كأصل اسلامي من القاعدة والقيادة في الامور التي تنعكس اثارها على المجتمع كالحرب والسلم. ففي مثل هذه الظروف تختلف المواقف:

أوّلاً:المساندة. وثانيا: المحايدة. وثالثا: المعارضة.

ولم تشر الآيات إلى كل من المساندة والمحايدة، لوضوح حكمهمان واكتفت بالأشارة الى حكم المعارضة بقوله:

(لَمْ يَذْهَبُوا) من دون اتخاذ موقف ظاهر من المساندة أو الحياد أو المعارضة.

(فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ) بعد اعلان المساندة بالطاعة لأمور شخصية استعدادا لهذا الامر الجامع الهام (فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ) ممن لا تكون حاجة إلى حضوره للشورى في تفصيل الامور التي لايتحقق الا بالحضور لأهل الخبرة منهم.

(وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ)، فان الانسان ليس معصوما عن الخطأ والزلل والنسيان.

(إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) لمن يستحق المغفرة والرحمة بالتوبة والإنابة.

الموقف الثاني– الانضباط في خطاب القيادة:

قال سبحانه:(لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً)، والدعاء: الخطاب، فان مسؤولية القيادة خصيصة يستلزم اعتبارها في الخطاب من حيث المادة والاسلوب كما قال سبحانه: (يا ايها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي

ولاتجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون)(الحجرات:٢).

ويستلزم ذلك خطاب بصفته القيادية، كقولك (يارسول الله) بدل الخطاب بالاسم.

وفي هذين الموقفين تتجلى حقيقة الايمان بالمبادئ والوسائل والاهداف الاسلامية، فان الاستئذان يكشف عن الالتزام بالطاعة عمليا، والخطاب بعنوان القيادة يكشف عن الطاعة قولا.

ثم أشار سبحانه إلى دور المعارضة بقوله:

(قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذاً)، والتسلل: الخروج خفية، واللواذ: الاستتار، فان من طبيعة المعارضة العملية الخروج من المسؤولية بالتسلل من مجلس القرار الحاسم، والتستر حتى اعلان المعارضة المسلحة، ان أمكن ذلك، (والله عليم بذات الصدور).(آل عمران:١١٩).

وحذر سبحانه المعارضة بقوله:

(فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ) عمليا بالتسلل من مجلس القرار الحاسم والاستتار بالتخطيط المعتمد بالمعارضة، فان المعارضة التي لاتستند إلى الشرعية القانونية تواجه احد امرين:

الاول:(أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ)، فان المعارضة في نفسها فتنة وامتحان، لايكتب لها النجاح فيها الا بالظلم والحديد والنارن وليس النجاح بالظلم نجاحا، بل تشريعا للظلم.

وانما النجاح والدوام هو بالحكم القائم على اساس العدلن ولايتحقق ذلك الا بالشورى ومساندة الاغلبية.

الثاني:(أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) في الدنيا، فان استخدام الظلم في تسلم الحكم تشريع لاستخدام الظلم ضد الحكم القائم ايضان فتقوم في وجه المعارضة التي تسلمت الحكم بالحديد والنار معارضة اخرى تقضي عليها كذلك بالحديد والنار. والتاريخ ملئ بالحوادث المشابهة, وفي الخلافة الاموية والعباسية مثال واضح، وأما عذاب الاخرة فعند الله سبحانه أشد وأبقى.

ختام السورة:

قال سبحانه:(أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) .(النور: ٦٤).

وقد ختم السورة بالمقطع الاخير مؤكدا على ان مسؤولية الانسان في الحياة هي أداء الدور الفطري الذي فطر الله الناس عليه، لانه سبحانه هو الذي اكرم الانسان بالخلق في الكونن الذي يعتبر الانسان فيه جزءا صغيرا يسير في حياته الى الفناء بالموت، ويحاسب على اعماله في الدنيا خيرا أو شرا.

قال سبحانه: (أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)، لانهما جميعا تنتهي في سلسلة العلل والمعلولات الى الذات الواجب الوجود تعالى.

(قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ) في الدنيا من العمل بالمسؤوليات والمواقف المطلوبة.

(وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ) في يوم القيامة للحساب والجزاء العادل ثوابا أو عقابا.

(فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا) في الدنيا من الاعمال خيرا أو شرا.

(وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) في الحاضر والمستقبل.

سورة الفرقان

(٢٥)

مكية عن مجاهد وقتادة، وقال ابن عباس إلاّ ثلاث آيات، قوله: (والذين لايدعون مع الله) ...الى قوله: (غفورا رحيما). وعددها (٧٧) بلا خلاف.

وردت صفة الفرقان في القرآن الكريم سبع مرات، وسميت السورة بالفرقان لورود الكلمة فيها في أول آية منها، بقوله تعالى:(تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا) (الاية الاولى).

تستفتح السورة بمقدمة في وصف القرآن الكريم بالفرقان، لكونه الفارق بين الحق والباطل في المبادئ والوسائل والاهداف في سبيل تحقيق الحكم الالهي في الارض.

ثم تستعرض شبهات الكفار حول القرآن بالكذب والافتراء ، وحول الرسول القائد بأكل الطعام والمشي في الاسواق والسحر . وتفند هذه الشبهات بما ينبغي الأشارة اليه من الحالات المشتركة بين الرسالة التي تحملها النبي القائد ص وما قام به الانبياء والرسل من قبل، فان الرسالة لم تختلف في مواقفهم الاساسية وان اختلفت في الاساليب بحسب الظروف والاحوال.

ثم أشار إلى سنة الانبياء في ذلك من موسى وهارون ونوح، والرسالات إلى عاد وثمود واصحاب الرس وما بينهما من الملل البائدة، فليست رسالة النبي مُحَمَّد ص باستثناء عما تقدمت من الرسالات والدعوة إلى الايمان، ولا المشركون باستثناء عما تقدم من الامم البائدة في مواقف الكفر.

ثم أشار سبحانه إلى الآيات الكونية التي تدعوا إلى توحيد العبادة ودور الرسول القائد في ذلك.

وختم السورة بوصف كامل لعباد الرحمن في صفاتهم الشخصية والاجتماعية، والجزاء الموعود لهم بسبب مواقف الايمان الصامدة منهم، على النقيض من المشركين.

بركات الله:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراًO أَلَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراًO وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرّاً وَلَا نَفْعاً وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُوراً).(الفرقان: ١-٣).

استفتح السورة بالبركة من الله تعالى في الكون. والبركة : كثرة الخير، وقد أشار إلى أنواع البركة الالهية بالوحي الفارق بين الحق والباطل، والانذار عن الانحراف عن الفطرة الانسانية، ومحتوى الوحي بالتوحيد الخالص والتقدير الالهي في كل المخلوقات في الكون في نظام مقدر حسب ما يفتقر اليه في الوجود في سلسلة من العلل والمعلولات الطبيعية التي تنتهي إلى ارادته سبحانه.

ثم محتوى الانذار من الشرك القائم على عبادة ما لا يضر ولا ينفع في الحياة.

قال سبحانه:

(تَبَارَكَ) والبركة – لغة–:كثرة الخير بالنماء والعطاء، فان الله سبحانه قد شملت بركاته كل الموجودات في الكون، سواء في التكوين أو التشريع. ومن هذه البركات:

أوّلاً: تنزيل القرآن الكريم (الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ)، فان القرآن الكريم باعتبار أن مصدره هو الوحي المنزل، وباعتبار محتواه أنه هو الكتاب الذي يفرق بين الحق والباطل، وباعتبار المنزل عليه وهو الرسول القائد الذي عبد الله حق عبادته.

ثانيا: الانذار (لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً). والانذار: الاعلام بالخطر قبل وقوعه، بالتحذير عما يستوجبه. ولا يكون الانذار الا خيرا محضا، قال سبحانه: (وما ارسلناك الا رحمة للعالمين) (الانبياء:١٠٧)، فان من لا يرحم يعاقب من دون انذار، فلا يكون الانذار الا رحمة وبركة لتعديل المواقف المستوجبة للعذاب.

ثالثا: التوحيد (الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ) فان اتخاذ الولد يستلزم الحاجة، وهي صفة حيوانية ،كما هو الحال في الشركة، ومن له ملك السماوات والارض غني عن كل شيء، بما في ذلك الولد والشريك.

رابعا: تقدير النظام (وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً)، فان النظام الحاكم في الكون قائم على الدقة في التقدير على أسباب وعلل تنتهي في وجودها إلى علة العللن وهي الذات الواجب الوجود المستجمع لجميع صفات الكمال والجلال.

ثم أشار سبحانه إلى صفات المشركين التي استوجبت الانذار بقوله:

(وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً)، فاعتبروها شركاء في صفات الذات المقدسة بتجسيمها حسب تصوراتهم للصفات الالهية نظريا، ولكن الواقع العملي من صفات الالهة ما يأتي:

١-(لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً)، لانها مجسمات فاقدة للشعور والادراك.

٢-(وَهُمْ يُخْلَقُونَ)، فانها مصنوعة من انواع المواد حسب مشتهيات صناعها.

٣-(وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرّاً)، فتتأثر هذه الاصنام بالحوادث الطبيعية.

٤-(وَلَا نَفْعاً)، حيث لا يمكنها ان تكسب ما ينفعها لنفسها بنفسها.

٥-(وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتاً) لأحد، باماتته وهو حي.

٦-(وَلَا حَيَاةً) لأحد بإحيائه بعد ان يصبح ميتا.

٧-(وَلَا نُشُوراً) بعد الموت في مرحلة متأخرة عن الموت.

فاذا كانت الالهة فاقدة لهذه الصفات فلا تستحق صفة الالوهية ولا العبادة، بل تختص بهذه الصفة من تجتمع فيه هذه الصفات بنحو الكمال، وهو الله سبحانه، الخالق الذي لم يخلق، ويملك الضر والنفع والموت والحياة والنشور.

شبهات الكفار:

ان شبهات الكفار خليطة من الدعايات الباطلة بعد وضوح الرؤية وتمامية الحجة ، فلا تستحق التفنيد، لانها تتفنّد بنفسها كما هي طبيعة أية دعاية كاذبة، ومنها شبهات حقيقية تستدعي الجواب عنها.

وقد استعرض هذا المقطع مواقف المشركين ضد القرآن والرسل من الدعايات والشبهات.

حول القرآن:

قال سبحانه:(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آَخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْماً وَزُوراًO وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً Oقُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً).(الفرقان: ٤-٦).

وعن الشبهات حول القرآن الكريم أشار سبحانه إلى امرين:

أوّلاً:(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ)، و(ان) نافية، بدعوى أن كون القرآن الكريم وحيا إلهيّا إفك، وهو الكذب الشديد المفترى، فانه لا أصل لذلك. والضمير يرجع إلى النبي مُحَمَّد (ص) المفهوم من السياق.

(وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آَخَرُونَ)، والسياق يقتضي ان المراد الاعانة في محتوى القرآن، ورويت روايات في تحديد هؤلاء بجماعة من اهل الكتاب الذين اسلموا.

وقد فنَّد سبحانه هذه الدعوى بقوله:(فَقَدْ جَاءُوا ظُلْماً وَزُوراً)، والظلم: الانحراف عن الخط المستقيم، والزور: الكذب. والسبب في ذلك ان التشابه في المحتوى من قصص الانبياء كموسى(ع) لا يدل على اقتباس احدهما من الآخر، فكما ان الوحي نزل على الأوّل كذلك يمكن ان ينزل على الآخر، كما أن الافكار في كل عقل مفكر قد يشابه الآخر، فيعلم كل واحد منهم شيئا خاصا أو يخترع شيئا خاصا مشابها، من

دون ان يكون لاحدهما علم بالآخر، فلا تكون دعوى الاعانة من الآخر سوى دعوى فاقدة للحجة والاثبات، وهو الظلم والزور نفسه.

ثالثا:(وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً)، والاسطورة: الخرافة، والقرآن – بحسب زعمهم – انها هو خرافات قديمة يتلقاها النبيّ بصورة الاملاء من جهة مجهولة.

وان هذه الاملاءات تكون بالاستمرار، وإلى ذلك الأشارة في قوله: (بكرة واصيلا) أي في كل الحالات.

وقد فنَّد سبحانه هذه الدعوى بقوله:

(قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً)، فان الدعوى الثانية للكفار اقرار بأن لهذا القرآن مصدر مجهول عندهم. وان محتوى هذا القرآن يتطابق مع ما تقدم في الأولين من الناس والامم المتقدمة من دون وصف لذلك بالوحي.

واكد هذا التفنيد ان المصدر المجهول عند المشركين هو المصدر المعلوم عند النبي ص ، وان المصدر هو الوحي النازل من الله، الذي من صفاته المقدسة:

أوّلاً: (الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)، فيعلم السر في كل ما خلق من الكون.

ثانيا: (إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً) الغفور لمن يستحق المغفرة بالتوبة.

ثالثا: (رَحِيماً) الرحيم، فقد وسعت رحمته كل شيء.

وهذه الصفات الثلاث تناقض صفة الجهل .

وقد أشار القرآن إلى الآيات الكونية التي تدل على هذه الصفات في هذه السورة وغيرها من السور.

حول شخصية الرسول:

قال سبحانه: (وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً○ أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أو تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلاً مَسْحُوراً).(الفرقان: ٧-٨).

وعن مواقف المشركين في الشبهات حول شخصية الرسول ورسالته قال سبحانه:

أوّلاً:(وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ)، وهذا الاستفهام الانكاري من المشركين انما هو انحراف عن مضمون الرسالة ومحتواها إلى ما كانوا يتصوّرونه منافيا للرسالة من الصفات البشرية كأكل الطعام والمشي في الاسواق والكلام باللغة العربية التي يفهمونها.

وقد فنَّد سبحانه هذه الشبهة نقضا بالآية (٢٠) من هذه السورة بأن الرسالة انما هي بمحتواها وليس بشخصية من يبلغها ، فهل يعقل ان يرسل الرسول بلغة لا يفهمها المرسل اليهم ؟ فاذا لا يمكن القياس في قبول الرسالة أو رفضها بشخصية الرسول الذاتية، بل بمحتوى الرسالة التي يحملها للدراسة والعبرة.

ثانيا:(لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً)، و(لولا) تحضيضية، فان نزول الملك – حسب اعتقادهم – يكون نذيرا حاسما يستوجب الايمان به.

ولم يفند هذه الشبهة هنا لوضوح فسادها، فانهم لا يعرفون الملك. ولو نزل بصورته الحقيقية الروحية فانهم لا يدركونه، لانه من المجردات. ولو ظهر بصورة بشرية لكان الامر على حدّ سواء ،كما قال سبحانه : (قل لو كان في الارض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا) (الاسراء:٩٥)، فانه يلزم ان تكون سنخية بين الرسول والمرسل اليه، في اللغة والجنس حتى تنتقل الرسالة من أحدهما إلى الاخر، وحيث ان المشركين ليسوا من الملائكة، فلا يرسل اليهم الا بشرا مثلهم، فانه لو ارسل اليهم الملائكة لأنكروه، حيث انهم لا يعرفون الملائكة معرفة حسية .

وأشار سبحانه إلى تفنيد هذه الشبهة في الآية (٢٢) من هذه السورة.

ثالثا:(أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أو تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا)، والكنز: المال الكثير المحفوظ لوقت الحاجة، والجنة: الحديقة ذات الاشجار المنتشرة بكثرة.

فان واجدهما يكون غنيا عن الاخرين في معيشته.

ولم يفند هذه الشبهة أيضا، لانها شبهة مادية محضة، ولاتلتقي مع محتوى الرسالة في شئ، فان المقياس في تقييم أية رسالة تقييمها بنفسها، وليس بالامور المادية الخارجة عن محتواها. ودعوة القرآن إلى التوحيد في العقيدة والعدالة في الشريعة رسالة فكرية بعيدة عن المقاييس المادية.

رابعا:(وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلاً مَسْحُوراً)، وتهمة السحر هي الشبهة الاخيرة حول شخصية الرسول، حيث أن كل الشبهات المتقدمة لا تلتئم مع محتوى الرسالة التي يحملها، وحيث ان هذه الشبهة هي أقوى شبهات المشركين وصفهم

بالظالمين، لعلمهم بكذبها من ناحية، وتلاؤم هذه الشبهة مع المقاييس المادية التي يرفضها النبي ، في حين يرضخ لها كل انسان.

فقد أوضحت السيرة النبوية الشريفة أنه ص رفض كل الاغراءات المادية في التنازل عن موقفه الرسالي وقال: (لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي لما تركت هذا الأمر) .(راجع موارد الاعتبار في سيرة النبي المختار).

وقد فنَّد سبحانه هذه الشبهات وبين بطلانها لمن ينظر إلى محتوى الرسالة بتفكير حر من تأثير المادة والماديات والشبهات والدعايات، فقال سبحانه:

(أَنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ)، وهي الاوصاف التي ذكروها كمقاييس لدعاويهم، فان هذه الدعايات والشبهات تكشف عن شخصية المشركين اكثر من أي شيء اخر، وانهم لا يتورعون عن أية وسيلة تستخدم في معارضة الرسالة من وسائل التضليل، وهي:

١-تهمة الافك والافتراء من دون اثبات.

٢-مقايسة محتوى الرسالة بالامور المادية التي لا ترتبط بالمحتوى.

ومنها: أكل الطعام.

ومنها: المشي في الاسواق.

ومنها: فقدان الكنز المادي.

ومنها: فقدان الجنة المادية.

٣-تهمة السحر من دون دليل.

مع ان هذه التهم في نفسها تعارض بعضها الاخر، فان الافك لا يجتمع مع السحر، وكلها تكشف عن عجز المشركين في مقابلة الحجة بالحجة، فيستخدمون الدعايات والاكاذيب.

وقد علق سبحانه على هذا النوع من الاستخدام بقوله:

أوّلاً:(فَضَلُّوا) في طريق المعارضة، لانهم كشفوا عن حقيقة انفسهم اكثر من أي شئ اخر.

ثانيا:(فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً) لمقاومة الحق، لفشل الدعايات الباطلة.

يوم الساعة الموعد الفصل:

قال سبحانه: (أنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً ○تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْراً مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُوراً○ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيراً○ إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً○ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَاناً ضَيِّقاً مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُوراً○ لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُوراً وَاحِداً وَادْعُوا ثُبُوراً كَثِيراً○ قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيراً○ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْداً مَسْئُولاً) .(الفرقان: ٩-١٦).

فاذا كان المشركون لا يكفّون عن معارضة الحق بأية وسيلة ممكنة فلا يكون الفصل الا عند تحقق الحق، وهو الموعد الفاصل الذي يشاهد كل فريق جزاء أعماله خيرا أو شرا.

فقال سبحانه:

(تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْراً مِنْ ذَلِكَ)، أشار إلى الماديات التي جعلها المشركون مقياسا لتقييم الافكار الصالحة، فانه سبحانه جعل المقياس الفكر الحر، وليس الماديات الزائلة، ومنها:

(جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُوراً) في الدنيا مثل القصور المعروفة للملوك، فهل بقي شيء منها إلى الابد؟ وهل خلد فيها الملوك؟ فاذا لا قيمة للماديات التي تزول في تقييم الحقائق الفكرية، بل لابد من تقييم الامور الفكرية بالفكر الحر المجرد عن المادة والماديات .

وعن جزاء المكذبين قال :

(بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ) وهي ساعة يوم القيامة التي فيها الحساب العادل.

(وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيراً)، والسعير: القسم الملتهب من النار، جزاء عادلا لكفرهم عن علم وعمد .

وأشار إلى صفات ثلاث من هذه النار الملتهبة سعيرا:

أوّلاً: من البعد (إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً)، والتغيظ: اظهار الغيظ، وهو شدة الغضب، والزفير: تردد النفس في الصدر من شدة الوقع. وقد استعير ذلك للنار المستعرة بشدة والمترددة كالزفير في حال اللهب المتردد من النار.

ثانيا:من القرب (وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَاناً ضَيِّقاً مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُوراً)، والثبور: الهلاك، فان الهلاك والذل بالاقتران بالاغلال، فانه عند الطرح في النار مباشرة ليس هناك من دعوى سوى طلب الهلاك.

ثالثا: من الاثر (لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُوراً وَاحِداً وَادْعُوا ثُبُوراً كَثِيراً)، لان العذاب ليس عذابا واحدا ، بل خالدا متكررا، وبتكرره يستلزم دعوات متكررة، قال سبحانه : (ان الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارا كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب) (النساء:٥٦).

وعن جزاء المتقين قال:

أوّلاً: (قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ)، فان التكذيب عن علم وعمد للحجة القائمة أوجبت العذاب للكافر، وهو لا يقاس بجزاء المتقين من جنة الخلد.

(كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيراً) باستحقاقهم ذلك لاعمالهم الصالحة للوقاية من النار في الدنيا.

ثانيا:(لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ) من رحمة الله الواسعة في الاخرة (خالدين) لما يلازم الاخرة من الخلود .

(كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْداً مَسْئُولاً) (فان الله لا يخلف الميعاد) (الزمر:٢٠)

في يوم الحشر:

قال سبحانه:(وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ○ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْماً بُوراً○ فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفاً وَلَا نَصْراً وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَاباً كَبِيراً) .(الفرقان: ١٧-١٩).

وأتم الله سبحانه الحجة على المشركين في يوم الحشر الذي يحشر الله فيه الناس اجمعون بما فيهم المشركون وما يعبدون من الالهة والاصنام أو الحكام في محكمة عادلة قبل الجزاء الوفاق.

قال سبحانه:

(وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ)، سواء الاصنام أو الحكام أو الملائكة والانبياء العظام كالسيد المسيح، فان الحشر عام.

ويدور السؤال والجواب بين الله وما يعبدون من دون الله، وذلك اما بلسان الحال الذي يقتضيه الموقف أو بقدرة الله على الانطاق وهو على كل شيء قدير .

اما السؤال فهو:(فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ) لعبادتكم دون الله (أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ) في العبادة بانفسهم وباختيارهم، فان المقام لا يخلو من أحد الامرين.

اما الجواب فهو:(قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ)، فان الولاية بالطاعة لله وحده، والله منزه عن صفة الشركة المستلزمة للعجز والفقر. وقد يفهم من السيد المسيح ذلك في قوله تعالى: (واذ قال الله يا عيسى بن

مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وامي إلهين من دون الله قال سبحانك...) (المائدة:١١٦).

وقوله تعالى:(ثم نقول للملائكة أهولاء اياكم كانوا يعبدون؟ قالوا سبحانك انت ولينا من دونهم) (سبأء:٤٠).

وإلى السبب في الضلالة أشار بقوله:

(وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْماً بُوراً) والبور: الهلاك، فان الضلال هو نسيان ذكر الله. والسبب في ذلك التمتع بالحياة المادية لفترة طويلة، تمتد إلى الاجيال من الآباء، وذلك يستلزم النسيان، وهو عين الضلال. والتاريخ يشهد ان السقوط انما يكون بعد فترة النسيان للمبادئ وترك العمل على صيانتها.

وبعد هذا الجواب وجّه سبحانه الخطاب إلى المشركين بقوله:(فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ) وقولهم هو: (ما نعبدهم الا ليقربونا إلى الله زلفى). (الزمر:٣).

(فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفاً وَلَا نَصْراً) حيث لا يمكن منع العذاب في يوم الجزاء، وانما كان يمكن ذلك يوم العمل في الدنيا ، وقد فات الأوان. كما لا ناصر من العذاب الالهي قط، والسبب في ذلك ما تقدم من الانذار على لسان الانبياء .

(وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَاباً كَبِيراً) وبعد هذا الانذار المتواصل على لسان الانبياء والرسل كانت فترة التعديل للمواقف بالتوبة والانابة، وقد ضيع كل ذلك المشرك على نفسه عن علم وعمد، فاستحق العذاب الكبير.

تفنيد الشبهات:

وقد خص سبحانه تفنيد ثلاث شبهات بالذكر، وربما لوقعها في النفوس الضعيفة، دون الدعايات كتهمة الكذب والسحر وما شابه، مما تكشف عن بطلانها بنفسها.

الشبهة الاولى - في شخصية الرسول:

قال سبحانه:(وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً).(الفرقان: ٢٠).

قال سبحانه: ان شبهة المشركين باستنكار ان يكون الرسول من الله بشرا يأكل الطعام ويمشي في الاسواق، مدحوضة بالسنة الجارية في جميع الانبياء والرسل، فان الرسالة لا يمكن ان تتحصن الا بواسطة مفهومة من الطرفين الرسول والمرسل اليه، فاذا اختلفت السنخيّة بين الطرفين لما كانت الرسالة طبيعية.

قال سبحانه:

(وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ) من الانبياء، ابتداء من آدم إلى عصر النبي مُحَمَّد ص الذين حملوا الرسالة إلى الاقوام المبعوث اليهم (إِلَّا إِنَّهُمْ) يتمتعون بالصفات البشرية والتي منها:

أوّلاً: (لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ) حيث يفتقر الجسم البشري إلى مادة غذائية.

ثانيا:(وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ)، لسد حاجاتهم الشخصية والعامة كما هو الحال في مسألة تبليغ الرسالة.

ثالثا:(وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً)، والفتنة: الامتحان، فان الرسول في مجتمعه امتحان لمن يؤمن بالرسالة ومن يرفضها، والأمة التي لا تمتحن في مواقفها لا يعرف حقيقتها ونقاط الضعف فيها لتصحيحها،كما لا يعرف المرض من دون اختبار وفحص للجسم.

(أَتَصْبِرُونَ)؟ وهذا الاستفهام تقريري، فهل يكون الموقف الصبر عند الامتحان بالاستمرار على الحق أو الفشل.

(وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً) بالمواقف، ولكن الامتحان يسنح للناس الفرصة لتعديل المواقف قبل حلول الاجل.

وهذه الشبهة أوردها المشركون حول شخصية الرسول.

الشبهة الثانية ـ نزول الملائكة:

قال سبحانه: (وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أو نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوّاً كَبِيراً) .(الفرقان: ٢١).

وقد أشار سبحانه في تفنيد هذه الشبهة ان الملائكة باعتبارهم ارواحا مجردة فهي تختلف عن الطبيعة البشرية، فان لهم مسؤولية خاصة في البشرى للمؤمنين والعذاب للكافرين في يوم القيامة، وليس من مسئوولياتها الرسالة، لما تفتقر الرسالة إلى سنخية بين الرسول والمرسل اليه، فلا تكون الرسالة إلى الملائكة الا من الملائكة، كما لا يكون الرسول إلى البشر الا بشرا مثلهم. (راجع سورة الاسراء:٩٥).

ومن ينكر هذه الحقيقة ليس له سوى مشاهدة الملائكة الموكلين بمسؤولياتهم في يوم القيامة.

قال سبحانه:

(وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا) وهم المشركون المنكرون ليوم المعاد.

أوّلاً:(لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ)، و (لولا) تحضيضية، أي هلّا كان الرسول من الملائكة.

ثانيا:(أَوْ نَرَى رَبَّنَا) رؤية حسية، حيث لا يؤمنون الا بالمادة والماديات.

وقد فنَّد سبحانه هذه الشبهة بقوله:

(لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوّاً كَبِيراً)، والاستكبار: الطغيان. والعتو : العدوان، لان ذلك قياس لامر غير مادي بالماديات، وهذا مما لا يمكن حيث أنه طلب للمحال. ونزول الملائكة طلب لتحمل الملائكة مسؤولية الرسالة، وذلك ليس من شأنها. ورؤية الرب بالعين المجردة عدوان على الحق ، فانه قياس ما ليس بمادة بالمقاييس المادية، وهو عدوان كبير على حكم العقل. والسب في ذلك هو الاستكبار والغرور عن الرضوخ للحق بعد وضوحه بالحجة.

يوم رؤية الملائكة:

قال سبحانه: (يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْراً مَحْجُوراً○ وَقَدِمْنَا إِلى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً○ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرّاً وَأَحْسَنُ مَقِيلاً○ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلاً) (الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْماً عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيراً○ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً○ يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَاناً خَلِيلاً○ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولاً

○وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً○ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِياً وَنَصِيراً) .(الفرقان: ٢٢- ٣١).

عقب سبحانه الشبهة الثالثة بحقائق ترتبط برؤية الملائكة القائمين بمسئووليلياتهم، حيث تراهم الارواح الاخروية في يوم الحساب.

أوّلاً: قال سبحانه:

(يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ)، لان الملائكة الموكلين بالمجرمين لهم مسؤولية العذاب، وان هؤلاء الملائكة:

(وَيَقُولُونَ حِجْراً مَحْجُوراً) للمؤمنين، والحجر: المنع، والمحجور: الممنوع، وهي كلمة تقال في التأكيد على المنع من أية بشارة.

ثم قال سبحانه:(وَقَدِمْنَا إِلى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً)، والهباء: الغبار، فان العمل الذي لا يقترن بالايمان يكون باطلا كالغبار المتفرّق في الهواء.

وعلى النقيض في ذلك حال المؤمنين، حيث قال سبحانه:

(أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرّاً وَأَحْسَنُ مَقِيلاً)، والمستقر: المكان الثابت للاستقرار الدائم. والمقيل: مكان القيلولة، وهي فترة الاستراحة المؤقتة عند الظهيرة. لتوقيهم من عذاب الآخرة حينما كانوا في الدنيا، بالعمل الصالح لاستحقاق الجنة ونعيمها.

ثانيا:(وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلاً)، والشق: الفتح، والغمام: السحاب، والباء للملابسة، والسياق يقتضي ان السماء ستنفتح مصحوبة

بالغمام العام في الكون في يوم القيامة، على اثر انعدام النظام في المجموعة الشمسية كما قال سبحانه: (اذا السماء انشقّت واذنت لربها وحقّت واذا الارض مدّت وألقت ما فيها وتخلّت). (الانشقاق:٤).

وفي ذلك اليوم تتنزل الملائكة تنزيلا لأداء مسؤولياتها في يوم الحساب.

ثالثا:(الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ)، فهو يوم حق، أي ثابت. والملك الحقيق بالرحمن ، فانه (مالك يوم الدين). (الفاتحة:٤).

(وَكَانَ يَوْماً عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيراً)، لاستحقاقهم فيه العقاب العادل.

رابعا: (وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ)، ندما على ما فرط في الحياة الدنيا.

(يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً) يقي من عذاب يوم الحساب.

(يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَاناً خَلِيلاً)، و(فلان) يكنى به عن شخص غير مسمى، والخليل:الصديق، وهذا التمني لا أثر له في يوم الحساب.

والى السبب في هذا التمني أشار إلى امرين:

١-(لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي) بواسطة الرسول بالانذار من عذاب هذا اليوم.

٢-(وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولاً) بالاغراء بالوعود الكاذبة والأماني الفارغة.

خامسا:(وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً)، وهذه شهادة على القوم بإهمال القرآن في الحياة.

وختم هذه الحقائق الخمس ليوم نزول الملائكة في يوم القيامة بقوله:(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِياً وَنَصِيراً)، حيث ارسل الرسل والكتب لهداية البشر، ونصر من يعمل بها في الآخرة ، وهو نعم المولى ونعم النصير.

الشبهة الثالثة - في نزول القرآن:

قال سبحانه:(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً) .(الفرقان: ٣٢).

والشبهة الثالثة التي بينها المشركون: هي عن كيفية نزول القرآن ، فقد نزل الوحي المبين على سيد المرسلين منذ البعثة النبوية حتى وفاته، وفي أماكن مختلفة في مكة والمدينة، وحسب ظروف واحوال مختلفة من السلم والحرب. على ما هو مشروح في كتب علوم القرآن. (وراجع دراسة حول القرآن الكريم للفقير، لعله يجدي نفعا في بيان ذلك كله).

فانتقد المشركون كيفية نزول القرآن، فأرادوه كتابا كاملا كما هو الحال في الكتب السماوية الاخرى أو المؤلفات من الاداب العالمية.

وهذا جهل بحقيقة الوحي الالهي.

أوّلاً: ان الكتب السماوية الاخرى انما اصبحت كاملة بين الدفتين بعد وفاة اصحابها، والظاهر انها لم تكن التوراة كتابا كاملا في عصر النبي موسى ، ولا الانجيل كتابا كاملا في عصر النبي عيسى، بل كان الوحي فيهما حسب الظروف والاحوال الطارئة في عصر كل رسالة. والاناجيل الموجودة في عصرنا شاهدة على ذلك.

ثانيا: ان الفارق الاساسي بين كتب الوحي وكتب التأليف والتصنيف هو ان المؤلف يخطط لترتيب افكاره على الورق كما يمليه فكره، وكتب الوحي ليست من افكار الانبياء، بل الانبياء هم وسائط لنقل ما يوحي الله اليهم، ولذلك نجد في القرآن الكريم كلمة (قل) خطابا للرسول، وهي كلمة وحي ليس للرسول فيه أثر سوى النطق بها، لانها كلام الله، وليست من كلام الرسول نفسه.

وثالثا: ما أشار اليه تعالى بقوله:

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً)، و(لولا) تحضيضية. فانهم اعتبروا نزول القرآن بالوحي حسب الظروف والاحوال مؤاخذة، في حين أن نزوله جملة واحدة موجب للمؤاخذة والشبهة.

وقد فنَّد سبحانه هذه الشبهة بقوله:

(كَذَلِكَ) أي انزلناه كما هو حسب الظروف والاحوال في ثلاث وعشرين عاما (لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ) والفؤاد: القلب، فيكون القرآن ثابتا محفوظا، فان الحفظ أمر تدريجي، ولا يمكن حفظ القرآن جمعيه مرة واحدة، بل بالتدريج بحكم الطبيعة البشرية.

(وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً)، والترتيل: المبالغة في اظهار المعنى ترتيلا يناسب حفظه بالتدريج حتى يستقر في الفؤاد، وسبحان الله ليس في الكتب السماوية اليوم كتاب مستقر في القلوب لفظا ومعنى مثل القرآن الكريم. وقد استمر على ذلك المسلمون أسوة بالنبي العظيم عليه وعلى آله واصحابه أفضل الصلاة والسلام.

دحض الشبهات:

قال سبحانه:(وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً○ الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلى جَهَنَّمَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَاناً وَأَضَلُّ سَبِيلاً) .(الفرقان: ٣٣-٣٤).

وختم المقطع بدحض الشبهات الثلاث المتقدمة في الآيات (٤-٨) بأنها مدحوضة في نفسها لمن يتأملها بروح موضوعية ، لانها اما اتهامات باطلة من دون دليل، أو ناتجة من سوء فهم لطبيعة الرسالة والرسول.

قال سبحانه:

(وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ) من الشبهات والدعايات (إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ) بدحض تلك الشبهات (وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً) والتفسير – لغة –: اظهار المعنى المنقول. وأصبحت كلمة التفسير مصطلحا لتوضيح النص القرآني كل من وجهة نظره، وقد حدثني من عمل جردا للدراسات القرآنية انها بلغت المليون بطاقة، واغلبها تفاسير مختلفة من المؤمنين برسالة القرآن. وقد قام الفقير بهذا التفسير ظنا مني بأنه خطوة قصيرة في التيسير لتوضيح فهم كلام العلي القدير. جعله الله في صحيفة الاعمال.

والى نتيجة شبهات المشركين أشار بقوله:

(الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلى جَهَنَّمَ) بسبب انكارهم حقائق الاسلام عن علم وعمد بعد اتمام الحجة.

(أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَاناً) في الآخرة لاستحقاقهم ذلك.

(وَأَضَلُّ سَبِيلاً) في الدنيا، لسلوكهم السبيل المؤدي في الآخرة إلى شر مكان. عصم الله كل انسان من ذلك الهوان.

دور الانبياء:

قال سبحانه:(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيراً○ فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيراً○ وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَاباً أَلِيماً○ وَعَاداً وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُوناً بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيراً○ وَكُلّاً ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلّاً تَبَّرْنَا تَتْبِيراً○ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُوراً) .(الفرقان: ٣٥-٤٠).

تتابعت رسالات الانبياء على طول التاريخ للدعوة إلى التوحيد وتطبيق العدل الالهي في المجتمع. وقد أشار سبحانه إلى دور كل منهم في اداء الرسالة وما يترتب على نكرانها من العذاب، فقال سبحانه مبتدءأ بأقرب العبر تاريخيا بقوله:

١-(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ) وهو الفريضة بالقيام بدور الرسالة في وجه طغيان فرعون وانقاذ بني اسرائيل من الظلم الحاصل لهم.

(وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيراً)، والوزير - لغة -: المعاون، فان المواجهة تفتقر إلى عون ووزير يسهلان النصر على الظالم.

(فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا)، لرفضهم الرسالة الالهية بعد وعيها وعيا كاملا.

وعن نتيجة التكذيب قال:

(فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيراً)، والتدمير: الهلاك بسبب الظلم الذي استخدموه كسياسة رسمية بالنسبة إلى المستضعفين في عصرهم. وراجع (الاعراف:١٤٥) وغيرها.

٢-قوم نوح: (وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ)، والجمع باعتبار الرسول نوح ومن قبله من الرسل، و(قوم) مفعول لفعل مفهوم من السياق، أي (اذكر قوم نوح)، وكذا ما بعده. وعن نتيجة تكذيبهم لنوح قال:

(أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً) يعتبر بها في الدنيا كنتيجة للتكذيب لمن يدرس التاريخ .

(وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَاباً أَلِيماً) في الآخرة، كما اوعد الله على ذلك وراجع سورة (هود:٤٩).

٣-(وَعَاداً) وهم قوم النبي صالح، وقد ذكر سبحانه دوره في سورة هود رقم ١١، الآية ٥٠ وما بعدها.

٤-(وَثَمُودَ) وهم قوم النبي هود، وقد ذكر سبحانه دوره في سورة هود رقم١١، وراجع خاصة الآيات (٦١-٦٨) منها.

٥-(وَأَصْحَابَ الرَّسِّ)، والرس: البئر، وهم قوم خلفوا قوم ثمود تاريخيا واعتدوا على نبيهم بالقائه في البئر حتى مات فيها.

وهذه الاقوام الخمسة ليست منحصرة، بل هم نماذج لمن ذاق نتيجة الظلم في التاريخ.

(وَقُرُوناً بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيراً)، والقرن: الفترة الزمنية الطويلة، فان بين هذه الرسالات فترات ارسل الله فيها الانبياء والرسل بلغة الاقوام المرسول اليهم. قال سبحانه: (وما ارسلنا من رسول الا بلسان قومه). (ابراهيم:٤).

فان دور الانبياء فيها كان واحدا، كما ان دور المكذبين في عصرهم كان موحدا كذلك.

قال سبحانه:

(وَكُلّاً ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ) التي فيها العبر والحجج التي تدعوا إلى الالتزام بالحق والعدل، ولكن مواقف الكفر كانت واحدة في رفض ذلك الا بما يخدم شهواتهم الشخصية.

(وَكُلّاً تَبَّرْنَا تَتْبِيراً)، والتتبير: الاهلاك، نتيجة لرفضهم العدل عن علم وعمد، حال كونهم معرضين عن الانذار ومستمرين على الطغيان والظلم باصرار.

وختم المقطع بآثار العذاب المحسوسة للمشركين العرب بقوله سبحانه: (وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ)، والقرية: المجمّع الانساني الذي يبنى على الماء، وذكر المفسرون ان هذه القرية هي "سدوم" من أرض قوم لوط، حيث كانت على مسير المشركين في التجارة بين الشام والحجاز ، وتقع اليوم في الاردن، بين البحر الابيض والعقبة.وهذا هو الظاهر، فقد وصف سبحانه العذاب فيها بقوله:

(فلما جاء امرنا جعلنا عاليها سافلها وامطرنا عليها حجارة من سجيل منضود). (هود:٨٢).

فانه لم يسبق العذاب بإمطار بالحجارة سوى لأولئك القوم, والله العالم.

وعقب ذلك بالاستفهام الانكاري بقوله:

(أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا) في رحلاتهم التجارية بين الشام والحجاز ذهابا وايابا، حيث تقع "سدوم" في طريق المارة، ومن عادة الرحالة التوقف في المدن في السفرات الطويلة للاستراحة أو التجارة أو غيرهما.

ثم اكد على ان موقف الكفر هو السبب في الرفض ،ككل موارد الاعتبار بالانحراف، بقوله:

(بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُوراً)، فان رفضهم لعقيدة البعث والنشر هو الذي دعاهم إلى عدم الاعتبار بالآثار المحسوسة والاتعاظ بنتيجة تكذيب دور الانبياء والرسل.

دور الرسول:

قال سبحانه:(وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُواً أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً○ إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً○ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً○ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أو يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً) .(الفرقان: ٤١-٤٤).

ان دور الرسل ودور المكذبين دوران متعارضان ومتوازيان لا يلتقيان أبدا. فان هدف الرسول هو إيصال الرسالة بالابلاغ مبشرا ونذيرا، وليست له مسؤولية التنفيذ لمحتوى الرسالة. وهدف المكذبين افشال هذه المهمة الرسالية بأية طريقة ووسيلة ممكنة لهم، ومنها: الاستهزاء بالرسول في شخصيته أو الرسالة في محتواها.

قال سبحانه:

(وَإِذَا رَأَوْكَ) حيث استخدم المشركون الاستهزاء بشخصية الرسول ليزعزعوا ثقته بنفسه فيتخلى عن مهمة ايصال الرسالة خشية من الاستهزاء، كما هو طبيعة الانسان المادي. وطبيعي ان ذلك لن يؤثر في صاحب الرؤية الواضحة للرسالة مهما كانت الظغوط النفسية.

والى اسلوب الاستهزاء في شخصية الرسول أشار بقوله:

(إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُواً)، و(ان) نافية، والهزء: الاستهزاء، لعدم إيمانهم بالرسالة التي تتعارض مع مصالحهم، فيعلنون عن مواقفهم بالاستفهام الانكاري قائلين:

(أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً)، فان المقياس في الرسالة — عند المشركين – ليس التقييم على اساس فكري، بل بالمقاييس المادية. وطبيعي ان الرسالة المحمدية تختلف من وجهة نظرهم المادية.

(إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا)، و(ان) هنا مخففة من المثقلة، للتأكيد على ان الرسالة كادت ان تؤثر في العقول الحرة، لانها تدعوا إلى التفكير الحر، بدلا عن التقليد الأعمى، وأن الذي منع من قبول الرسالة هو الصبر على الالهة تقليدا أعمى من دون دليل موجّه فكريا أو حجة قاطعة.

وقد فنَّد سبحانه هذا التقليد الأعمى بقوله:

(وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً)، فهل الضلال في التقليد الاعمي أو في استخدم الفكر الحر، فانه عند ظهور الحقائق تظهر حقيقة المواقف المستوجبة للعذاب.

وأشار إلى ان دور الرسالة ليس سوى ابلاغها بالاستفهام التقريري بقوله: (أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ)، لرغبته في التقليد الاعمي ولو كان واضح البطلان.

(أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً)، والوكيل: الحافظ، وهذا استفهام انكاري، فان من يتخذ الهوى الها يرفض ان يكون له نبي حافظ يمنعه عن هواه.

(أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أو يَعْقِلُونَ) المبادئ والوسائل والاهداف الاسلامية؟!! (إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ) في اتخاذ الهوى هدفا في الحياة، وان لا همّ لهم سوى تأمين الرغبات الجسمية كالحيوانات التي همها علفها.

(بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً)، لان الحيوانات انما تتصرف حسب خصائصها النفسية والجسمية والفطرية. والانسان يشترك معها في تلك الخصائص بزيادة الفكر والعقل، فاذا أهمل الانسان ما يستلزمه الفكر الحر فكان أضل في طريق حياته من الحيوانات، لانها لا تهمل خصائصها مهما كانت الظروف والاحوال، فكان على الانسان ان لا يهمل خصائصة الذاتية التي منها التفكر والتعقل في دلالة الآيات الله في الكون.

آيات الله:

قال سبحانه:(أَلَمْ تَرَ إِلى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِناً ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاًO ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضاً يَسِيراًO وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاساً وَالنَّوْمَ سُبَاتاً وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُوراًO وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُوراًO لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَاماً وَأَنَاسِيَّ كَثِيراًO وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراًO وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيراًO فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيراًO وَهُوَ

الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً وَحِجْراً مَحْجُوراً○ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَراً فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهْراً وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيراً ○وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيراً) .(الفرقان: ٤٥-٥٥).

سرد سبحانه في هذا المقطع آيات الله التي تستوجب التعقل في دلالتها على أسباب وعلل وجودها التي تنتهي في سلسلة العلل والمعلولات إلى الذات الواجب الوجود تعالى بصفاته الجلالية والجمالية التي تنفي الشرك بكل مظاهره. فقال سبحانه:

أوّلاً: بالاستفهام التقريري:(أَلَمْ تَرَ إِلى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ)، فان الظل الحادث في كل يوم أمر محسوس، وهو في امتداد حسب الدرجات والثواني حتى يستولي على الضياء بشكل كامل، ويبتدئ الليل. وهذا يستند إلى أسباب وعلل طبيعية من دوران الارض وانعكاس نور الشمس بتقدير العزيز الحكيم.

(وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِناً) بانعدام وجود السبب في حدوث الظل، وهو الشمس.

(ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً)، فان وجود الشمس سبب ودليل على وجود الظل، ولولا الشمس لما كان هناك وجود للظل.

(ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضاً يَسِيراً)، والقبض والبسط ضدان لا يجتمعان، فكما ان بسط الظل يكون بسبب انعكاس نور الشمس، فكذلك تقلصه بقبضه في درجات متقارنة مع درجات حركة الارض، على ما هو مشروح في علم الجغرافيا الطبيعية (علم الفلك). ويتوقف عليها النظام الدقيق في التقاويم الفلكية.

ثانيا:(وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاساً)، حيث يستر الليل الكون كما يستر اللباس الجسم.

(وَالنَّوْمَ سُبَاتاً)، والسبت – لغة –: الاستراحة، فان النوم يريح الجسم من العناء ويولد النشاط للعمل.

(وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُوراً)، حيث ينتشر فيه الناس لاعمالهم اليومية من الصباح إلى المساء.

وهذه الحالات الطبيعية المحسوسة لم تكن لتحصل من غير تدبير دقيق حاكم على الكون، ينتهي في سلسلة العلل والمعلولات إلى ذات الواجب الوجود تعالى وارادته العليا.

ثالثا:(وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ)، فان رحمة الله الواسعة تعم الكون، مستندة إلى علل واسباب طبيعية، ومنها بالنسبة إلى الثروة النباتية: الرياح، التي تحمل الحبوب من منطقة لاخرى للتنمية الزراعية.

(وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُوراً)، لتنمية هذه الحبوب في الزرع.

(لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً)، لكونها ارضا جرداء من الزرع، ومن أهم اسباب الزرع الحبوب والمياه.

(وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا)، فكما ان الماء مادة الحياة في الزرع، فكذلك هو مادة الحياة للبشر، قال تعالى: (وجعلنا من الماء كل شيء حي). (الانبياء:٣).

(أَنْعَاماً وَأَنَاسِيَّ كَثِيراً)، فان الحياة لكل حيوان يتوقف على الماء، سواء الانسان الذي يتكون سبعين إلى ثمانين بالماءة من جسمة من الماء، أو الحيوانات كالانعام الثلاثة من الابل والبقر والغنم كمثال لسائر أنواع الحيوانات.

فان هذه الآيات المحسوسة للانسان في نفسه وفي الثروة الحيوانية والزراعية موارد للاعتبار على قدرة الصانع المختار.

(وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ)، والصرف: القلب بكثرة التصرف في هذه الآيات المحسوسة بين الناس (لِيَذَّكَّرُوا) بأنها لا توجد الا استنادا إلى علل طبيعية تنتهي في سلسلة العلل والمعلولات إلى علة العلل تعالى.

(فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً)، والكفر: الغطاء، وذلك بتغطية عقولهم عن التفكير في دلالة هذه الآيات.

(وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيراً)، وربما لعدم الحاجة الى ذلك بسبب سلوكها الفطري. والانذار يفتقر اليه المنحرف عن الفطرة، كما هو حال المشركين في الحضارات المادية.

(فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ) للمبادئ والوسائل والاهداف الاسلامية.

(وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيراً). ومرجع الضمير القرآن الكريم، المفهوم من السياق، فان القرآن الكريم القانون الاسلامي الالهي الذي يحتوي على كل ما يفتقر اليه الانسان في الحياة الشخصية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية، فيكون سدا منيعا ضد الكفر والشرك.

رابعا: (وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ)، والبحر: الماء الكثير. والمرج: الخلط، فان المياة تختلف في اوصافها وطبائعها من حيث العذوبة والملوحة وغيرهما، وهذه الاختلافات تستند إلى علل طبيعية تنتهي في وجودها إلى علة العلل تعالى.

١- الفرات، (هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ)، والعذب: ما يستساغ شربه، والفرات : شدة العذوبة، وهو الماء الصالح للزراعة كمياه الانهار الكبرى.

٢- الأجاج، (وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ)، والملح: المالح من المياه التي لايستساغ شربها. والاجاج: شدة الملوحة، وهو غير الصالح للزراعة كمياه البحار العظمى.

٣- الخليط:(وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً)، والبرزخ: الحالة المتوسطة بين العذب والاجاج، وفي المقام: الماء الذي ليس اجاجا ولا فراتا، بل في حالة متوسطة بينهما.

٥- الممنوع شربه:(وَحِجْراً مَحْجُوراً)، والحجر : المنع، فان من المياه ما هو ممتنع الشرب أكيدا، كمياه المعادن على اختلاف انواعها الطبيعية، من الغاز والنفط وما شابه مما تلحق بالمياه لسيلانها.

فان وجود هذه المادة السائلة تستند في وجودها إلى علل طبيعية تنتهي في سلسلة العلل والمعلولات إلى وجوده تعالى.

خامسا:(وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَراً)، فان وجود الانسان انما يستند إلى المادة المنوية في الرجل الذي بلقاحه بويضة المرأة يتكون الانسان في مراحله الطبيعية حتى الولادة، فان وجود هذه المادة المنوية السائلة تستند إلى علل تنتهي إلى الله تعالى الذي خلق البشر في أحسن تقويم.

(فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهْراً)، والنسب: الملتقي في احد العمودين من الاب أو الام، والصهر: القرابة بالمصاهرة، فان هذه العلاقات في النسب تتكون بسبب هذه النطفة الانسانية، ولولاها لما تحققت قرابة بين بني الانسان قط.

وختم المقطع بالإشارة إلى قدرة الله تعالى في خلق هذه الآيات الكونية الخمسة كنماذج للقدرة الالهية الحاكمة في الكون من حيث النظام في المجموعة الشمسية.

واختلاف الليل والنهار والثروة النباتية وانواع المياه الصالحة للشرب والصالحة للزراعة والمزيجة والممنوعة لاستخدامها في ذلك بحكم الطبيعة التي اودعها الله فيها، فانها جميعا تستند في وجودها إلى علل طبيعية تنتهي في سلسلة العلل والمعلولات إلى الواجب الوجود تعالى وقدرته المطلقة الحاكمة في الكون.

وعن موقف المشركين أشار إلى أنهم قد اعرضوا عن هذه المظاهر المحسوسة ذات الدلالة الواضحة، فقال:

(وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ) من الاصنام الفاقدة للشعور.

(وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيراً)، وهو المعارض بلا إعانة عليه، بدلا عن المساندة له، وبهذا الموقف الواضح في المعارضة ضد الحق عن علم وعمد استحق المشركون العذاب في الدنيا والآخرة.

مسؤولية الرسول:

قال سبحانه:(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّراً وَنَذِيراً۝ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلى رَبِّهِ سَبِيلاً۝ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً۝ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ

أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً○ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُوراً○ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجاً وَقَمَراً مُنِيراً○ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أو أَرَادَ شُكُوراً) .(الفرقان: ٥٦-٦٢).

يتضمن المقطع مسؤوليات الرسول في نقاط أربع، وهي:

أوّلاً: التبشير:(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّراً)، لما للايمان من الثأثير الروحي في الانسان، حتى يسير في حياته برؤية واضحة للاعمال ونتائجها في الدنيا والآخرة.

ثانيا: الانذار (وَنَذِيراً) عن المخالفة، لما يترتب على المخالفة من العقاب كما اوعد الله على ذلك (والله لا يخلف الميعاد). (الزمر:٢٠).

ثم أشار إلى ان الرسالة ليست مصلحة تجارية ينتفع منها الرسول بقوله:

(قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ) مادي، كما هو الحالة السائدة في ادعياء الاديان، وقل ان تجد من لا يعيش عليها في تأمين الحياة المادية.

(إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلى رَبِّهِ سَبِيلاً)، فيكون أجر الرسالة هو هداية الآخرين إلى ما فيه صلاح دينهم ودنياهم، وهذا هو الفارق الاساسي بين الدين والتمدين.

ثالثا: التوكل: (وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ)، والوكيل: من ينوب عن الغير في حال غياب الاخر، وطبيعي ان الحاجة إلى الوكيل لا يكون في حال حياة الموكل، والله سبحانه الحي الذي لا يموت، فهو الجدير بالتوكل عليه عند فقدان الامل من أي سبب عادي في الحياة.

رابعا: التسبيح (وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ)، فانه لا يستحق التنزيه عن كل ما لا يليق سوى الذات المقدسة.

وبعد أداء الرسول مسؤولياته المشار اليها، ليس عليه اكثر من ذلك من مسؤولية.

(وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً)، فيجازي العاصي ويثيب المطيع، كلا على ما يستحق جزاءا عادلا.

ثم أشار إلى الادلة الكونية على هذه الخبرة بقوله:

١-في الخلق: (الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا)، فان الخلق بهذا النظام الدقيق الحاكم في الكون دليل واضح على الخبرة فيما يفتقر اليه النظام من الاستحكام.

٢- في الوسائل:(فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ)، فان هذا الظرف الزماني المجهول في الفكر المادي انما هو وسيلة في تحقق الخلق، وان امكن الخلق بدونها.

٣- القدرة: (ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ)، والاستواء: الاستيلاء، وهي كناية عن القدرة. والعرش: المكان العلوي الذي هو مظهر القدرة المطلقة، فان الخلق الذي كان بارادته يكون تحت قدرته وجودا واستمرارا وحركة ومصيرا.

(فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً) للنصر، لاستجماع صفات الكمال والجلال في الذات المقدسة، وهو الحقيق بالسؤال في طلب الحاجات، دون غيره مما اعتاد عليه المشركون في الدعاء والسؤال.

ثم أشار إلى رد الفعل في مواقف المشركين بقوله:

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ)، باعتبار أن هذه اللفظة من الاسماء الحسنى وتعني الرحمة في الدنيا لجميع المخلوقات بما فيها الانسان على اختلاف أنواعها، فان الجميع يستمتعون برحمة الله، واقلها القدرة على التنفس في الهواء الطلق شهيقا وزفيرا، ولو كان الهواء في الجو مملوكا للناس لمات الفقراء الذين لا يمكنهم الحصول على المال لتحصيله.

والى رد الفعل أشار بقوله:

أوّلاً:(قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ)؟!! على سبيل الاستفهام الانكاري، متجاهلين صفات الذات المقدسة التي أكد عليها الرسول.

ثانيا:(أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا)؟ باعتبارهم الأمر رغبة شخصية للرسول، وان الامر صدر بارادته. وفي ذلك دلالة على تجاهلهم لاصل الرسالة.

ثالثا:(وَزَادَهُمْ نُفُوراً)، فان اتمام الحجة بالرسالة تجعلهم في مواجهة حقيقية مع الواقع، فاذا كانوا في نفرة من الواقع لمصادمته التقليد الاعمى الجاهلي الذي اعتادوه، فتكون المواجهة زيادة في النفرة، لكشف هذا الموقف الاعمى منهم عن الجهالة التي يؤمنون بها وتأخذهم العزة عليها بالاثم.

وختم المقطع بمظاهر الرحمة الالهية الواسعة في الكون، والتي بها كانت صفة (الرحمن)، وهي المظاهر المحسوسة لكل انسان بقوله:

أوّلا-(تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً)، وهي المنازل الاثني عشر للكواكب السيارة، وقد حددها علماء الفلك في: ١-الحمل ٢- الثور ٣- والجوزاء ٤-

والسرطان ٥- والاسد ٦- والسنبلة ٧- والميزان ٨- والعقرب ٩- والقوس ١٠- والجدي ١١- والدلو ١٢- والحوت.

ثانيا-(وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجاً) وهو الشمس، وقد وصفها بقوله: (وجعلنا سراجا وهاجا). (الانبياء:١٣)، حيث ان نور الشمس ينبع من نفسه كما السراج.

ثالثا-(وَقَمَراً مُنِيراً) حيث ان نور القمر ليس نابعا من ذاته، بل انعكاس ضياء الشمس على جسمه الصيقلى، فهو منير بغيره.

رابعا-(وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً) والخلفة: ما يخلف شيئا آخر،

فان كلا من الليل والنهار يخلف أحدهما الآخر بانتظام من دون انقطاع.

وفي هذه الآيات الكونية من الرحمة الواسعة للناس اجمعين، لانها موجودة بخلق الرحمن للانسان المؤمن والكافر على حد سواء.

فبالنسبة إلى الكافر (لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ) بهذه الآيات الكونية للعبرة.

وبالنسبة إلى المؤمن: (أَوْ أَرَادَ شُكُوراً) من المؤمنين الذين تكون هذه الآيات الكونية سببا لان يشكروا الله سبحانه على رحمته الواسعة في الكون والشاملة لجميع افراد الانسان والحيوان والجماد والنبات، والتي تستلزم توحيد العبادة له وحده.

عباد الرحمن:

قال سبحانه:(وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَاماً○ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَاماً○ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً○ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً

○وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً○ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً○ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً○ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً○ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَاباً○ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً○ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمّاً وَعُمْيَاناً ○وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً ○أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَاماً○ خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً) .(الفرقان: ٦٣-٧٦).

يسرد هذا المقطع اثنى عشر صفة من صفات عباد الرحمن، بها يمتاز المجتمع الايماني عن غيره، فان المشركين بعد تفنيد الشبهات لا يبقى لهم سوى احدى خيارين:

إما الايمان والتحلي بهذه الصفات الرحمانية، أو الاعراض والبقاء على حالة التقليد الاعمى الشيطانية.

قال سبحانه:

أوّلاً:(وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً)، والهون: الرفق ، بالتذلل من دون استكبار ، ولحالة المشي دلالات على نفسية الماشي، فكما ان السرعة في المشي تدل على العجلة، فان المشي من دون استكبار تدل على التزام نفسي للماشي. فالتذل لله سبحانه بالالتزام بآداب المشي من دون استكبار.

الثاني:(وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَاماً) في جواب الخطاب، والسياق يقتضي ان الخطاب انما هو خطاب عنصر عدائي مقترن بالتوهين والتحقير، فان المعاملة بالمثل تستلزم نكران آداب الخطاب الاسلامي، وهو الترفع من النزول إلى مستوى الجهل مهما كان السبب.

الثالث: (وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَاماً)، والبيتوتة : السكون ليلا لقضاء فترة الليل حتى الصباح، فان هذه الفترة هي فترة محاسبة الانسان نفسه، بالصلة المباشرة بربه، بالسجود له تعالى والقيام بالطاعات المسنونة، فلا يدع هذه الفترة للضياع.

الرابع:(وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ)، فان لعباد الرحمن رؤية واضحة لنتائج الاعمال التي تستحق التعوّذ منها خشية وسوسة الشيطان الموجبة لتزلزل الاقدام. وهذه الرؤية الواضحة تؤكد على امرين:

١- (إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً)، والغرام: الملازم، لان عذاب جهنم خالد لا يزول .

٢- (إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً)، وليس أسوأ منها للاستقرار والاقامة.

الخامس: (وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً)، الانفاق: البذل. والاسراف: تجاوز الحد، والقتر: التقليل في البذل. والقوام: العدل، فان لكل شيء في الحياة ميزان عادل يكون التجاوز عنه بالزيادة اسرافا وبالنقيصة تقتيرا.

السادس: (وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ) بالشرك، سواء بالاصنام التي لا تعقل أو الحكام الظلام ذوي الجاه والمقام، فان ما عدى الله فقير في وجوده إلى الله، فلا يستحق الدعاء حقيقة سوى الله ، كما أن الرياء شرك خفي.

السابع:(وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ)، فان الله سبحانه هو واهب الحياة، وله وحده اخذها . وليس ذلك لغيره الا بالعقوبات الاسلامية التي شرعها الله بشروطها التي تجعل القتل حينئذ حقا، كما هو مشروح في فقة العقوبات الاسلامية.

الثامن:(وَلَا يَزْنُونَ)، لان الزنا جريمة اخلاقية يتعدى اثارها من الفرد إلى الاسرة فالمجتمع، ولعظم الأثر لهذه الجريمة في المجتمع أشار سبحانه الى بعض آثارها وطرق التوبة منها بقوله:

أوّلاً:(وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً)، والاثام: العقاب الاسلامي بالحد الشرعي المشروح في الفقه.

ثانيا:(يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً)، وليس في شئ من العقوبات للمحرمات المضاعفة في الآخرة كما هو في الزنا، فانه يلازم الخلود بالاهانة في نار الآخرة.

ولشدة قبح هذه الجريمة الاخلاقية، فقد قرر العقوبة عليها في كل الامم باتفاق، على ما فيها من الخلافات في نوعية العقوبات.

والى طريق التخلص من ذلك أشار بقوله:

(إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً)، فان هذه النقاط الثلاث المتقارنة من التوبة والايمان والعمل الصالح، يكون تعديلا عمليا وفكريا في الموقف للمنحرف في الدنيا.

ويعوض التائب بأمرين:

أوّلاً: الثواب:(فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً) لمن يقوم بدوره الاصلاحي في الدنيا، قال سبحانه: (ان الحسنات يذهبن السيئات). (هود:١١٦).

ثانيا:(وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلى اللَّهِ مَتَاباً)، فان الله يقبل التوبة الصادقة بشرائط التوبة المذكورة في الدنيا مهما كانت الذنوب، قال سبحانه :(لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعا) (الزمر:٥٣).

التاسع:(وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ)، والزور: الباطل، والشهادة: الحضور، فان حضور مجالس الباطل تأييد عملي لذلك. وذلك يضاد موقف الايمان. وأما الشهادة في الحكم، ففيها صفتان: الحضور والكذب. اعاذنا الله منهما.

العاشر:(وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً)، واللغو: ما لا خير فيه، سواء في ذلك القول أو العمل، فانه يرافق البطالة. وعباد الرحمن لهم رؤية واضحة في المسؤوليات في الحياة التي يقصر عنها حياة الانسان، فيغتنمون كل لحظة من حياتهم في استخدامها لما فيه منفعة وخير لانفسهم وأسرهم وأمتهم، والاعراض عن اللغو استنكار عملي مطلوب من الكرام.

الحادي عشر:(وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمّاً وَعُمْيَاناً)، والخر: السقوط، فان لعباد الرحمن رؤية واضحة للمبادئ والوسائل والاهداف الاسلامية، فهم حينما يذكّرون بآيات الله الكونية أو القرآنية يسقطون على مطلوبهم ويتلقونها بوعي كامل من دون صمم للايات المتلوة أو التعامي عن الآيات الكونية كما هو شأن الكفرة في مطلوبهم في الحياة المادية.

الثاني عشر:(وَالَّذِينَ يَقُولُونَ) في دعواتهم اهم ما يفتقر الله في الحياة الايمانية التي تصون النفس والاسرة في المجتمع، وهو الدعاء الثاني:

أوّلاً:(رَبَّنَا هَبْ لَنَا) في أنفسنا بالصلاح المستوجب للراحة النفسية.

ثانيا:(مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا) في الاسرة التي تعتبر الخلية الاولى في المجتمع الايماني (قُرَّةَ أَعْيُنٍ)، فان استقرار العين يستلزم الراحة والسرور لها لرؤية ما يرتجى منهم.

ثالثا:(وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً) في المجتمع، فان قيادة المجتمع الايماني لا يليق الا بمن تتواجد فيه الصفات المطلوبة في القيادة.

وهذه الصفات الاثني عشر لعباد الرحمن تجعلهم طليعة قيادية للمجتمع الايماني، لانهم رموز الطهارة في انفسهم والايمان في قلوبهم والريادة لمجتمعهم، فخصهم الله سبحانه بما يستحقون بقوله:

(أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ)، وهي- لغة-: المكان المرتفع، لعلو مقامهم في الرؤية الواضحة للمبادئ والوسائل والاهداف الاسلامية.

(بِمَا صَبَرُوا) في الدنيا في مواجهة الاعداء على اختلاف اساليبهم في الاتهامات والعدوان بالاقوال والافعال.

ومن خصائص هذا العلو المقامي أشار بقوله:

١-(وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً)، وهي رمز التقدير والاحترام.

٢-(وَسَلَاماً) وهو تحية الكلام للتعبير عن الامان.

٣-(خَالِدِينَ فِيهَا) بالدوام لهذا الجزاء المتواصل.

٤-(حَسُنَتْ مُسْتَقَرّاً)، حيث ليس هناك احسن مكان استقرار من الجنة.

٥-(وَمُقَاماً) يقيمون فيها عن استحقاق.

ختام السورة:

قال سبحانه:(قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَاماً).(الفرقان: ٧٧).

وقد ختم السورة بعد استعراض شبهات المشركين ودحضها، والإشارة إلى الآيات والحج التي تستوجب الايمان، كما امن بها عباد الرحمن. فوجه الخطاب إلى المشركين كما يقتضيه السياق في آية واحدة تكفي في الإشارة إلى أن مسيرهم ومصيرهم على النقيض من مسير عباد الرحمن ومصيرهم.

قال سبحانه:

(قُلْ) خطابا للمشركين خاصة كما يقضيه السياق.

(مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي)، والعبء: الثقل، و(ما) نافية، فان الله – بعد اتمام الحجة بالآيات والرسل – لا يعد لهؤلاء المشركين ثقلا ولا وزنا وأهمية، لاصرارهم على الكفر عن علم وعمد.

(لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ)، و(لولا) امتناعية، فان السبب الوحيد للاهتمام بالكفار هو دعوتهم إلى معرفة المبادئ والوسائل والاهداف الاسلامية، فان الدعوة في فريضة اسلامية، ولولا هذا الواجب والمسؤولية لما كان سبب في الاهتمام بهم.

(فَقَدْ كَذَّبْتُمْ) بعد أداء الرسل والأنبياء المسؤولية الاسلامية بالحجة والرسل ومعرفة الحقائق، فقد أدى الرسل مسؤوليتهم وكذبتم تلك الرسالات عن علم وعمد.

(فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَاماً)، فان الجزاء العادل بالعقاب يكون لازما، كما تقتضيه العدالة في الحكم بين المطيع والعاصي.

سورة الشعراء

(٢٦)

مكية، الا قوله: (والشعراء يتبعهم الغاوون) إلى آخر السورة، فانها مدنية، عددها (١٢٧) في الكوفي والشامي والمدني الاول، و (١٢٦) في الباقين.

سميت السورة بالشعراء، لورود الصيغة في قوله تعالى: (والشعراء يتبعهم الغاوون) (الاية: ٢٢٤)، ولم ترد في أية آية اخرى، وان وردت المادة خمسة مرات.

السورة استفتحت بالحروف المقطعة (طسم) التي منها تتكون آيات القران الكريم، ثم مقدمة عامة عن موقف النبي وموقف المشركين المعارض بالنسبة إلى الرسالة الاسلامية، وما خلف ذلك من الثار النفسية على الرسول القائد بالرغم من نجاحه في اداء الرسالة باتمام الحجة والتذكرة بالآيات الكونية.

واستفتح الخطاب في هذه المقدمة للرسول القائد، وختمها بقوله: (وان ربك لهو العزيز الحكيم).

وقد كررت هذه الآية الكريمة ثماني مرات بعد سرد قصص الانبياء وادوارهم في تبليغ الرسالة، وهم : موسى وابراهيم ونوح وهود وصالح وشعيب. (راجع شجرة الانبياء ، في سورة الانعام، الآيات: ٨٤-٨٧).

وفي تكرار هذه الاية ثمان مرات مؤكدا بكلمة (ان) و(اللام) إشارة إلى ما يرافق كل رسالة من أمرين أساسيين هما:

أوّلاً: العزة النابعة من الايمان بالله، فان (لله العزة ولرسوله وللمؤمنين).

ثانيا: الرحمة الالهية في كل مرحلة سواء بالعطف ام لا .

قال سبحانه:(ورحمتي وسعت كل شئ)(الاعراف:١٥٦).

فان في عدم الظفر أيضا رحمة الهية، لان فيها تظهر حقيقة المواقف والنوايا بحيث لا يتحقق ذلك مع الظفر أحيانا، فان لكل شئ حكمة الهية الله اعلم بها، وليس على الانسان سوى اداء المسؤولية من القاعدة إلى القمة ثم التسليم لقضاء الله وقدره.

وختم السورة بوصف حقيقي للشعراء باعتبارهم القناة الدعائية التي يستخدمها المتنافسون عادة لمساندة مواقفهم، وحيث لم ترد بصيغة الجمع في أية سورة اخرى سميت السورة بالشعراء، والله اعلم.

مقدمة السورة:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(طسم ○ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ○ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ○إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ○ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ○ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ○ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلّ زَوْجٍ كَرِيمٍ○ إِنَّ

فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ○ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ). (الشعراء:١-٩).

استفتح السورة بالحروف المقطعة (طسم) التي تتكون آيات القران الكريم من امثالها، والسياق يقتضي انها مبتدأ، وخبرها قوله تعالى:(تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ) ،وفي ذلك إشارة إلى ان الحروف (ط، س، م)كما هو الشأن في كثير من المقطعات .(راجع ما ذكرته في دراسة حول القران الكريم).

ثم وجه الخطاب إلى النبئ القائد (ص) باعتباره صاحب مسؤولية رسالية جديدة، نظرا إلى الحالة النفسية التي ترافق أي رسول في نجاح رسالته، بقوله سبحانه:

(لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ)، والبخوع : الهلاك في انجاح مهمة الرسالة .

(أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ)، والمراد المشركين الذين عارضوا الدعوة الاسلامية بكل ما أوتوا من حول وقوة، ومنها: استخدامهم الشعراء كقناة دعائية لها تأثير واسع في المجتمع، شأن الصحف والاذاعات في عصرنا الحاضر.

وهذه الحالة النفسية تراود كل مخلص في رسالته التوعوية الضرورية، كما يحسها كل أب بالنسبة إلى أولاده عند مشاهدتهم في معرض الخطر.

وكما ان أمر التربية يرتبط بعوامل خارجة عن قدرة المربي، فكذلك أمر نجاح الرسالة بترتيب أمور ليست تحت قدرة الرسول. قال سبحانه: (انك لاتهدي من احييت ولكن الله يهدي من يشاء). (القصص:٥٦).

وان من مشية الله اتمام الحجة واعطاء القدرة والاختيار من دون أي اجبار أو اكراه ، لقبول الهداية في تحمل العامل نتيجة اختياره.

وقد أشار سبحانه إلى ذلك بقوله:

أوّلاً – المسألة الالهية:

(إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً) كونية تجبرهم على الايمان، ويكون نتيجتها:

(فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ)، فتكون الآية موثرة فيهم بالحمل الثقيل على اعناقهم، تجبرهم على الخضوع بسلب الارادة منهم.

ولكن المشيئة الالهية ليست كذلك، فان في ذلك سلب الانسانية عن الانسان، فيكون مخلوقا مجبرا، في حين ان الله خلقه مختارا حرا.

ثانيا – الاختيار الانساني:

(وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ)، فان المنكرين يشاهدون الآيات الكونية الحادثة في كل يوم في حياتهم ولكنهم يعرضون عنها باختيارهم عن علم وعمد.

ثالثا – نتيجة الإعراض:

(فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ)، فان هذا العمل عن اختيار، وهو التكذيب بعد تمام الحجة له اثره الموعود عليه في الدنيا والآخرة، وان هذا الامر يتحقق بالرغم من مواقف الاستهزاء.

رابعا – نوعية الآيات:

وقد أشار إلى واحدة منها على سبيل الاستفهام الانكاري بقوله:

(أَوَلَمْ يَرَوْا إلى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ)، فان كل بقعة من بقاع الارض تحتوي على انواع النباتات المتكونة من زوجين، وبدونها لا يستمر النباتات، وهذا هو الكرم .فان الكريم ما يحمد على صفته، وكل من يعيش في الحياة يحمد على نمو الثروة الزراعية التي بها حياة الانسان.

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً) لمن يتأمل الاسباب والعلل التي يتوقف عليها النمو في النباتات المحسوسة، والتي تنتهى في سلسلة العلل والمعلولات إلى الذات الواجب الوجود، الذي خلق الخلق بقدرته.

(وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ) بالله، بالرغم من هذه الآيات الكونية المحسوسة لهم، تكبرا وعنادا لمعارضة الحق بعد تمامية الحجة .

وعن نتيجة المعارضة بين الحق والباطل قال سبحانه:

(وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ)، فان النتيجة تكون: العزة للمبادئ والوسائل والاهداف الاسلامية التي امر الله بها، مقرونة بالرحمة الواسعة لكل شئ بالنسبة إلى الرسالة المحمدية كما كان الحال في الرسالات من قبل.

وقد سرد سبحانه مقياس الانبياء الذين تجلت مظاهر العزة والرحمة الالهية في حياتهم، مبتدئا بالنبي موسى باعتباره أقرب الانبياء في معارضة الشرك الفرعوني. (راجع شجرة الانبياء ، في سورة الانعام، الآيات: ٨٤-٨٧).

بداية الرسالة:

قال سبحانه:(وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ○ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ○ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ○ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ○ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ○ قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ).(الشعراء:١٠-١٥).

وقد بدأت رسالة النبي موسى بالنداء الالهي والتكليم المباشر، وهي خاصة بالنبي موسى دون سائر الانبياء ، ومن هنا سمي بكليم الله. وقال سبحانه:(وكلم الله موسى تكليما).(النساء:١٦٤).

والسياق يقتضي ان الله سبحانه امر النبي بان يتذكر قصة موسى، فقوله: (واذ نادى) يتعلق بفعل مفهوم من السياق، أي اذكر الوقت الذي نادى.

وقال سبحانه عن نداء الوحي:

(وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى)، فان الخطاب للنبي القائد بان يتذكر قصة موسى في حمله الرسالة الالهية ومحتواها:

(أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِين قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ)، فان محتوى الرسالة الدعوة إلى تقوى الله والوقاية من عذابه بسبب الظلم الذي يرتكبه قوم فرعون بالاقلية المستضعفة في حكمهم وهم بنو اسرائيل.

وقد ذكر موسى أسبابا شخصية في نفسه تجعله غير مؤهل لحمل الرسالة من وجهة نظره الشخصين أشار اليها سبحانه بقوله:

أوّلاً:(قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ)، وهذا الخوف طبيعي في مثل الموقفين المتعارضين وانما الخوف من عاقبة التكذيب، ومن ذلك طغيان فرعون اكثر في ظلمه، فتكون النتيجة عكسية. كما ورد من قولهما:(انا نخاف ان يفرط علينا أو يطغى). (طه:٤٥).

ثانيا:(وَيَضِيقُ صَدْرِي)، بسبب الذاكرة التي يحملها شخصيا من الاسرة الفرعونية من تربيته عندهم صغيرا، فكل خطوة يخطوها في قصر فرعون يعيد له تلك الذاكرة المرّة، وهذا يختلف بالنسبة إلى غيره ممن لم تسبق له هذه الذاكرة.

ثالثا:(وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي)، وطلاقة اللسان: الفصاحة في البيان، فقد قيل أنه ع كان ذا لثغة في اللسان، جموداً على ظاهر النص، ولعله اشارة إلى اسلوب جديد للدعوة تختلف عن الأسلوب الذي تربى عليه موسى، وان اتفق الاسلوبان في الجوهر والهدف.

ولهذه الاسباب الثلاثة الشخصية اقترح موسى بديلا لتحمل الرسالة بقوله :

(فَأَرْسِلْ إِلى هَارُونَ) لتحمل الرسالة، فانه كما يقتضيه السياق لم تكن فيه هذه الاسباب الثلاث، ولا أقل من السبب الاخير، فانه بالتأكيدلم يكن فيه السبب الرابع.

رابعا:(وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ)، فقد كان من تأريخ موسى انه حين تواجده في مصر شاهد اثنين يقتتلان أحدهما مصري والاخر اسرائيلي، فاستغاث به الآخر، وقام موسى بنصر الاسرائيلي بوكزة فقضى على حياة المصري.

وطبيعي ان هذا ذنب، وانه يستلزم العقوبة , وان ذلك لم يكن بخاف على السلطة الحاكمة التي في مقدرتها استخدام ذلك حجة قانونية للقضاء عليه قصاصا. (راجع سورة القصص:١٥).

والخوف وان تعلق بالقتل، ولكن قد يؤدي الى الفشل في مهمة الرسالة على اثر ذلك، لتلازمهما في المعادلات العادية.

وقد رفض الله سبحانه هذه الاعذار – وان كانت موجهة في ذاتها– فأكد على حمل الرسالة بقوله:

(قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ)، وهذا الامر الالهي يتضمن نقاطا ثلاث هي:

الاول: الذهاب معأ, فان في حالة قتل موسى يكون هارون بديلا في الاستمرار في الدعوة .

الثانية: استصحاب الآيات, لان بها تتم الحجة المطلوبة في ذلك العصر.

الثالثة: كونهما معا واعتبارهما القيادة، ومن يتبعهم من القاعدة التابعة لهما .

نص الرسالة:

قال سبحانه:(فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ○ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ○ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ○ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ○ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذاً وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ○ فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ

لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْماً وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ○ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ) (الشعراء:١٦-٢٢).

وعن محتوى الرسالة قال سبحانه:

أوّلاً:(فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ)، وليست المواقف للمطالبة الشخصية أو لاطماع سياسية , بل موقف الرسول المؤدي للمسؤولية الملقاة على عاتقه.

ثانيا:(أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ)، باعطائهم الحقوق الانسانية التي يستحقها أي انسان في الحياة، ومنها الحرية في الخروج من حكم الطاغوت. والارسال: هو اطلاق السراح من الاسر، وذلك بتحرير بني اسرائيل من العبودية لفرعون.

وكان موقف فرعون تحريف الرسالة عن هدفها بالتركيز على امور جانبية ليست من صميم الرسالة، ومقصودة في تحريفها.

فركز فرعون على امور شخصية من ماضي موسى:

الاول:(قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً) وهذا الاستفهام التقريري حقيقة تاريخية في حياة موسى، ولكنها لا ترتبط بموضوع الرسالة في شئ، فان فرعون كان يستخدم المقاييس المادية، شأنه في ذلك شأن اصحاب العصابات كتربية الكلاب لخدمة مصالحه الخاصة، في اشارة إلى قول امرأة فرعون:(قرت عين لي ولك لاتقتلوه عسى ان ينفعنا أو نتخذه ولدا) (القصص:٩) والمقاييس المادية تقتضي ان ينخرط بالعصابة ويكون واحدا منهم ويتخلى عن انسانيته فيتناسى حقوق المظلومين، كما هو الشأن في كل السياسيين.

الثاني:(وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ)، وهي في الأغلب مدة أربعين سنة، أو ما يقاربها، وهذه المدة الطويلة في العشرة مع مجتمع خاص، يقتضي الذوبان فيه من حيث العادات والاعراف، ويتطبع بالمبادئ والوسائل والاهداف القائمة في ذلك المجتمع، كيفظ وان موسى تربى في وسط المجتمع الفرعونين فطبيعي أن تنطبع فيه المقاييس المادية، لا أن يعارضها.

الثالث:(وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ) في اشارة إلى قتل المصري لاغاثة الاسرائيلي بالوكزة القاضية على حياة المصري. (راجع القصص:١٥).

(وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ)، أي المنكرين للنعمة في المواقف الثلاثة، فان كل واحد منها تستدعي جزاء ماديا مساويا، من التربية في الصغر، والحياة في ظل الحكم الفرعوني، وعدم العقوبة على قتل المصري، فان المقاييس المادية تقتضي المساندة للحكم الفرعوني، وليس معارضتها.

وقد فنَّد موسى تلك المقاييس المادية المطروحة التي تقوم عليها هذه الامور الثلاثة الشخصية، والتي ذكرها فرعون، وبافساد المقاييس المادية لا يبقي مجالا للاستناد اليها.

ففنّد الاخير بقوله:

أوّلاً:(قَالَ فَعَلْتُهَا إِذاً وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ)، ولم يكن قتل المصري عن رؤية واضحة للمبادئ والوسائل والاهداف الالهية، بل كانت بدافع العصبية القومية للتعاطف مع الاسرائيلي قبل نزول الوحي عليه، والحالة هذه حالة ضلال عن الوحي الالهي الذي يثقف المؤمن برؤية واضحة في الحياة.

وعن نتيجة هذا الموقف الضال قال:

(فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ)، للعلم بان الصراع بين الطبقتين كان صراعا قوميا، والعقاب في مثل ذلك لا يكون عادلا، ولا يبقي للمذنب محيصا سوى التخلص عن ذلك بأية طريقة ممكنة، ومنها الفرار.

ثانيا:(فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْماً وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ)، وهذه مرحلة جديدة في الحياة تبتني على رؤية واضحة مستندة إلى الوحي الالهي لتطبيقه في الحياة، واصطفاء الله تعالى موسى للرسالة، ومنها هذه الرسالة إلى فرعون.

ثالثا:(وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ)، و كلمة (تلك) اشارة إلى التربية المفهومة من السياق، وخبرها (نعمة)، و(إن) المصدرية بدل عنها، والمعنى ان هذه النعمة التي تمنّها هي استعباد بني اسرائيل، ولايمكن ان يكون الاستعباد نعمة، بل هي نقمة.

بيان ذلك: انه لولا الظلم والحكم الفرعوني بذبح أبناء بني اسرائيل لما اضطرت ام موسى إلى أن تلقي رضيعها في اليم حتى يلتقطه آل فرعون وتتبناه امراة فرعون وتعطف عليه بالتربية، ولكان يعيش كغيره من الاطفال في حضانة امة، فليست هذه التربية نعمة، بل هي نقمة للاستخدام.

وقد فوّت موسى بهذه النقطة كل مزاعم فرعون القائمة على المقاييس المادية بفتح صفحة جديدة قائمة على عدالة السماء التي يدعوا اليها الانبياء.

المحاجة مع فرعون:

قال سبحانه:(قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ○ قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ○ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ○ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ

الْأَوَّلِينَ○ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ○ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ○ قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهاً غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ○قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ○ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ) (الشعراء:٢٣-٣١).

وفشل فرعون في استخدام المقاييس المادية في التأثير على رسالة موسى، مما اضطره إلى المحاجة التالية:

(قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ)، وقد سأل ذلك أيضا بمقياس مادي، فقال: أي شئ هو؟ حيث لايمكن تقييمه بمقياس مادئ محسوس، وكأنه اراد بهذا السؤال ان يدخل موسى في متاهات المناقشات اللاهوتية التي لن تنته إلى نتيجة في تأريخ الاديان، وخصوصا في مجال معرفة حقيقية الذات المقدسة والتي لن تنتج الا زيادة مذهب جديد على ما سبق من المذاهب والفرق، وقد فوّت موسى هذه الفرصة على فرعون بالإشارة إلى الآيات الكونية المحسوسة التي لايمكن لأحد انكار وجودها، ولا انكار دقة نظامها، والتي بحكم صنعتها تستند إلى علل تنتهي في سلسلة العلل والمعلولات إلى الذات الواجب الوجود.

وقد تدرج في ذكرها إلى مراحل لم يتمكن فرعون من المعارضة بالحجة، الا السخرية والاتهام والتهديد، وهي الوسائل المادية التي يستخدمها الحكام في المعارضة غالبا عند فقدانهم الحجة والدليل:

ففي المرحلة الاولى: استدل موسى بالآيات الكونية والآفاقية:

(قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ)، والايقان: اليقين، فان اليقين بوجود السماوات والارض وما بينهما يستلزم وجود موجد لها، فاذا كانوا موقنين بوجودها فلا بد وان يكونوا موقنين بموجد لها، وهو الله، من وجهة نظر موسى القائمة على الرؤية الواضحة المستندة إلى الوحي المبين.

وتلقي فرعون هذا الجواب بسخرية:

(قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ)؟ استهانة بالدعوى الغريبة من وجهة نظر فرعون.

وفي المرحلة الثانية استدل موسى بآيات الانفس:

(قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ)، فان أنكر أحد حدوث الآفاق، فلا يمكنه ان ينكر وجود نفسه، فان كل انسان يوجد بواسطة التناسل، وهذه العلل لابد وان تنتهي إلى العلة الاولى وهي الله تعالى.

ولم يملك فرعون في مواجهة هذا البرهان سوى الاتهام بالجنون:

(قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ)، لانه لايقيس الامور بالمقاييس المادية، ويبحث عن حقائق لا تخدم المصالح الشخصية في شئ، والعاقل- بالمقياس المادي – من يفكر في المصالح الشخصية دون غيرها.

وفي المرحلة الثالثة والأخيرة استدل موسى بملكوت الله سبحانه:

(قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ)، فان الحكم المادي للملوك يسيطر على مناطق جغرافية محدودة ومعلومة ، بينما ملكوت الله سبحانه يشمل الارض كله من الشرق والغرب وما بينهما.

فان القدرة الحاكمة على خلق الشمس ومسيرها حاكمة على الارض كلها، فهي – بمقياس العقل– اعظم من القدرة الحاكمة على قطعة من الارض كمصر الفراعنة.

ولم يتمالك فرعون نفسه من هذا التحدي ولم يجد في الجواب سوى التهديد والوعيد، كما هو شأن اصحاب السلطات المادية:

(قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهاً غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ)، وقد اظهرت هذه المحاجة فشل المنطق المادي القائم على السخرية والاتهام والتهديد.

وفي المرحلة الرابعة اقترح موسى امرا يؤمن به القوم، الزاما لهم بما يلتزمون به انفسهم، وهو الاعجاز:

(قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ)؟، وهو الاعجاز البين دلالة على صدق الرسالة .

ولم يجد فرعون بدا من الرضوخ لهذا الاقتراح، الذي يبدوا طلبا منطقيا وعادلا في الجلسة التي عقدت للاحتجاج، والمفروض فيها اعطاء الفرصة لبيان الحقائق.

(قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ)، فان في هذا الاقتراح يتميز الصادق من الكاذب في دعواه.

إظهار المعجزة:

قال سبحانه:(فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ○ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ○ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ○ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ○ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ○ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ○ فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ○ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ

○لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ○ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْراً إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ○ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذاً لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ) (الشعراء:٣٢-٤٢).

لم تؤثر سياسة التحقير والتهديد من فرعون في شخصية موسى، واتم الحجة على فرعون وقومه, واثبت لهم بانه على رؤية واضحة في رسالته، ولم يبق سوى مرحلة الاعجاز.

ويظهر من السياق شيوع السحر في المجتمع المصري آنذاك، لوجود المهرة فيه، فكان هذا الاقتراح مقبولا من الجانبين، أما من جانب موسى فلاعتماده على قدرة رب العالمين التي تفوق سحر السحرة، وأما من جانب فرعون فلاعتقاده بالسحر كوسيلة مادية يمكن استخدامها في وجه المعارضة.

قال سبحانه مشيراً إلى المعجزتين:

الاولى:(فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ)، والثعبان: الحية العظيمة. والمبين ، من البيان، وهو الظهور للعيان لكل انسان في مجلس فرعون بما لا يدخله شك أو شبهة بالحس والعيان.

الثانية:(وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ)، والنزع: الاخراج، وبظهر من السياق انه كان مصدرا للنور والضياء المتلألئ للناظرين، وذلك يستلزم ان تكون اليد بيضاء في نفسها، أو ذلك نفسها، وهي خلاف العادة في المجتمع المصري الذي يتميز بالبشرة السمراء اللون، وأيا ما كان فانه أمر غير طبيعي التحقق في جسم واحد ومحسوس لكل الناظرين.

وبعد ظهور هاتين المعجزتين لم يكن امام فرعون سوى تعليل هذه المعجزة تعليلا ماديا من ناحيتين:

أما بالنسبة إلى العمل:

(قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ)، فانه لا تحليل مادي لهاتين الظاهرتين سوى الاسناد إلى السحر وان المهارة فيه مهارة فائقة.

ومن ناحية الهدف قال:

(يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ)، فان الهدف أيضا هدف مادي وهو استلام السلطة باستخدام السحر، والقضاء على الحكم القائم باخراج بني اسرائيل من وطنهم.

ولأوّل مرة في هذا المجلس أعلن فرعون خطر رسالة موسى على سياسة الحكم القائم، مما يستدعي موقفا موحدا من قبل نظام الحكم القائم في مواجهة موسى.

والسياق يقتضي ان هذا الاتهام صدر أوّلاً من فرعون ، وتلقاه ملأءه بالقبول كما في سورة الاعراف، حيث جاء نصا:(قال الملأ من قوم فرعون ان هذا لساحر عليم) (الاية: ١٠٩) . وذلك يستلزم نزول سورة الاعراف قبل نزول سورة الشعراء، والله اعلم بقصص الانبياء.

والى الموقف الموحد لفرعون أشار الى موقف فرعون باعتباره الرئيس الاعلى في السلطة مخاطبا اعضاء حكومته:(فَمَاذَا تَأْمُرُونَ) في معارضة موسى ورسالته؟.

وأشار الى نتيجة قرار المؤتمر الفرعوني بقوله:

أوّلاً: (قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ) والارجاء: الإمهال والتأخير في اتخاذ القرار الاخير بالقضاء عليهما جذريا، حتى يكون الموقف ضدهما ذا صبغة قانونية عادلة.

ثانيا: (وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ) بالاعلان العام في كل المدن التي تحت الحكم الفرعوني بالحشر، وهو الحضور في الاجتماع العام.

ثالثا: (يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ) بهذه المهنة، فتكون المعارضة بين المتهم بالسحر من جانب، والسحرة على كثرتهم من جانب آخر. فيكون من الطبيعي ان الغلبة للاعلم منهما.

وقد وقعت الفكرة موقع القبول في نفس الحاكم الاعلى الذي اصدر امره القيادي بتنفيذ الفكرة. وتحققت الفكرة في تخطيط كامل في نقاط:

١-(فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ)، معلن عنه في كافة انحاء المناطق التي تحت الحكم الفرعوني.

٢-(وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ)؟، وليس السؤال الا حثّا على الحضور ، كقول القائل: "لماذا لا نحضر هذا الاجتماع الهام؟".

والى سبب الحث أشار بقوله:

٣-(لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ)، فان هذا الاعلان العام اعلان دعائي مدروس تحت شعار العدل والانصاف الكاشف عن الثقة الكاملة لمخططها، حيث اعلنوا عن استعدادهم للرضوخ للمعارضة في نفس الوقت الذي كانوا يتهمونهم بالسحر.

٤-(فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْراً إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ)، ومن الطبيعي ان العمل المادي يكون له اجر مادي، وهذه المعارضة المعلن عنها لابد وان يكون لها من اجر، كما هو الشأن في أي عمل مادي.

٥-(قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذاً لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ) إلى السلطة الحاكمة بوظيفة مرضية، وهذا الاجر أعلى ما يتصور في أي نظام حاكم.

وبهذه النقاط الخمس تم التخطيط ضد رسالة موسى والاعلان عنها .

مع السحرة:

قال سبحانه:(قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ○ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ○ فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ○ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ○ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ○ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ○ قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ○ قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ○ إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ) (الشعراء:٤٣-٥١).

وفي موعد اللقاء طلب موسى أن يبادر الخصم بما لديه، لدعواهم المهارة في السحر من جانب، وليكون له الرد المناسب حسب السحر المطروح من جانب آخر.

(قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ) في المعارضة وإلقاء العصا من جانب موسى.

(فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ) حسب الطرق المتبعة عندهم على اساس السحر، ورافقوا هذا العمل بالدعاية المساندة للحكم القائم (وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ)، لأنهم عصبة متعددة من جانب واحد.

ثم تابع موسى دوره:

(فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ) وهي عصا واحدة في مقابل حبال وعصيّ متعددة. (فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ)، واللقف: البلع بسرعة، فان للسحر المادي آثارا نفسية تؤثر في الشخصيات الضعيفة، والبلع ليس أثرا نفسيا، بل هو حقيقة جسمية، وهذا لايدخل في المعايير المعروفة للسحر، فكانت النتيجة عكسية تماما.

(فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ) لله، فألقوا انفسهم على الارض خضوعاً لله.

(قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ○ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ)، لان الذي شاهدوه لم يكن من السحر المعروف عند السحرة، فلا بد وان يستند إلى علة غير السحر، وحيث لا سبب مادي معروف له، فتكون آية على صدق موسى في دعواه النبوة والرسالة، فإن العلة لذلك إرادة الله الحاكمة في الكون، الخالق لأنواع العوالم التي منها عالم الانسان والحيوان والنبات وغيرها، فهو رب العالمين أجمعين.

وكانت هذه النتيجة العكسية لها الاثر العميق في شخص فرعون، كما له من الاثر العكسي على المجتمع الفرعوني، حيث عقد الامال على نجاح المعارضة لرسالة موسى بالطرق المعترف بها في المجتمع.

وعن موقف فرعون باعتباره الحاكم الأعلى للحكم الفرعوني تجاه السحرة المؤمنين أشار إلى المواقف المتوقعة من الجبارين:

أوّلاً:(قَالَ آَمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آَذَنَ لَكُمْ)، فانه كان لا يزال ينظر إلى الناس كآلات تستخدم في سبيل إرادته، وليسوا كاحرار أصحاب رأي مستقل لأنفسهم.

ثانيا: الاتهام (إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ) فقد كان موسى قبل لحظات وبعد ظهور الحقائق، أصبح ومن وجهة نظر واعتقاد فرعون، منهم.

ثالثا: التهديد (فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ) العقاب على الفكر الحر بالايمان من دون اذن الحاكم .

وهذه طبيعة حكم الظالم الذي لايرى للانسان أية كرامة سوى ان يكون آلة مستخدمة في سبيل مصلحة الحاكم، والا فسوف يواجه بالاستنكار، ثم الاتهام، ثم التهديد بالعقوبة.

وقد حدد العقوبة الفرعونية للجميع بلا استثناء بما فيهم موسى كما يقتضيه السياق بقوله:

(لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ)، أي بقطع اليد اليمني مع الرجل اليسرى، أو بالعكس، دون قطعها جميعاً.

(وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ)، لإرعاب الآخرين من الخروج على الحكم الفرعوني.

والى الموقف الايماني القائم على الرؤية الواضحة في الحياة أشار إلى قول السحرة المؤمنين:

١-(قَالُوا لَا ضَيْرَ)، والضير: الضرر، فان الرؤية الواضحة تستلزم التضحية، على اختلاف الدرجات، والكرامة الانسانية اشرفها، والتضحية في سبيل الحرية الفكرية من اكبر التضحيات، ومن أجل ذلك تقوم الثورات في تأريخ الحضارات.

٢- (إِنَّا إِلى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ)، فان الحجة قد تمت بالمعجزة الالهية على صدق موسى في رسالته الداعية إلى الايمان بالله عن رؤية واضحة.

٣-(إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا) من استخدام السحر في حالة الكفر ومساندة الظلم في الحكم بالطغيان.

والى السبب في هذا الطمع أشار بقوله:

(أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ) في المجتمع، بعد تمامية الحجة، في حين انهم لم يعدوا بذلك، مع ان قوم فرعون وعدوهم بذلك بقولهم: (لعلنا نتبع السحرة ان كانوا هم الغالبين)(الاية:٤). وقد تحققت الغلبة. وهكذا شأن الدعايات السياسية التي لا ترى الا مصالحها، فاذا اصبحت مصالحها في خطر تنكرت على كل التزاماتها ووعودها. ولايكون معهم حال الاستقرار، بل التخلص بالمقاطعة على القرار.

الخروج من مصر:

قال سبحانه:(وَأَوْحَيْنَا إلى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ○ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ○ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ○ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ○ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ○ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ○ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ○ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ○ فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ○ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ○ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ) (الشعراء:٥٢-٦٢).

وبعد اعلان الحكم الفرعوني الظالم بالعقوبة على الايمان، كان الخيار الوحيد للمؤمنين الخروج من سلطنة الحكم الظالم.

قال سبحانه:(وَأَوْحَيْنَا إِلى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ) لمتابعة السلطة الظالمة إياهم للقضاء عليهم، وليس امامهم من خيار سوى الاستسلام، وهذا مرفوض مبدئيا، أو الخروج بالسير في سبيل التحرر من الظلم.

والى المخطط الفرعوني أشار بقوله:

أوّلاً:(فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ) بالاعلان العام في جميع المدن بالحضور للمساهمة في محاربة موسى وقومه.

ثانيا:(إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ). وهي الدعاية ضد حركة التحرر التي يقودها موسى، بأنها حركة الاقلية المغلوب على أمرها بسبب قلتها. والشرذمة: العدد المتفرق.

ثالثا:(وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ)، والغيظ: شدة الغضب، بوسم الحركة على انها حركة انفصالية مندفعة بالعواطف الشخصية، وليست على اساس العدل في الحكم.

رابعا:(وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ) بالتأكيد على وحدة الكلمة في السلطة الحاكمة، واستحكام خطتها بالحذر الكامل من المضاعفات والمفاجئات في ساحة الحرب.

وهذه النقاط هي التي يستخدمها دعاة الحرب دائما لرفع معنويات الجنود المحاربون من جانب وتضعيف الروح المعنوية في الطرف الآخر من جانب آخر.

والى التقدير الالهي أشار بقوله:

(فَأَخْرَجْنَاهُمْ)، أي الفراعنة الذين اعتمدوا على التخطط المادي البحت، ولم يأخذوا بالاعتبار التقدير الالهي، فاخرجهم الله:

١-(مِنْ جَنَّاتٍ)، وهي البساتين العامرة، بسبب استخدام الطبقة العاملة من بني اسرائيل في احيائها ظلما.

٢-(وَعُيُونٍ) جارية في ارض مصر، بسبب الأيدي العاملة في اعمارها.

٣-(وَكُنُوزٍ) ادخرها الفراعنة، نتيجة الجهود التي بذلها الكادحون بالضرائب وغيرها.

٤-(وَمَقَامٍ كَرِيمٍ) من السلطة في الحكم على مختلف طبقات الشعب.

فان هذه الحقائق انما تحققت للفراعنة بسبب قبول الشعب المصري للنظام الظالم ومساندته، كل حسب امكاناته، وكان لبني اسرائيل الدور الكبير في ذلك باعتبارهم طبقة مستبعدة مسلوبة الاستقلال والتفكير، ومسلوبة الحرية في العمل في بناء نفسها في الحاضر والمستقبل.

ويعد ان سلب الله سبحانه الملك من الفراعنة لظلمهم قال:

(كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ)، لإيمانهم بالمبادئ والوسائل والاهداف التي يدعوا اليه الله سبحانه، ومن ذلك العدل، فكان لهم تلك الجنات والعيون والكنوز والمقام الكريم عن استحقاق.

وعن لقاء الجانبين قال:

(فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ)، فان الجيش الفرعوني تابع حركة بني اسرائيل ليلا، لمنعهم من الخروج عن نظام الاستعباد، فلحقوا بهم عند شروق الشمس.

(فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ) حيث كان موسى وقومه عند البحر يفكرون في أقرب الطرق والوسائل للعبور منها، في حين ان فرعون وقومه كانوا على ثقة تامة بأن لا وسيلة مادية للعبور منها.

(قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ) من قبل الجيش الفرعوني، حيث انه لا طريق مادي للخلاص من الموقف سوى الاستسلام لحكم الظلم .

وكان موقف موسى على النقيض من ذلك حيث:

(قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ)، للرؤية الواضحة بان الايمان يلازم النصر دائما ، حتى في الشهادة، لان الشهادة تحرر من العبودية، وذلك نصر في نفسه على الاستسلام.

النصر الالهي:

قال سبحانه:(فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ○ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ○ وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ○ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ○ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ○ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ) (الشعراء:٦٣-٦٨).

وعن النصر الالهي بالنجاة قال:

أوّلاً:(فَأَوْحَيْنَا إلى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ)، فكما كانت العصا معجزة في بلع عصيّ السحرة ،كانت ايضا معجزة في هذا الموقف العصيب.

ثانيا:(فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ)، والفلق: الشق، والفرق – بالكسر –: الجزء، والطود: الجبل.

فكانت البحر – بالمعجزة الالهية– أجزاء متفرقة جامدة، بحيث تمكن موسى وقومه العبور إلى الجانب الآخر بسلامة.

ثالثا:(وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ)، والازلاف: القرب. و (ثم) – بالفتح – : أي عندئذ. والآخرين , هم فرعون وقومه، حيث قربوا إلى البحر بعد نجاة موسى وقومه وسلكوا نفس الطريق، ظنا منهم السلامة كما كانت لموسى وقومه، بقياس انفسهم بغيرهم من الناحية المادية.

رابعاً:(وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ○ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ) وهم فرعون وقومه بعودة المياه إلى حالتها الطبيعية بارادة الله تعالى.

وختم المقطع بالعبرة من رسالة موسى بقوله:

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً) من الله في اتمام الحجة على الكافرين.

(وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ)، كالكثرة في كل مجتمع مادي. وكرر ذلك للمرة الثانية لبيان ان السبب في انتصار الرسالة الالهية ليست الكثرة، كما هو الحال في معتقد المجتمعات المادية. (وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ). فراجع الاية التاسعة.

رسالة ابراهيم:

قال سبحانه:(وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ○ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ○ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ○ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ○ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أو يَضُرُّونَ○ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آَبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ○ قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ○أَنْتُمْ وَآَبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ○ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ).(الشعراء:٦٩-٧٧).

وقد واجهت رسالة النبي ابراهيم -كغيرها من الرسالات - الصعوبات في طريقها حتى أتاه نصر الله بما فيه الاعتبار للكفار والمؤمنين بما فيهم الرسول الامي ص (راجع شجرة الانبياء ، في سورة الانعام، الآيات: ٨٤-٨٧).

فقال تعالى: (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ)، فان المشركين العرب ينتسبون اليه من قبل ابنه اسماعيل، ويحتفظون بأنباء الاجداد المنقولة اليهم في صدور الاباء إلى الاحفاد، فهم على معرفة لهذه الانباء، وهم اولى من غيرهم باتباع طريقته وهي التوحيد ورفض الشرك بكل مظاهره، ومن ذلك نبأ النبي ابراهيم في محاربته للشرك والمشركين.

(إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ)؟ بالاستفهام الانكاري للشرك في كل مظاهره.

(قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ)، والعكوف: الالتزام بالشئ باستمرار.

وبعد إقرارهم بما هو معلوم من حالهم.

(قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ)؟، فان الدعاء نداء، ولايعقل نداء من لا يسمع في الحياة اليومية، فكيف العكوف على ذلك في الحياة بالدوام؟

(أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أو يَضُرُّونَ)، فان الدعاء انما يتوجه لمن يستجيب، لتحصيل النفع منه، أو لتجنب الضرر منه. وما ليس فيه نفع أو ضرر يكون الدعاء له لغوا، وحيث ان الاجابة على هذه الاسئلة واضحة البطلان، وأجاب المشركون بما يبرر عملهم من وجهة نظرهم:

(قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آَبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ)، فليس المبرر لهذه العبادة سوى التقليد الاعمي لمن سبق.

وفي هذا الجواب إقرار بما لا يستوجب العبادة، إذ ليس العاقل من يهمل ما يتطلبه العقل بمجرد اتباعه لما فعله الآخرون، الا بعد معرفته بان فيما فعله المتقدمون مصلحة وحكمة، فان الحضارة المتقدمة في الحياة هي التي تقيّم الامور تقييما عقليا، فتأخذ بالصالح وتترك غيره ما دام هناك بديل، وكذلك يتطور الانسان في حياته العقلية إلى التقدم وليس التأخر.

واعلن ابراهيم موقفه الرافض من عبادة الاصنام و:

(قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ○ أَنْتُمْ وَآَبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ)؟ فانهم جميعا يعبدون ما لا يسمع ولايبصر ولا ينفع، فهي لا تستحق العبادة.

(فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي) باعلان العداوة للاصنام لكونها غير مستحقة للعبادة.

(إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ)، والاستثناء منقطع، فانه لايستحق العبادة سوى من فطر السماوات والارض وبيده امر العالمين اجمعين.

فان بالمقارنة البسيطة بين الموقفين تظهر ضرورة العبادة لمن يستحقها فقط، وفقدان أية صفة للاستحقاق للعبادة في الاصنام، واجتماع كل صفة تستدعي العبادة للخالق العلام.

من صفات الله:

قال سبحانه:(الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ○ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ○ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ○ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ○ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ) (الشعراء:٧٨-٨٢).

ثم سرد من صفات الذات المقدسة المستوجبة للعبادة بقوله:

أوّلاً:(الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ)، فان خلق الانسان يستند إلى علل طبيعية تنتهي في سلسلة وجودها إلى علة العلل، وهو الذات الواجب الوجود تعالى.

ثانيا:(وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ) فان الرزق من النبات والحيوان كلها، موجودات حادثة، ولها خصائصها الطبيعية التي تستند في وجودها إلى علل متسلسلة تنتهي إلى ارادة الله تعالى.

ثالثا:(وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ) فان الامراض الحادثة يحصل الشفاء منها بسبب ما اودع الله في الادوية من خصائص طبيعية للشفاء.

رابعا:(وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ) فان الموت والحياة امران لايدخلان تحت قدرة أي انسان، ويعود امرها إلى البارئ سبحانه في البداية والنهايةز

وهذه النقاط الاربع من الخلق والرزق والشفاء والموت، من الامور التي تعتري كل انسان في الحياة، ومن له القدرة على هذه الامور المحسوسة بالواسطة أو بالمباشرة هو الحقيق بالعبادة والدعاء والانابة، وهو الله سبحانه.

(وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ)، فان المغفرة والاثابة بيد الله تعالى يوم القيامة، ولا دخل لاي موجود في ذلك.

دعاء ابراهيم:

قال سبحانه:(رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ○ وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ○ وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ○ وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ○ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ) (الشعراء:٨٣-٨٧).

وتوجه ابراهيم بالدعاء إلى الله سبحانه فيما يفتقر اليه في نفسه باعتباره شخصية داعية إلى رسالة الله لتطبيقها في المجتمع، وما تفتقر اليه الاسرة باعتبارها الخلية الحية التي يتكون منها المجتمع، وما يتوقع من الجزاء العادل في يوم الحساب.

ويتضمن الدعاء البنود التالية:

الاول:(رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً) بالرؤية الواضحة للمبادئ والوسائل والاهداف لحكم الله بالنسبة إلى نفس الداعية.

الثاني:(وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ) بالسير على خطواتهم في العمل بالصالحات في الدنيا مما يعم نفعه على الدوام. هذا بالنسبة إلى المجتمع الصالح المؤمن.

الثالث:(وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآَخِرِينَ)، واضافة اللسان إلى الصدق بتقدير اللام، أي اللسان الذي لا يتكلم الا بالصدق. وهذا بالنسبة إلى المجتمع الكافر ، وذلك بان لايستخدم سوى الوسائل الصالحة بالتجنب عن الاسالبيب السياسية التي تبتني على ان الغاية تبرر الواسطة. ويرفض الدين ذلك، لان الله لايطاع من حيث يعصى.

الرابع:(وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ). هذا بالنسبة إلى جزاء الاعمال في الآخرة.

الخامس:(وَاغْفِرْ لِأَبِي). وهذا بالنسبة إلى الاسرة التي منها يتكون البناء الاجتماعي للامة.

وقد أشار إلى استحقاق المغفرة لسببين، هما:

أوّلاً: الابوة، وثانيا : (إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ)، والسياق يقتضي ان هذا الدعاء كان قبل سورة التوبة من قوله تعالى:(وما كان استغفار ابراهم لابيه الا عن موعدة وعدها إياه فلما تبيّن انه عدوّ لله تبرّأ منه)(التوبة:١١٤).

وتلخص هذه النقاط الخمس العمل بالمسؤولية بالنسبة إلى البيت والاسرة والمجتمع في الدنيا.

وأما ما يرتبط بيوم البعث في الآخرة فقال:

(وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ)، فان الاعمال بنتائجها، ولا تظهر نتائج الاعمال في الدنيا، بل في يوم البعث.

يوم البعث:

قال سبحانه:(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ○ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ○وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ○ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ○ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ○ مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أو يَنْتَصِرُونَ○ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ○وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ○ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ○ تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ○ إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ○ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ) (فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ ○وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ○ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ○ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ○ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ) (الشعراء:٨٨-١٠٤).

وفي هذا المقطع سرد لصفات يوم البعث التي تتميز عن الحياة الدنيا بالصفات التالية:

أوّلاً:(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ) من الامور المادية التي يستخدمها الانسان عادة لتأمين منافعه الشخصية في الحياة، وليس أقرب من المال في المادة ولا من الأولاد في الماديات.

(إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ)، لان سلامة القلب يدعوا إلى سلامة الجوارح من الانحراف والانزلاق في الدنيا، ولابد من دوام هذه السلامة واستمرارها إلى يوم القيامة.

ثانيا:(وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ)، والزلفى: القرب، لاستحقاقهم ذلك بوعد الله لهم في الدنيا (والله لايخلف الميعاد).(الزمر:٢٠).

ثالثا:(وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ)، والغواية: الضلالة، فيكون العقاب الموعود لهم بارزا مشاهدا في يوم القيامة.

والى المقارنة العادلة في ذلك اليوم أشار بقوله:

(وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ○ مِنْ دُونِ اللَّهِ) من الاصنام والحكام الظلام.

(هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أو يَنْتَصِرُونَ)، فانهم لايتمكنون من نصر انفسهم ، فكيف بنصر غيرهم، كما انهم لايمكنهم ان ينتصروا بغيرهم.

ولا جواب لهذين السؤالين، لحلول العذاب العادل:

(فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ)، والكب: الالقاء، والضمير (هم) يرجع اليهم.

والغاوون: هم كل من عبد من دون الله من الاصنام والحكام، والغاوون: من ضل عن الحق.

(وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ) من دعاة الشرك، ومساندي الظالم.

والى لسان حال المشركين في هذا الموقف أشار بقوله:

(قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ) فيما بينهم، فيمن هو السبب الاصيل في العذاب، العامل بالضلالة أو المسبب لها من جنود ابليس ودعاة الشرك، أو الالهة المعبودة من دون الله.

(تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) وهو الشرك بالله العظيم.

(إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ) في العبادة، مع انه لايستحق العبادة سوى الله سبحانه، ولا يتساوى الخالق والمخلوق في شئ.

(وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ) من جنود ابليس ودعاة الشرك.

(فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ) للتخلص من عذاب النار.

(وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ) حيث لاتنفع الصداقة، بل العمل الصالح، وهم منه صفر، وليس لهم في مثل هذه الحالة سوى التمني:

(فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) بالرجوع إلى الدنيا للعمل للآخرة. وهذا التمني باطل، فان الجزاء انما هو لما سبق، ولو رجعوا إلى الدنيا لافتقر إلى العمل لما بعد الرجوع، وهو جزاء على عمل آخر، وليس لما استحق عليه العذاب بعد تمام الحجة والعصيان عن علم وعمد.

وختم المقطع بما فيه الاعتبار للمؤمنين والكفار بقوله:

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً) للناس اجمعين، ثم للكفار وللمؤمنين، بما فيهم النبي الامين ص.

(وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ) ، كالكثرة في كل مجتمع مادي، فان الطليعة المؤمنة في المجتمع هي القلة الرائدة.

ثم كرر ذلك للمرة الثالثة بيان ان السبب في انتصار الرسالة الالهية ليست الكثرة، كما هو الحال في معتقد المجتمعات المادية. (وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ). فراجع الآية التاسعة.

رسالة نوح:

قال سبحانه:(كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ○ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ○إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ○ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ○ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ

أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ○ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ○ قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ○ قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ○ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ○ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ○ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ○ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ○ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ○ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ○ فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ○ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ○ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ○ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ).(الشعراء:١٠٥-١٢٢).

ومن رسالات الانبياء التي فيها العبر لمن تأخر من الاولياء والاعداء على حد سواء: رسالة النبي نوح، وما لاقاه في سبيل هذه الرسالة من مواقف العداد والاستهزاء.

قال سبحانه:

(كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ) عامة الذين ابلغوا رسالة الله، ومنهم نوح ومن تقدم عليه.

(إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ)؟، والاخوة باعتباره واحدا من القوم، وهذا الاستفهام الانكاري على أن التكذيب العام للمرسلين عامة يستلزم العذاب، والوقاية من الضرر المحتمل أمر مطلوب في الحياة.

واعلن نوح نقاط رسالته بقوله:

أوّلاً:(إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ)، باعلان مسؤولية الرسالة كما ارسل الله بأمانة كما هو المطلوب في أية رسالة.

ثانيا:(فَاتَّقُوا اللَّهَ)، بالوقاية عما يستوجب العذاب من الانحراف عن الفطرة الانسانية بالتشكيك والعصبية.

ثالثا:(وَأَطِيعُونِ)، لان الوقاية لا تتحقق الا اذا كانت مقرونة بالطاعة للاوامر والنواهي القيادية.

رابعا:(وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ)، فلا مجال لاتهام الرسول بالمصلحة الذاتية.

(إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ)، فهو الذي يثيب على العمل الصالح ما يستحقه .

(فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ)، والتكرار للتأكيد، وربما لعظم العذاب المترتب على المخالفة بما لم يعهد من قبل وهو الطوفان، والله اعلم.

وموقف الكفر استند إلى رفض الرسالة بالاستفهام التوبيخي:

(قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ)؟، والواو حالية، والرذل: الدنيئ من الشئ، فان النظام القائم في عصره كان على اساس تفضيل الطبقات الاجتماعية، وليس على الكفاءات الذاتية. ومن وجهة نظر الشرك لا يمكن لمن هو أعلى طبقة في الاجتماع أن يتبع أو يصاحب من هو أدنى، وان كان على حق.

وقد أجاب نوح عن هذا المعتقد:

أوّلاً:(قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)، فان مساندتهم للدعوة إلى الله لاعتقادهم بالمبادئ والوسائل والاهداف الالهية، وليس المشاركة في الدعوة صلة بأعمالهم الحرة سواء كانت دينية أم لا.

ثانيا:(إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ)، اذ ليس من مسؤولية الداعية المحاسبة على الاعمال الحرة التي يقوم بها المشاركون في الدعوة، فان المقياس في وصف الاعمال أو الافراد بالدناءة والرذالة غير مضبوط، وتختلف باختلاف الآراء ووجهات النظر، وعلى الله الحساب في يوم القيامة.

ثالثا:(وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ)، لان الذي يجمع المجتمع الايماني هو عقيدة الايمان، وطرد المؤمنين يناقض المبدأ الايمانى أساسأ.

رابعا:(إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ)، فان مسؤولية الرسالة انما هي الانذار بكل صراحة عن العواقب، ويكون الخيار لمن بلغته الرسالة بالعمل أو الرفض.

وبالرغم من وضوح هذه النقاط الاربع، أصر المجتمع المشرك على موقف المعارضة:

(قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ)، والرجم: الرمي بالحجارة عقوبة على حمل الرسالة الالهية.

وحيث وصل الامر إلى طريق مسدود بين الجانبين توجه نوح بالدعاء إلى الله:

(قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ) بتكذيب الرسالة التي حملتها.

(فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً)، حيث لا طريق في التخلص منهم الا بنصر الله.
(وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) من ظلم المشركين الظالمين.

والى النصر الالهي أشار بقوله:

(فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ)، حيث شحنت سفينة نوح إياه والمؤمنين به ومن كل زوج ما يؤمن مقتضيات الحياة رحمة للعالمين.

(ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ) من المشركين المكذبين، لاستحقاقهم ذلك بعد اتمام الحجة عليهم وكفرانهم عن علم وعمد.

وختم سبحانه المقطع بما فيه الاعتبار للكفار:

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً) للكفار.

ثم كرّر للمرّة الرابعة السبب في انتصار الرسالة الالهية بما ذكره في مقدّمة السورة بقوله: (وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ)، كالكثرة في كل مجتمع مادي، فان الطليعة المؤمنة في المجتمع هي القلة الرائدة.

فالسبب في انتصار الرسالة الالهية ليست الكثرة، كما هو الحال في معتقد المجتمعات المادية. (وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ). فراجع الآية التاسعة.

رسالة هود:

قال سبحانه:(كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ○ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ○ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ○ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ○ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ○ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ○ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ○ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ○ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ○ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ○ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ○ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ○ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ○ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ○ إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ○ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ○ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ○ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ) (الشعراء:١٢٣-١٤٠).

وكذلك رسالة النبي هود إلى قوم عاد، التي تشترك مع سائر الرسالات الالهية في مشاكل الدعوة والتكذيب، بالرغم من توارد الآيات والنذر. (راجع شجرة الانبياء ، في سورة الانعام، الآيات: ٨٤-٨٧). قال سبحانه:

(كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ) عامة بما فيهم نبيهم هود ومن سبقه من الانبياء.

(إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ) باعتباره من القوم، داعيا إلى الرسالة.

(أَلَا تَتَّقُونَ) بالاستفهام الانكاري على مظاهر الشرك في العقيدة والعمل.

وتضمنت رسالة هود نفس النقاط الرسالية التي سبقت من النبى نوح، وهي:

أوّلاً:(إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ)، باعلان مسؤولية الرسالة كما ارسله الله بأمانة كما هو المطلوب في أية رسالة.

ثانيا:(فَاتَّقُوا اللَّهَ) بالوقاية عما يستوجب العذاب من الانحراف عن الفطرة الانسانية بالتشكيك والعصبية.

ثالثا:(وَأَطِيعُونِ)، لان الوقاية لا تتحقق الا اذا كانت مقرونة بالطاعة للاوامر والنواهي القيادية.

رابعا:(وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ)، فلا مجال لاتهام الرسول بالمصلحة الذاتية (إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ) فهو الذي يثيب على العمل الصالح ما يستحقه .

وقد أوضح مخالفة السلوك لقوم عاد لهذه النقاط الاربع على سبيل الاستفهام الانكاري بوجوه:

١-العبث:(أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ)، والعبث: ما لاخير فيه، ومن مظاهر ذلك البناء لا لغاية تعود على الانسانية بفائدة. والريع: المكان المرتفع. والآية: العلامة. وإقامتها من دون أن تعود بالفائدة على الانسانية، تكون عبثا وتبذيرا للاموال، اذا لوحظت حاجة الانسانية إلى ما يحل بعض مشاكلها الاقتصادية.

٢- تخليد الذكرى (وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ)، والمصنع: ما يصنع بالجص كالقصور، اذا كانت تصنع لمجرد تخليد الذكر فقط، كما هو الحال في أهرامات مصر وطاق كسرى وآثار تدمر، فإن هذه الآثار لا هدف انساني فيها سوى خلود الذكر في التاريخ، وكبرياء النفس لاصحابها من دون أية فائدة للمجتمع.

٢- الجبروت (وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ)، والبطش: شدة الفتك. والجبروت: التعالي بالظلم والقهر، من دون استناد إلى القانون العادل والمتناسب مع نوع الجريمة.

وهذه المظاهر الثلاث تستوجب الوقاية من آثارها السلبية. فان العبث في البناء يهدم الاقتصاد، والتخليد للذكرى يدعو إلى الجبروت، والجبروت عين الظلم. وكلها تخالف العدل في الحياة الذي أمر الله الناس به، فقال:

(فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ) بتطبيق العدل الالهي في المجتمع الذي يحتاج الى النمو الاقتصادى والازدهار الفكري وسيادة القانون والتعاون بين القيادة والقاعدة لزيادة الثقة بينهما في السير على المبادئ والوسائل والاهداف المشتركة.

وأشار إلى الاثار التي تحقق الوقاية من الاخطار بقوله:

(وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ) من اثار العدل في المجتمع، وهي:

أوّلاً:(أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ) من نمو الثروة الحيوانية، حيث يسود الأمن في المجتمع.

ثانيا:(وَبَنِينَ)، فان الثروة البشرية قوة للامة، حيث يتعاون الافراد فيها لتحقيق النمو والازدهار في شتى مجالات الحياة.

ثالثا: (وَجَنَّاتٍ) من الثروة النباتية والزراعية التي بها قوام الاقتصاد.

رابعا:(وَعُيُونٍ) من المنابع الطبيعية التي تستخدم في سبيل تقدم الحضارة الوطنية والاقتصاد الوطنى.

فان أيا من ذلك يتوقف على سيادة الامن في المجتمع، ولا يتحقق ذلك الا بسيادة القانون العادل. واهمال أي منها يستوجب الانذار.

(إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ) في الدنيا بتبديد الثروات البشرية والزراعية والحيوانية، واهدار المنابع الطبيعية، وفي الآخرة بما هو اشد عذابا.

وكان موقف المشركين رفض الدعوة إلى تطبيق العدل الالهي في المجتمع .

(قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ)، والوعظ: النصيحة. واستندوا في موقفهم الرافض إلى أمرين:

الاول:(إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ)، و(إن) نافية، وهذا اشارة إلى ان موقفهم الرافض للرسالة الالهية هو موقف كل الحضارات المتقدمة، والخلق: السجية، فان لكل امة سبقت شعارات مشابهة لما رفعه هؤلاء.

الثاني:(وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ) بأي عذاب في الدنيا أو الآخرة، لعدم اعتقادهم بالمبدأ والمعاد رأسا.

وقد فنَّد سبحانه الامرين بقوله:

(فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ)، فان هلاكهم في الدنيا بانقراض آثارهم التي ليست سوى اطلال تفرخ فيها الغربان، ولا ينتفع منها أي انسان، ولعذاب الآخرة أشد من ذلك وأبقى.

وختم المقطع بالاعتبار بهذه الآثار للمؤمنين والكفار بقوله:

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً) يجب الاعتبار بها من مصير الحضارات التي تهالكت في ارساء حكمها بمحاربة العدل.

(وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ) بالمبادئ العادلة التي دعا اليها الانبياء والرسل.

وقد كرّر للمرّة الخامسة السبب في انتصار الرسالة الالهية بما ذكره في مقدّمة السورة بقوله: (وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ)، كالكثرة في كل مجتمع مادي، فان الطليعة المؤمنة في المجتمع هي القلة الرائدة.

فالسبب في انتصار الرسالة الالهية ليست الكثرة، كما هو الحال في معتقد المجتمعات المادية. (وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ). فراجع الآية التاسعة.

رسالة صالح:

قال سبحانه:(كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ○ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ○إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ○ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ○ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ○ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ○ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ○وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ○ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً فَارِهِينَ○ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ○ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ○ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ○قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ○ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ

الصَّادِقِينَ○ قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ○ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ○ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ ○ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ○ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ) (الشعراء:١٤١-١٥٩).

وتشترك رسالة النبي صالح مع سائر الرسالات الالهية التي حملها الانبياء من قبل في الدعوة إلى المبادئ والوسائل والاهداف الالهية في تطبيق العدل الالهي في المجتمع. وكان لهم دور مشابه لمن سبقهم من الاغلبية الساحقة في المجتمعات المتقدمة. (راجع سورة الانعام:٨٦).

قال سبحانه:(كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ) عامة، كما كذبوا النبي المرسل اليهم، وهو كسائر من سبقه من الانبياء.

(إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ) باعتباره احد أفراد القوم، ويرتبط بهم برابطة الاخوة ، فخاطبهم بالاستفهام الانكارى بقوله:

(أَلَا تَتَّقُونَ)، فان الوقاية من الخطر المحتمل أمر طبيعي، والانذار من الانبياء عامة مع إقامة الحجة يستوجب ذلك.

واعلن نفس النقاط التي اعلنها النبي نوح ومن بعده من الرسل بقولهم:

أوّلاً:(إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ) باعلان مسؤولية الرسالة كما ارسله الله بأمانة كما هو المطلوب في أية رسالة.

ثانيا:(فَاتَّقُوا اللَّهَ) بالوقاية عما يستوجب العذاب من الانحراف عن الفطرة الانسانية بالتشكيك والعصبية.

ثالثا:(وَأَطِيعُونِ)، لان الوقاية لا تتحقق الا اذا كانت مقرونة بالطاعة للاوامر والنواهي القيادية.

رابعا:(وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ)، فلا مجال لاتهام الرسول بالمصلحة الذاتية.

(إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ) فهو الذي يثيب على العمل الصالح ما يستحقه .

وقد اوضح النبي صالح مخالفة قوم ثمود لهذه النقاط الاربع في سلوكهم بالاستفهام الانكاري، بوجوه:

الاول:(أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ)، فان الحياة الآمنة لاخلود لها الا بالعمل من اجل استمرار الأمن.

وأشار إلى مظاهر الامن الذي كان يسودهم بقوله:

١-(فِي جَنَّاتٍ)، وهي الحدائق العامرة بالاشجار والثمار.

٢-(وَعُيُونٍ)، من المياه الجارية لسقي الاشجار.

٣-(وَزُرُوعٍ)، من انواع الثروة الزراعية للتغذية.

٤-(وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ)، فان النخل لا تثمر الثمر الا بعد الطلع، وهو مادة اللقاح من الشجر الذكر، والهضم: التداخل بسبب التأثر باللقاح والطلع.

٥-(وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً فَارِهِينَ)، والفره: البطر، فان هذه الحالة من البطر والنعمة لا يمكن ان تبقى من دون عناية، للوقاية من الاخطار، ولا يتحقق ذلك الا بالعدل الالهي في المجتمع .

الثاني:(فَاتَّقُوا اللَّهَ)، فان الوقاية من عذاب الله في الدنيا والآخرة يستلزم تطبيق حكم الله.

الثالث: (وَأَطِيعُونِ)، أي الاطاعة للقيادة التي تدعوا إلى تطبيق حكم الله العادل في المجتمع، فان الطاعة لها تضمن استمرار الحقوق لأصحابها من الضعفاء والاغنياء ضمن قانون عادل يؤمن حاجات الناس من الاعتداء.

الرابع: (وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ)، والاسراف: تجاوز الحد في قانون العدالة، ورفع الظلم عن الطبقات المستضعفة بسياسة التجويع، فانها تولد روح العدوان وتجر إلى الثورة والعصيان للقضاء على الطغيان.

وقد وصفهم بقوله: (الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ)، فان الاصلاح واجب ديني يرفضه الطغاة، والافساد ممنوع دينيا، وهم يستخدمونه في كل وسيلة, والنتيجة يكون الشر المترتب عليه عاما.

وكان موقف الكفار هو الرفض لهذه الدعوة الالهية في مراحل:

أوّلاً: (قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ)، فان تهمة السحر تكاد تكون عامة في مواجهة المصلحين من قبل المكذبين بالرسل عامة، حيث لا يجدون تفسيرا ماديا لمن يتابع الرسل ويتجرد عن الماديات وحب الذات في الحياة.

ثانيا:(مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا)، وهذا كلام صادق، ولكن البشر على درجات من العمر والعلم والمعرفة والخبرة ، وكون الرسول بشرا لا يستلزم نفي النبوة عنه.

ثالثا: (فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ).

ولم يناقش النبي صالح أيا من هذه الأمور، لوضوح جوابها في نفسها، فانها تكشف عن حقيقة المتهمين أكثر، وانهم لا ينظرون الا بمنظار مادي. وقد استجاب إلى طلبهم بالاتيان بآية، أي معجزة ، وقد تقدمت في سورة الأعراف ، الآية ٧٨، فقد طلبوا منه ظهور ناقة من الجبل، فاستجاب الله لصالح دعاءه ، فقال سبحانه:

(قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ○ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ) ، وبذلك تحققت الآية التي طلبوها.

وكان حصولها مستلزما للطاعة لما أمر الله به ، ولكنهم عصوا أوامر الله (فَعَقَرُوهَا)، فاستحقوا بذلك العذاب لعصيانهم أمر الله عن علم وعمد بعد تمامية الحجة عليهم.

(فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ) بعد فوات الأوان.

(فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ) الذي أوعد الله عليه.

وختم المقطع بما في رسالة صالح من العبر للكفار بقوله:(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً) لمن اراد الاعتبار من الكفار.

(وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ) بالمبادئ والوسائل والاهداف الالهية.

وقد كرّر للمرّة السادسة السبب في انتصار الرسالة الالهية بما ذكره في مقدّمة السورة بقوله: (وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ)، كالكثرة في كل مجتمع مادي، فان الطليعة المؤمنة في المجتمع هي القلة الرائدة.

فالسبب في انتصار الرسالة الالهية ليست الكثرة، كما هو الحال في معتقد المجتمعات المادية. (وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ). فراجع الآية التاسعة.

رسالة لوط:

قال سبحانه:(كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ○ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ○إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ○ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ○ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ○ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ○ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ○ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ○ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ○ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ○ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ○ إِلَّا عَجُوزاً فِي الْغَابِرِينَ○ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ○ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ○ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ○ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ) (الشعراء: ١٦٠-١٧٥).

ولوط النبي كمن سبقه من الانبياء والرسل، قام بابلاغ الرسالة الالهية في عصره ، وواجه التكذيب المتوقع من قومه المنكرين لرسالته، وانقذه الله بنصره عليهم بعد ان عذبهم على عصيانهم المتعمد، قال سبحانه:

(كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ) عامة.

(إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ) من الانحراف عن الفطرة الانسانية(راجع شجرة الانبياء ، في سورة الانعام، الآيات: ٨٤-٨٧).

وقد اعلن النبي لوط عن نفس النقاط التي اعلنها الانبياء السابقين بقولهم:

أوّلاً:(إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ)، باعلان مسؤولية الرسالة كما ارسله الله بأمانة كما هو المطلوب في أية رسالة.

ثانيا:(فَاتَّقُوا اللَّهَ)، بالوقاية عما يستوجب العذاب من الانحراف عن الفطرة الانسانية بالتشكيك والعصبية.

ثالثا:(وَأَطِيعُونِ)، لان الوقاية لا تتحقق الا اذا كانت مقرونة بالطاعة للاوامر والنواهي القيادية.

رابعا:(وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ)، فلا مجال لاتهام الرسول بالمصلحة الذاتية.

(إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ)، فهو الذي يثيب على العمل الصالح ما يستحقه .

ثم اوضح النبي لوط مخالفة قومه في سلوكهم في الحياة لهذه النقاط الاربع على سبيل الاستفهام الانكاري بوجوه:

أوّلاً: (أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ)؟!! فان هذه الفعلة الشنيعة مما تأبى عنه الحيوانات ، فكيف يفعلها الانسان؟

الثاني:(وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ)، فان الله خلق الانسان من الزوجين الذكر والانثى كما هو الحال في كل المخلوقات من النباتات لاستمرار النسل البشري، ولا يتحقق ذلك الا بالتزاوج بين الجنسين.

الثالث:(بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ)، والعدو : تجاوز الحد.

والى موقف الكفر من قوم لوط أشار بقوله:

(قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ)، وهذا التهديد تأكيد على موقف الكفر من دون ترديد.

والى موقف لوط الرافض أشار بقوله:

(قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ)، والقلا: البغض.

وبعد هذه المعارضة المعلنة في الموقفين من الجانبين، دعا لوط ربه قائلا:

(رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ)، فان الانحراف يؤثر في حياة الانسان بسبب التواجد والاختلاط مع المجتمع المنحرف.

وقد استجاب الله دعاءه فقال:

(فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ○ إِلَّا عَجُوزاً فِي الْغَابِرِينَ)، والغابر: الباقي في الهالكين، وهي زوجته.

(ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآَخَرِينَ○ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ) وكان المطر (حجارة من سجيل)(الحجر:٧٤).

وختم المقطع بالاعتبار بآثار رسالة لوط وتعذيب الكفار بقوله:

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً) للكفار عامة في كل العصور لمخالفتهم الحكم الالهي.

(وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ) بالرسالة الالهية العامة.

وقد كرّر للمرّة السابعة السبب في انتصار الرسالة الالهية بما ذكره في مقدّمة السورة بقوله: (وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ)، كالكثرة في كل مجتمع مادي، فان الطليعة المؤمنة في المجتمع هي القلة الرائدة.

فالسبب في انتصار الرسالة الالهية ليست الكثرة، كما هو الحال في معتقد المجتمعات المادية. (وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ). فراجع الآية التاسعة.

رسالة شعيب:

قال سبحانه:(كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ○ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ○إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ○ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ○ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ○ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ○ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ○ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ○ وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ○ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ○ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ○ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفاً مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ○ قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ)(فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ○ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ○ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ)(الشعراء:١٧٦-١٩١).

ويشترك النبي شعيب في الخطوط العريضة للنبوة من سبقه من الانبياء والرسل في المبادئ والوسائل والاهداف، ومواقف التكذيب المتوقع من قومه المنكرين لرسالته بعد اتمام الحجة عن علم وعمد، بما يستحق العذاب، ونجاة رسول الله بنصره عليهم، بعد ان عذبهم على عصيانهم المتعمد. (راجع شجرة الانبياء ، في سورة الانعام، الآيات: ٨٤-٨٧).

قال سبحانه:(كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ)، والأيكة: الشجر الملتف بعضها ببعض، وهي في أرض مدين بالقرب من الاردن اليوم، فقد كذبوا الرسل الذين بلغوا حكم الله العادل.

(إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ) الله في ظلم المجتمع بمخالفة النظام الاقتصادي؟!!

وقد اعلن شعيب عن رسالته في نقاط أربعة ، وهي نفس النقاط التي أعلنها الرسل من قبل:

أوّلاً:(إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ)، باعلان مسؤولية الرسالة كما ارسله الله بأمانة كما هو المطلوب في أية رسالة.

ثانيا:(فَاتَّقُوا اللَّهَ)، بالوقاية عما يستوجب العذاب من الانحراف عن الفطرة الانسانية بالتشكيك والعصبية.

ثالثا:(وَأَطِيعُونِ)، لان الوقاية لا تتحقق الا اذا كانت مقرونة بالطاعة للاوامر والنواهي القيادية.

رابعا:(وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ)، فلا مجال لاتهام الرسول بالمصلحة الذاتية.

(إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ)، فهو الذي يثيب على العمل الصالح ما يستحقه .

ثم اوضح مواقف الانحراف عن النقاط العادلة في حياتهم الاقتصادية، وهي:

أوّلاً:(أَوْفُوا الْكَيْلَ)، فان النظام الاقتصادي العادل يتقوم بالوفاء بالكيل، وهو ما يقدر بالحجم.

الثاني:(وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ) بالخيانة في الكيل ، مما يوجب الخسران على الآخرين، المستلزم للاضرار المسبب للعداء بين افراد المجتمع.

الثالث:(وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ)، والْقِسْطَاسِ: الميزان. وهو ما يقدر بالثقل.

الرابع:(وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ)، والبخس: النقص في تقييم الشئ دون ما هو قيمته الحقيقية، أو تحقيره لشرائه بأقل قيمة ممكنة.

الخامس:(وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ)، والعثو: الفساد سواء كان عن قصد أو بدون قصد، والافساد: التعمد في الفساد.

فان هذه المواقف الخمس لها آثار في النفوس وردود فعل غاضبة في المجتمع، فتولد الحقد في نفوس المتضررين، وتخلق عادة قبيحة للتجار تؤدي في النتيجة إلى شلل الاقتصاد في البلاد.

(وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ)، فان تقوى الله يستلزم الوقاية عن مواقف الانحراف المذكورة.

والى موقف الكفار من دعوة شعيب أشار بقوله:

(قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ)، كما سبق من المكذبين من قبل بالنسبة إلى المرسلين.

(وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا) في اعتقادهم ان التماثل في البشرية يستلزم التنكر للرسالة التي بعث بها شعيب والحاكمة بالعدل.

(وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ)، و(إن) مخففة من الثقيلة، للتأكيد على تهمة الكذب بسبب التماثل في البشرية.

ثم ان الكفار طلبوا أمرا غريبا فاستحقوا العذاب بنفس هذا الطلب ، حيث قالوا:

(فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفاً مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ)، والكسف: القطعة من الشئ ، والسياق يقتضي أنهم طلبوا قطعة من العذاب، استهزاء برسالة النبي شعيب.

والى موقف شعيب أشار بقوله:

(قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ) من موقف الانحراف المستوجب للعذاب، ومن ذلك طلب العذاب مباشرة، والامر إلى الله في استجابة الطلب.

وقد استجاب الله لطلبهم عند استحقاقهم العذاب فقال:

(فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ)، والظلة: ما يستظل به ، وقد جاء في التفاسير: ان العذاب كان سحابا يستظل به من أشعة الشمس ، فانقلب ليصبح قطعا من العذاب فسقط عليهم.

(إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)، لان المتوقع من الظل: الوقاية به من الحر، وليس العذاب.

وختم المقطع بالاعتبار بآثار رسالة شعيب في تعذيب الكفار بقوله:

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً) لعامة الكفار ، لانحرافهم عن الحكم الالهي بالعدل.

(وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ) بالرسالة الالهية، كما هو الحال في كل العصور.

وقد كرّر للمرّة الثامنة السبب في انتصار الرسالة الالهية بما ذكره في مقدّمة السورة بقوله: (وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ)، كالكثرة في كل مجتمع مادي، فان الطليعة المؤمنة في المجتمع هي القلة الرائدة.

فالسبب في انتصار الرسالة الالهية ليست الكثرة، كما هو الحال في معتقد المجتمعات المادية. (وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ). فراجع الآية التاسعة.

رسالة القرآن:

قال سبحانه:(وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ○ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ○ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ○ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ○ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ○ أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ○ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ○ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ○ كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ○ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ○ فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ○ فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ ○أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ○ أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ○ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ○مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ○ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ○ ذِكْرَى

وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ○ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ○ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ○إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ).(الشعراء:١٩٢-٢١٢).

في هذا المقطع تأكيد على رسالة القرآن التي تلتقي في الخطوط العريضة مع رسالات الانبياء والمرسلين في طول التاريخ، الداعية إلى تحقيق العدل الالهي في المجتمع، كما أن مواقف الكفر تلتقي في الخطوط العريضة مع مواقف الكفر برسالات الانبياء والمرسلين من قبل، فهم لا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم، وعند نزول العذاب لا يبقى مجال للايمان .

وعن الخطوط العريضة الموصلة بين القرآن وسائر رسالات السماء قال:

أوّلاً: الوحي (وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ)، والضمير يرجع إلى القرآن الكريم، كما هو المفهوم من السياق.

ثانيا: انه منزل بواسطة الوحي (نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ○ عَلَى قَلْبِكَ)، فان نزول الوحي كان بواسطة جبرائيل.

ثالثا: هدف الوحي (لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ)، كسائر الانبياء والمرسلين بالانذار بالعقاب للمنحرفين عن قوانين العدل الالهي.

(بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ)، وهذه من خصائص القرآن الكريم التي تميزه عن سائر الكتب السماوية.

رابعا:(وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ)، فقد بشرت الكتب السماوية بالقرآن الكريم، كما هو الظاهر من السياق، ولعل المراد ان المراد ان القرآن يتطابق مع ما في كتب المرسلين

من قبل، لكونه مصدقا لما بين يديه من التوراة والانجيل والزبور ، لوحدة الرسالات الالهية ، والله اعلم.

وقد أوضح هذا الامر الرابع بنقطتين:

الأولى: بالاستفهام الانكاري على اليهود بقوله:

(أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آَيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ)؟! فقد تقدمت البشارات بنبوة النبي مُحَمَّد ص في التوراة والانجيل، وان علماء اليهود والنصارى كانوا على علم بذلك، وقد ذكرت بعضها في كتاب :"موارد الاعتبار، في سيرة النبي المختار"، فراجع.

الثانية: السبب في انزال القرآن باللغة العربية بقوله:

(وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ○ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ)، فان الروح القومية العربية كانت تمنع العرب من الايمان بكتاب نزل على غير لغتهم. والقرآن الكريم هو الكتاب الوحيد الذي نزل بلغة العرب، فان الانبياء العرب كهود وصالح وشعيب لم يكونوا أصحاب كتب، وان كانوا من اصحاب الرسالات السماوية، كما لم يكونوا من أولي العزم.

وكان النبي مُحَمَّد ص خاتم الانبياء ومن أولي العزم صاحب آخر رسالة، ونزول القرآن باللغة العربية يكون حجة على العرب لكونه بلغتهم كما هو حجة على غير العرب على حد سواء.

وعن الخطوط العريضة لمواقف الكفار والمشركين قال:

أوّلاً:(كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ)، وهم المشركون الذين تلبسوا بالجرائم وهي الذنوب الكبيرة. والسلوك: الدخول. فان القرآن يدخل في قلوب الكفار العرب أيضا، لانه بلغتهم المفهومة لهم، ولكن لا يستقر في قلوبهم، كما لم تؤثر رسالات الانبياء المتقدمين في قلوب المجرمين من أقوامهم.

ثانيا:(لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ)، كما كانت مواقف الكفار في مختلف عصور المرسلين السابقين، حيث انكر الكفار انذار المنذرين حتى واجهوا العذاب الاليم.

ثالثا:(فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)، فانه بعد استحقاق العذاب وانتهاء فرصة التوبة والتعديل يكون أمر العذاب بيد الله ، وليس باختيار العبد، فيكون العذاب بغتة ومفاجاة، كما كانت في الامم المكذبة من قبل كقوم نوح وعاد وثمود ولوط وغيرهم.

رابعا:(فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ)؟ فيطلبون الامهال والتأخير للعذاب بعد فوات الاوان وحلول الأجل الموعود.

وقد اوضح سبحانه هذا الطلب بانه لا يستحق الاجابة، بعد ان تحقق استحقاق العذاب باستفهامين انكاريين:

أوّلاً:(أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ)؟!! فقد استعجلته أمم من قبل استهزاء بالرسل ولم يعذبهم الله حسب رغبتهم، ولكن عند استحقاقهم العذاب بمواقفهم الكافرة عن علم وعمد، حق عليهم ذلك، فليس للاستعجال تأثير في تقدم وحلول العذاب.

وثانيا:(أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ○ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ○ مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ)؟!!، فان فرصة تعديل المواقف تنتهي بحلول موعد العذاب، فلا يكون للانظار والامهال مجال.

والى السبب في هذا القرار الحاسم قال:

الاولى:(وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ ○ ذِكْرَى)، فان الانذار على لسان الانبياء والرسل قد سبق العذاب.

الثانية:(وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ) بانزال العذاب من دون سبق ذكر وانذار.

وختم المقطع بالإشارة إلى صيانة الوحي القرآني من تأثير الشياطين بقوله:

(وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ) كما كان يتهم الكفار النبي بذلك. وقد ذكر لذلك سببين:

الاول بقوله:(وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ)، فان الوحي القرآني والفكر الشيطاني متعارضان في المبادئ والوسائل والاهداف، ولن يلتقيا ابدا، فلا يمكن للشياطين انزال ما يعارض القرآن.

الثاني بقوله:(وَمَا يَسْتَطِيعُونَ)، فقد وعد الله سبحانه بحفظ الوحي منهم، قال سبحانه: (الا من استرق السمع فأتبعه شهاب ثاقب). (الحجر:١٨).

والسبب في عدم استطاعتهم ذلك هو (إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ) بواسطة الشهب التي تصيب من اراد ذلك منهم.

مسؤوليات الرسول:

قال سبحانه:(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آَخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ○ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ○ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ○ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ○ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ○ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ○ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ○ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ).(الشعراء: ٢١٣-٢٢٠).

يتضمن هذا المقطع اهم مسؤوليات القيادة المتمثلة بالرسول الأعظم ص باعتباره الاسوة لغيره من المسلمين، وقد سردها في نقاط:

أوّلاً : التوحيد (فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آَخَرَ)، بأي مظهر من مظاهر الشرك (فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ) المشتركين في الخطوط العريضة مع مواقف الكفار في تاريخ الانبياء والمرسلين.

ثانيا: الانذار (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ)، فان الخطوط الاصلاحية تبدأ بالنفس ثم الاقرب فالاقرب، والعشيرة القريبة اقرب واولى بالانذار من غيرها.

ثالثا: الرفق (وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)، وخفض الجناح كناية عن الرفق ، كما يمد الطير جناحيه رأفة بأفراخه.

رابعا: البراءة من الانحراف (فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ).

خامسا: التوكل (وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ).

وصفتي (العزة) و (الرحمة) تكررت عقيب بيان كل رسالة الهية, واشير اليها في هذه السورة ثمان مرات، ولعله لبيان انه لا ينبغي التوكل على من لا يتصف بهما، ولا يتصف بهما حقيقة الا الله تعالى، وراجع الآية التاسعة من هذه السورة.

ثم أشار إلى الحالات الداعية إلى التوكل بقوله:

الاولى: (الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ) قياما بالواجب الاسلامي من الدعوة إلى الله بين المشركين.

الثانية:(وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ) بالانتقال من حال إلى حال فيهم ، دون غيرهم .

(إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ) يسمع دعوات الساجدينز

(الْعَلِيمُ) بما يفتقر اليه كل الناس من الهداية والتثقيف بما في ذلك المشركين الذين لا يؤمنون، أو المؤمنين الساجدين لله تعالى ، فان كلا منهم يفتقر إلى رؤية واضحة للمبادئ والوسائل والاهداف الاسلامية في الحياة حسب اختلاف الدرجات.

قنوات الشياطين:

قال سبحانه:(هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ○ تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ○يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ○ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ○ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ○ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ○ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أي مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ). (الشعراء:٢٢١- ٢٢٧).

وختم السورة بالإشارة إلى قنوات الشياطين المستخدمة في معارضة القرآن الكريم ورسالة النبي العظيم ، بقوله سبحانه:

(هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ) لمعارضة الاسلام في المبادئ والوسائل والأهداف؟

وقد سرد من القنوات المستخدمة من قبل الشياطين :

الاول: الأفك (تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ)، والإفك: الكذب الشديد الأثر، فان الشياطين يستخدمون التهم الشديدة الأثر في نفوس السامعين ، فان لها تأثير وقتي محسوس باثارة الشكوك، وان كانت النتيجة معكوسة بعد التحقيق.

الثاني: الإثم (أَثِيمٍ)، والإثم : الذنب، فان المذنبين بسبب عقدة النقص الموجودة في نفوسهم يحاولون تلويث الآخرين بالإثم ، كالمريض الذي يحاول نقل العدوى إلى الأصحاء طمعا في إمراضهم، فيستخدم الشياطين هذه العقد النفسية كوسيلة لارباك الوضع.

الثالثة: الكذب (يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ)، والقاء السمع: عبارة عن الاستماع لنشر المسموع، فان ناقل الكذب أحد الكاذبين.

الرابع: الشعر، وهو الكلام الموزون ذا رسالة فكرية للتأثير على الآخرين، وهو من أهم الفنون الأدبية، وفي المثل:"أعذب الشعر أكذبه"، والشياطين يستخدمون هذه القناة في مجالات الحب والغرام بما يهشم العظام، وقد أشار سبحانه إلى ثلاث خصال غالبة في الشعراء ، وهي:

أوّلاً:(وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ)، والغي: هو الضلال والخيبة، فيغطون حقيقتهم المحسوسة بالخيالات الشعرية.

ثانيا:. (أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ)؟، والاستفهام تقريري، والهيام: السير من دون قصد لهدف معين، فان الشعراء يتطرقون إلى المدح تارة والذم أخرى حسب تبدل الاحوال والظروف من دون الالتزام بأي مبدأ ثابت في انفسهم.

ثالثا: (وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ)، لان غالب أشعارهم ليست نابعة عن الايمان بالمبادئ، بل باستخدام العواطف للمصالح الوقتية اما الترفيه عن النفس أو في خدمة من ينتفع بها.

وهذه الخصائص الثلاث هي الغالبة في الشعر.

ثم أشار سبحانه إلى الاستثناء من هذه الخصائص الغالبة في الشعراء طائفة هم أصحاب المبادئ، الذين لا تتغير مواقفهم، وخص منهم بقوله:

أوّلاً: (إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا)، فان الايمان أصل أصيل يمنع من الغي والتطرف في الامور التي ليست من دائرة اختصاص الشاعر أو القائل.

ثانيا: (وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)، فان العاملين للصلاح لا يقولون الشعر الذي لا يتوافق مع مبادئهم وعملهم .

ثالثا: (وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً)، فان ذكر الله حسن على كل حال، وكما يكون في النثر كذلك يكون في الشعر على اختلاف أوزانه وبحوره ، وما أكثر الشعر الديني في مجالات العقيدة والشريعة.

رابعا: (وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا)، فان الشعر المنشد في محاربة الظالم ونصرة المظلوم من الجهاد باللسان، وفي ذلك رضى الرحمن.

وهذه الموارد الاستثنائية لها فروع كثيرة لا يمكن ضبطها.

وقد ختم المقطع بالاشارة إلى السبب في هذا الاستثناء بقوله:

(وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أي مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ)، فان الظلم يجب ان يحارب بأيّة وسيلة ممكنة، ومن تلك الوسائل: الشعر.

سورة النمل

(٢٧)

مكية بالاجماع، وعددها (٩٥) في الحجازي، و(٢٤) في البصري والشامي، و(٩٣) في الكوفي.

وسميت السورة بالنمل لورود قصتها فيها، وقد تكررت الكلمة فيها ثلاث مرات في الآية (١٨)، ولم ترد في أية آية أخرى من القرآن الكريم.

استفتح السورة بالمقطعات (طس) متعقبة بوصف القرآن الكريم كما هو الشأن في اغلب المقطعات.

ثم وصف المؤمنين وغير المؤمنين وما للاعمال من الجزاء كما أخبره الوحي المبين. كما سرد سلسلة من أخبار الانبياء موسى وداود وسليمان وثمود ولوط. (راجع شجرة الانبياء ، في سورة الانعام، الآيات: ٨٤-٨٧) مستعرضا الخطوط العريضة لرسالتهم ومصير التكذيب من اقوامهم.

ثم أشار إلى آيات الخلق التي تستلزم عقيدة التوحيد وموقف الكفار منها. ثم أشار إلى دور القرآن في الحكم الذي يرفع الخلاف الواقع بين بني اسرائيل، وهذا يقتضي ان تكون السورة أو بعضها مدنية، لظهور هذه الخلاقات في المدينة ظاهرا، مع ان الاجماع على كون السورة مكية من دون خلاف.

ثم أشار إلى ما يستدعي التذكر من خصائص يوم الحشر والنفخ في الصور وختمتها بخلاصة السورة.

القرآن الكريم:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مبين○ هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ) .(النمل: ١-٢).

استفتح السورة بوصف القرآن الكريم بالحروف المقطعة (طس) ، وللتفصيل راجع :"دراسة حول القرآن الكريم".

وأشار إلى صفات القرآن الكريم بقوله:

أوّلاً:(تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ)، فهي آيات ذات دلالة على استنادها إلى حكمة عالية تفوق الفكر الانساني المادية في الخلق تكوينا وفي الحكم تشريعا، ومصدره الوحي الالهي.

ثانيا:(وَكِتَابٍ)، وهو الذي فرض اتباعه ولا يمكن التخلف عنه الا إلى الضلال في الحياة.

ثالثا:(مبين)، فيه التفصيل لما يفتقر اليه الانسان في الحياة الشخصية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية وغيرها.

رابعا:(هُدًى)، يهدي إلى الصراط المستقيم في الحياة عقيدة وشريعة وسلوكا.

خامسا:(وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ) بالله الحاكم في السماوات والارض والمشرع لما فيه التوازن في الحياة بين المادة والروح مما يفتقر اليه الانسان.

صفات المؤمنين:

قال سبحانه:(الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآَخِرَةِ هُمْ يوقنون إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآَخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ○ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآَخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ○ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآَنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ).(النمل: ٣-٦).

أشار من صفات المؤمنين إلى ثلاث اصول اساسية هي اصول الدين، ومنها يظهر صفات غير المؤمنين بالمعارضة لها:

الاول: (الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ)، فان الصلاة تمثل الجانب الروحي في كل دين، وبدونه لا يستقيم دين.

الثاني:(وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ)، وهي تمثل العمل الاقتصادي بما هو مسؤولية كل فرد من افراد المؤمنين.

الثالث:(وَهُمْ بِالْآَخِرَةِ هُمْ يوقنون)، وهو المعاد في يوم القيامة للجزاء والحساب العادل.

فان هذه الأعمدة الثلاثة تعتبر اصول الدين، وبدونها لا يستقيم الايمان، فان اهمال أحدها يستلزم عدم الايمان، حيث لا يمكن التفريق بينهما، وان اختلفت درجات الايمان قوة وضعفا.

وطبيعي ان الملتزم بالحقائق لا يهتم بمظاهر الزينة في الحياة، وانما يسير على ما يعتقد به برؤية واضحة مهما كانت الاثار المخالفة لهذه الرؤية الواضحة.

ثم أشار إلى وصف الكفار بقوله:

(إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ) بسبب نظرتهم المادية في الحياة فقط.

(زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ) بسبب اختيارهم الدنيا على الآخرة، وهذا الاختيار اعطاهم الله ولم يسلبه عنهم، لانه يلازم صفة الانسانية، وسلبه عنهم يصنفهم في خلقهم من غير البشر.

(فَهُمْ يَعْمَهُونَ)، والعمة: الرؤية الضعيفة، لاقتصارهم على المادة والماديات كسائر الحيوانات التي لا ترى الا مصالحها الشخصية، وهمها علفها، وتعيش بشريعة الغاب في سبيل الحصول على ما تريد في حياتها، لعدم شعورها بالمسؤولية المتعقبة بالآخرة على الاعمال.

وعن جزاء هذا الموقف الكافر قال:(أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ) جزاء عادلا لأعمالهم.

(وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ) بالنسبة إلى غيرهم من مخلوقات الله، فان الحيوانات همها علفها، وتستخدم شريعة الغاب، لانها غير مكلفة بحكم شرعي في حياتها، فتتصرف تصرفا طبيعيا حسب طبيعتها الحيوانية. واما الانسان فقد اكرمه الله بالعقل، فيكون مسؤولا حسب طبيعته الانسانية والتنكر لما يرفضه العقل من عمل يكون موجبا للخسران بعد توارد الحجج والبينات بواسطة الرسالات، سواء في عصر الرسول مُحَمَّد (ص) بالقرآن كما قال:

(وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ)، لكونه مستندا إلى الوحي الالهي كما هو في كل الرسالات التي حملها الانبياء والرسل في تاريخ البشرية، فقد انذرت من عذاب الآخرة.

رسالة موسى:

قال سبحانه:(إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَاراً سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أو آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ○ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ○ يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ○ وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ○ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحيم) .(النمل: ٧-١٤).

امر سبحانه بالذكرى والعبرة برسالة موسى ومواقف المتكبرين وما اصابهم من العذاب، مشيرا إلى مراحل الرسالة من البداية، ثم الوحي، ثم المعجزات الوحي، ثم موقف المنكرين، ثم العذاب للمفسدين.

قال سبحانه عن البداية:

(إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ)، و(اذ) ضرف يتعلق بفصل مفهوم من السياق أي (اذكر). وهذا الزمن هو البداية لمسيرة موسى التكاملية، وهو مع اهله أي زوجتة بنت النبي شعيب، فان السلوك يقتضي التجرد من العلائق المادية.

وطبيعي ان تكون هذه البداية بالطرق العادية، فان الله سبحانه أبى ان يجري الأمور الا بأسباب، وقد اراد الله سبحانه تكون هذه البداية بالطرق العادية، فقال موسى:

(إِنِّي آنَسْتُ نَاراً)، والسياق يقتضي انه رأى النار المحرقة التي تشع منها النور، وليس النور المجرد منها، والانس: الاحساس بالرؤية البصرية.

(سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ)، وهذا وعد حقيقي بما يقف عليه في مسيرته، ولا ينافي الرجاء بان يكون ما يقف عليه حقيقة وليس رجاء، كما صرح به في سورة

طه: ١٠: (إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى). وفي سورة القصص: ٢٩: (قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ)، فان الرجاء هو الوقوف على حقيقة النار، فتحقق في المقام الوعد الحقيقي دون متعلقه ، وفي طه والقصص متعلق الرجاء حقيقي.

(أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ) الشهاب: الضوء، والقبس: الشعلة فيما اذا كان متعلق الرجاء حقيقيا، بان المرجو هو النار الحقيقية.

(لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ)، والاصطلاء: التدفئة بالنار، ومن ذلك يظهر ان هذا كان في فصل الشتاء، حيث يفتقر الانسان إلى الاصطلاء بالنار فيه، دون غيره من الفصول.

وقال سبحانه عن الوحي:

(فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ) بالوحي من الله سبحانه. ولم يسمع هذا النداء سوى موسى، وقد تضمن الوحي نقاطا:

أوّلاً:(أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا)، والسياق يقتضي ان المراد الذات المقدسة التي عمت بركته ورحمته الكون كله، ولا يستلزم ذلك التجسيم، حيث لا يخلو منه زمان أو مكان.

(ومن حولها) هم ذوي العقول من الملائكة والانبياء، بما فيهم موسى ع.

ثانيا:(وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)، فان الذات المقدسة منزهة من كل ما لا يليق من الصفات. ويعجز فكر الانسان المادي عن معرفة حقيقة ذات رب العالمين.

ثالثا:(يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)، فان النار خلقها الله سبحانه ليأنس عبده موسى في تلقي الوحي، وبعد هذا التمهيد خاطبه سبحانه بالوحي المباشر، وبذلك اختص بكونه كليم الله، وان خلق النار ليس بأعظم من خلق السماوات والارض، لانه سبحانه هو العزيز في ذاته والحكيم في مخلوقاته.

وعن المعجزات الخاصة لموسى قال سبحانه:

المعجزة الاولى:

(وَأَلْقِ عَصَاكَ)، وقد تحولت إلى ما يشبه الحية في الصفات المادية.

(كَأَنَّهَا جَانٌّ)، والجان: صفة للحية لخفائها عن الانظار عادة.

وعن ردة فعل موسى قال:

(وَلَّى مُدْبِراً)، والتولى بالادبار: الرجوع إلى الخلف.

(وَلَمْ يُعَقِّبْ) بالمجيئ مرة اخرى، بل استمر في الفرار من دون رجوع على عقبية.

والى الوحي الالهي بما يخص المعجزة أشار بقوله:

(يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ)، فان هذه المعجزة الاولى كانت أمرا غير طبيعي، وموسى باعتباره بشرا يواجه الوحي لاول مرة كان رد الفعل منه طبيعية بالخوف، وقد زال ذلك بالاطمينان بأنه مستند إلى الوحي الالهي.

(إِلَّا مَنْ ظَلَمَ)، والسياق يقتضي ان الاستثناء متصل، وان الظلم هو سبب للخوف من أي مصدر كان، سواء من المرسلين أم غيرهم، وان كان المرسلون لا يصدر منهم ذلك، لرؤيتهم الواضحة في الحياة.

وقيل ان الاستثناء منقطع، وأنه بمعنى (لكن) جوابا. وهو مناف للسياق.

ثم عقب ذلك بان الظالم اذا تاب يشمله المغفرة بقوله:

(إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحيم)، فان الحسنات يذهبن السيئآت. قال سبحانه: (ومن يعمل سوء أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما) (النساء: ١١).

المعجزة الثانية:

(وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ)، والجيب : المقطع، وهو في المقام مقطع القميص من الصدر. والسوء: المرض العارض. والبياض – كما يقتضيه السياق –: التلألؤ نورا.

وهذا أمر غير طبيعي أيضا ، ولايمكن أن يستند الا إلى الاعجاز الالهي.

سائر المعجزات:

(فِي تِسْعِ آيَاتٍ)، وقد تقدم في سورة الاسراء قوله تعالى: (ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات) (الاسراء:١٠١) ولم تحدد بالتسلسل، وقد تكون:

٣-٧: ما أشار الله سبحانه بقوله: (فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات) (الاعراف:١٣٣).

٨-٩: ما أشار الله سبحانه بقوله: (ولقد ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون) (الاعراف:١٣).

فان هذه الآيات كلها توجهت (إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ). والفسق: المعصية، فانهم جميعا اشتركوا في استخدام سياسية الاستعباد للمظلومين في سبيل حكمهم.

وعن موقف المنكرين للوحي المبين قال:

(فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً)، على صيغة اسم الفاعل بمعنى المفعول، كقولك:"ماء دافق"، أي مدفوق، فان هذه الآيات لقوم فرعون كانت واضحة بعد تمامية الحجة، وكانها كانت تُبصر من شدة وضوحها.

(قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ)، فلم يؤمنوا بها بعد تمامية الحجة عليهم.

(وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ)، لوضوح هذه الآيات بأنها ليست داخلة تحت المقاييس المادية.

وعن السبب في هذا الجحود أشار إلى امرين:

الاول:(ظُلْماً)، وهو الانحراف عن العدل في الموقف، لعدم اعتياد قلوبهم لتقبل الحقيقة بعد تمامية الحجة.

الثاني: (وَعُلُوّاً)، وهو الاستكبار عن الرضوخ للوازم هذه الحقيقة، من تحرير العبيد والمستضعفين من بني اسرائيل.

(فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ) من آل فرعون، فان مصيرهم هي عبرة لغيرهم ممن يسلك سبيل الفساد في الحياة.

رسالة داود:

قال سبحانه:(وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْماً وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ) .(النمل: ١٥).

يتضمن هذا المقطع اشارة عابرة إلى النبي داود، من دون أي تفصيل عن رسالته، مع بعض التفصيل عن إبنه النبي سليمان. (راجع شجرة الانبياء ، في سورة الانعام، الآيات: ٨٤-٨٧)، وذلك لاتحادهما في تطبيق الحكم الالهي على الارض.

أما الوالد داود فبالرغم من صغر سنه فقد قضى على حكم الطغيان بقتله جالوت الطاغية، حيث قال سبحانه: (وقتل داود جالوت) (البقرة:٢٠١).

(راجع المادة في قصص الانبياء)، وبذلك طبق الحكم الالهي على الارض بالعلم الذي فضله الله به.

واما ابنه سليمان فيشير إلى تفصيل حكمه في هذا المقطع الذي يستند ايضا إلى العلم الذي فضله الله تعالى به، وقد أشار إلى معجزتين اختص بهما النبي سليمان، وهما: علمه بمنطق الطير والجنود المسخرة له من الجن والانس.

وقد استخدم كل ما لديه من وسيلة حكمية في بسط الحكم الالهي على الارض، رافضا أي بديل مادي، سوى الايمان الله.

فقال سبحانه عن الصفات المشتركة بين الوالد والولد، وهي العلم والحمد لله بالفضل من الله والوراثة للملك.

قال سبحانه:

أوّلاً: العلم (وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْماً)، فان العلم هو الاساس لكل حركة ايمانية في رسالات الانبياء، حيث يتحركون برؤية واضحة للمبادئ والوسائل والاهداف.

ثانيا: الحمد (وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ)، فان الرؤية بان هذه نعمة الهية يسنوجب الحمد له في كل الحالات.

ثالثا: فضل الله (الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ) بحمل الرسالة بالوحي، فان ذلك بارادة الله تعالى في تحميل هذه المسؤولية لمن يختاره من عباده المؤمنين.

رابعا: الحكم (وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ)، والوراثة للملك والحكم.

وغريب ما ذهب اليه بعض المفسرين من ان المراد الوراثة للنبوة والملك، فان النبوة ليست وراثية، وانما هي افضال من الله سبحانه لبعض عباده، وليست للوراثة فيه أي مجال، دون الملك فانه امر يخضع لعوامل شخصية واجتماعية، أهمها العقد الاجتماعي بين الحاكم والامة، وذلك مما يمكن ان تتحقق فيه الوراثة. والله العالم.

رسالة سليمان:

قال سبحانه:(وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ○ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ) .(النمل: ١٦-١٧).

أعلن النبي سليمان دعوته إلى الرسالة الالهية لكافة الناس من دون استثناء قومي أو جغرافي. والغريب ان مع هذه الصراحة في الدعوة العامة لم يذكره الاعلام في الانبياء أولي العزم .

وفي هذا المقطع أشار إلى معجزتين للنبي سليمان خاصة به دون غيره من الانبياء، وهما:

أوّلاً: العلم بمنطق الطير:(وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ)، وهذا علم مصدره الوحي، وهو فوق المحسوس من معرفة الاصوات والحركات والدلالات المحسوسة لكل من يعيش في عالم الطيور والحيوانات.

(وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ) من الله علما ومعجزة وقوة.

(إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ) الذي يخص الله بعض عباده بذلك.

ثانيا: جنود الله (وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ)، فان للملوك جنود الانس فقط، والحشر: الجمع، حيث جمع الله لسليمان الجنود من كل المخلوقات الثلاث: الجن والانس والطير من دون استثناء، وقد أشار إلى تفصيل المعجزة الاولى بقوله:

مع النمل:

قال سبحانه:(حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ○ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ) .(النمل: ١٨-١٩).

والنمل: حشرة أرضية لها نظام دقيق في تكوين قراها تحت الارض، ونظم أمرها، وترأسها ملكة تنجب وغيرها يأتمر بامرها، ولها قوة خارقة في حاسة الشم، وهي التي تميزها عن غيرها من الحيوانات، على اختلاف انواعها والوانها، ومنها ذوات أجنحة.

وكان الملك سليمان يعلم منطق الطير عامة، ومنه النمل، أو ربما كان الحديث عن النمل الطائر منذرة لبني جنسها. والحديث هذا ليس من معرفة حقائق الحيوان الطبيعية في شيء، فانه ليس من طبيعية النمل معرفة غيرها من الحيوانات بأصنافها وانواعها، فكيف بالانسان والملك والجنود، وانهم يقومون باعمال مقصودة كالحرب واعمال غير مقصودة كتحطيم النمل؟!!

قال سبحانه:

(حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ)، والتنكير في النمل يدل على وحدتها، ومعرفة نظام مملكة النمل يقتضي ان تكون هي ملكة النمل التي تأتمر غيرها من النمل بأمرها، كما هو معروف عن طبيعة النمل. وهذا الاعلان من النملة تضمن ثلاث نقاط:

أوّلاً:(يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ)أ وهذا الامر قيادي، وفي مملكة النمل لا يصدر الا من الملكة نفسها.

ثانيا:(لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ)، تعليل لحكمة هذا الامر القيادي.

ثالثا:(وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)، اشارة الى طبيعة الانسان، من الملك والقاعدة، وهي عدم الشعور بالنسبة إلى الغير من الموجودات بما فيها النمل.

وعن رد فعل سليمان قال:

(فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِنْ قَوْلِهَا)، لعلمه بمنطق الحيوانات بالوحي من الله. وهذا ما لم تعلمه النملة. والسياق يقتضي ان معرفة سليمان ذلك كان بالمباشرة بواسطة الريح، قال سبحانه:(فسخرنا له الريح تجري بأمره).(سورة ص:٣٦) بالرغم من تحصن النمل في مساكنها ووديانها.

(وَقَالَ) سليمان معلقا على كلام النملة، داعيا بدعاء يتضمن النقاط التالية:

أوّلاً:(رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ)، والايزاع: الالهام، والنعمة: هي نعمة العلم والمعرفة عامة، ومنها علم منطق الطير والحيوان، وفي ذلك رؤية واضحة للامور والحقائق.

ثانيا: (الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ)، فقد انعم الله عليه وعلى والده النبوة والنعمة ، وعلى والدته اختيارها لتكون زوجة لنبي الله داود، وهذه نعمة خاصة لا يستحقها كل انسان.

ثالثا: (وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ)، فان القدرة على العمل الصالح نعمة اخرى تضاف على نعمة الرؤية الواضحة والاصطفاء.

رابعا: (وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ)، وهذا أمر يكون بيد الله سبحانه، اذ لا يتحقق أي عمل صالح الا بعد قبوله تعالى ذلك.

وهذا النقاط تستوجب الشكر حتى يكون العمل صالحا ويكون الانسان من العباد الصالحين، سواء كان في القيادة والقمة أو في القاعدة، والامة لا تصلح الا بعد صلاح أعضائها في كل طبقاتها من القاعدة إلى القمة.

مع الطير:

قال سبحانه:(وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ○لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً أو لَأَذْبَحَنَّهُ أو لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ○ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ○ إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ○ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ○ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ○اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ) (قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ

○اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهِ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ) .(النمل: ٢٠-٢٨).

كان على النبي سليمان بحكم كونه ملكا يطبق حكم الله في الارض، تفقد امور مملكته، ومنها: الطير، وهو كل ما يطير بجناحين في الهواء . ويظهر من السياق ان فيها تسلسلا في تطبيق الاوامر بتمثيل كل طبقة منها فردا مسؤولا عنها، وكان منها: الهدهد، وهو طائر ذو الوان كثيرة ، وترنيمه قرقرة كبيرة، وله باصرة قوية حتى قيل انه يرى الماء تحت طبقات الارض .

وفي هذا المقطع لمحة عن دور هذا الطائر في مسؤوليته عن اخبار مملكة سليمان، وموقف سليمان في السؤال من الاخبار والتحقق منها قبل اتخاذ أي قرار بشأنها.

قال سبحانه:

(وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ)، فان سليمان بحكم كونه قائدا الهيا عليه مسؤولية التفقد لرعاياه.

(فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ)، كما هو المتوقع منه الحضور مع الحاضرين.

(أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ)؟ وتكاد تتفق كلمة المفسرين على ان (أم) هنا منقطعة، وهي بمعنى (بل)، والسياق يأباه، فان ذلك يستلزم التكرار من دون موجب. والظاهر انها على سبيل الاستفهام التقريري، بمعنى:"هل كان غائباً"، للدور المسؤول المتوقع منه . وان كان هذا الدور لم يصدر الامر اليه بعينه، ولكنه المتوقع من مثله في دور المسؤولية.

ثم أشار إلى العدل الالهي في محاسبة المسؤولين بقوله:

أوّلاً:(لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً) اذا كان التغيّب مستندا إلى اهمال المسؤولية عن عجز.

ثانيا: (اوْ لَأَذْبَحَنَّهُ) اذا كان التغيّب اهمالا للمسؤولية عن علم وعمد، فانه يستحق حينئذ الاعدام.

ثالثا:(أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ) والسلطان: الحجة الواضحة، على سبب عدم الحضور كما هو المطلوب منه.

فان هذه العقوبات العادلة انما تتحقق بتحقق أسبابها المذكورة على اختلاف مراتبها .

وعن موقف الهدهد أشار بقوله:

أوّلاً:(فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ)، والمكث: التوقف في زمان غير بعيد عن زمن الغيبة.

ثانيا: (فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ)، فان سليمان على علمه ومعرفته لم يكن عالما بكل شيء، ومن اجل ذلك افتقر إلى جنود من الانس والجن والطير، وقد قام الهدهد في سبيل ذلك بالدور المطلوب منه، ليس تجاهلا ولا عصيانا، بل عملا بالمسؤولية.

ثالثا: (وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ)، وسبأ: هو سبأ بن يعرب بن قحطان، وتطلق على نسله المنتشر في اليمن وفي مختلف البلاد العربية.

وهذا الذي جاء به الهدهد يتصف بامرين:

الاول: (النبأ)، وهو الخبر الهام.

الثاني: (يقين)، فان الاخبار الهامة اذا لم تكن يقينية، فانها لا تستحق الاهتمام بها. وربما من أجل التيقن عاد الهدهد للاستطلاع بنفسه بالرغم مما انعم الله به على جنس الهدهد من حدة البصر.

وقد تضمن التقرير عن سبأ النقاط الثلاث:

الاولى: (إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ)، وهي بلقيس بنت شرحبيل بن مالك بن ريان، وضمير الجمع باعتبار القوم.

(وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ) يفتقر اليه الحكم المادي من العدة والعدد في القيادة والقاعدة.

(وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ)، والعرش: كناية عن مركز السلطة التي منها تصدر الاحكام الملوكية للتنفيذ، والعظمة وصف مادي للعرش.

وقد زرت موقع العرش في مأرب – اليمن، وشاهدت أعمدة ستة، خمسة منها مرتفعة في السماء طولا خارقا، ربما تبلغ الخمسين ذراعا، وعمود آخر ساقط على الارض، قيل انه أصيب في الحرب المصرية اليمنية، وقد اشرت إلى ذلك في رحلتي إلى اليمن بعنوان :"اسبوعان في اليمن"، فراجع . وكذلك راجع المادة في المعجم. فان هذه الاعمدة في نفسها تشهد على العظمة المادية للعرش ، وقد توسعت فيها الروايات. والله اعلم.

الثانية:(وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ)، فان الانحراف في هذا الحكم عن العدل الالهي ليس في نظام الحكم القائم على العدل والشورى، كما سيأتي. بل في الانحراف في العقيدة بالعبادة والخضوع للشمس من دون الله.

(وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ) بالشرك في العبادة.

(فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ) الذي هو العدل في العبادة، وهو التوحيد في العبادة لله تعالى.

(فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ) لمعرفة الحق ومن يستحق العبادة وتمييز الخالق ممن لا يستحق العبادة من المخلوقات مهما كانت عظيمة في نفسها كالشمس وسائر الكواكب في السماوات وغيرها من المخلوقات .

الثالثة: (أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ)، وكلمة (ألا) مركبة من (ان) المصدرية و(لا) النافية. والجملة مفعول لقوله:(فصدهم)، فان الشرك من عمل الشيطان للصد عن سبيل العبادة الذي لا يستحقها سوى الله سبحانه.

وقد أشار إلى صفات الذات المقدسة المستوجبة للعبادة بقوله:

أوّلاً: (الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ)، وهو الشيء المستور، فان الموجودات كلها تنتهي إلى علل مجهولة للانسان بتفاصيلها الا لمن يدرسها، ولا يمكن لأيّ دارس ان يصل إلى كنه حقيقتها في الحياة مهما أوتي من العلم، فلابد وان يعترف بالعجز في مرحلة من مراحل التفكير البشري المادي.

(فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)، فان مخلوقات الله سبحانه ليس لها حد وحصر فيها.

ثانيا:(وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ) من غير الماديات، من النيات سواء المعلنة عنها أو غير المعلنة.

ثالثا:(اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ)، فان مظاهر قدرة الله تعالى تعم الماديات وغيرها، لوسعتها للسماوات والارضين وما في النيات.

وعن موقف النبي سليمان من الهدهد أشار بقوله:

(قَالَ سَنَنْظُرُ) في التقرير المرفوع للتحقيق فيه حتى نعلم الحقيقة.

(أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ)، فان من افضل الطرف لمعرفة حقيقة هذه الدعوى ان يكلف المدعي باثبات ما يدعيه، ومن هنا فقد أمر سليمان بما يأتي:

(اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهِ إِلَيْهِمْ). ومحتوى الكتاب كما يعلم من السياق الدعوة إلى التوحيد لكافة القوم من القاعدة إلى القمة.

(ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ) بان تتركهم وشأنهم ليتخذوا القرار من جانبهم باختيارهم.

(فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ) في جواب الدعوة إلى التوحيد. وعلى اساس هذا الجواب يكون موقف سليمان حسب ما يقتضيه الحكم الالهي.

وقد تجلى في هذا الموقف أعلى مظاهر العدل في الحكم من تشريع قانون العقوبات العادلة وحصانة المتهم حتى يمكنه الدفاع عن نفسه بالسلطان والحجة الواضحة. ولم يبت في القرار حتى يقوم الرسول بما تحمل من مسؤولية رسالية، فان بها تظهر حقيقة الموقف.

وكان هذا التقرير المرفوع من جانب الهدهد عرضا سريعا، لما دار في موقعه المسؤول، ودفع عنه عقوبة العذاب والاعدام، لانه أتي بالحجة.

وحيث ان هذه الحجة ليست واضحة لغيره، بل هي مدعاة من قبل الهدهد فقط، يجب حينئذ التحقق حتى تثبت الحجة المدعاة.

الموقف من الدعوة:

قال سبحانه:(قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ○ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ○ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ○ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْراً حَتَّى تَشْهَدُونِ○ قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ○ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ○ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ○ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ○ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ) .(النمل: ٢٩-٣٧).

ويتضمن هذا المقطع دعوة سليمان لحكومة بلقيس إلى الايمان بالله أو الاستسلام، ومن جانب آخر ردة الفعل من جانب بلقيس ووزرائها بالقيام باختبار سليمان بهدية مادية، وموقف سليمان من ذلك.

ومن ذلك يتجلى اصول الدعوة التي وجهها سليمان وحكمة بلقيس في اتخاذ القرار المناسب من وجهه نظرها المادي بما هو موجب لتلاحم القيادة والقاعدة على اساس الشورى في الحكم، والقرار الاخير الذي اعلنته بعد الشورى ونفذته من دون معارضة.

قال سبحانه عن بلقيس:

(قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ)، والملأ: الجماعة التي تملأ العيون بالنظر اليها، وهم الطبقة من الوزراء ومن بيده مقاليد الامور، والشعب عامة، مما يكشف عن حكم شعبي قد تلاحمت فيه القيادة والقاعدة، وان كان للطبقة الحاكمة النصيب الأوفى في التمثيل الاداري.

(إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ)، وقد وصفت بلقيس باعتبارها الرئيسة في القيادة ، كتاب سليمان بأنه كتاب كريم، باعتبار محتواه، حيث ليس فيه اعلان الحرب، بل دعوة إلى الايمان من جانب ودعوة إلى الحضور والاستسلام من جانب آخر، من دون أية اشارة إلى اعلان الحرب في هذه المرحلة من الدعوة. ودعوة كهذه دعوة كريمة، حيث انها تدعوا إلى حل اسباب الخلاف بالطرق السلمية.

ثم أشار إلى محتوى الكتاب بالنقاط التالية:

أوّلاً:(إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ)، ولانه لم يتلقب فيه بالألقاب الاعتبارية المرسومة كالسلطان والرئيس والحاكم وما شابه، فهو كتاب منه بصفته الشخصية وليس بصفته الرسمية.

ثانيا: (وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)، فان مضمون الدعوة ترتكز على محور التوحيد، باسم الله، وليس باسم غيره من مظاهر قدرته العليا سواء الشمس التي تعبدها بلقيس وقومها أو غيرها، بل فيها الصفات الذاتية وأهمها صفة الرحمانية الشاملة لكافة المخلوقات، والرحيمية الخاصة بالمؤمنين .

رابعا: (أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ) والعلو: الطغيان، سواء في العقيدة كعبادة الشمس التي كان عليها القوم، أو في الحكم من العادات الجاهلية.

خامسا: (وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ)، فان المجيء إلى سليمان هو استسلام للمبادئ التي يدعوا اليها، ومنها المفاوضات السلمية من دون استخدام السلاح.

وعن موقف بلقيس تجاه الدعوة السلمية قال سبحانه:

(قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي)، فوجهت الدعوة في اتخاذ القرار المناسب الي كل من يهمه الأمر من شعبها في خطاب عام، مما يكشف بوضوح عن بعد نظرها السياسي، بان القرار القيادي الذي لا يسانده الاغلبية من القاعدة يكون قرار فاشلا، وقد اكدت هذا القرار بقولها:

(مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْراً حَتَّى تَشْهَدُونِ)، فقد اخذت بلقيس على نفسها قرارا اساسيا في حكمها، بان تستند فيها إلى الشهود، أي الحضور لعامة الشعب والاستماع إلى مختلف الآراء.

وكان رد فعل الشعب: التركيز على نقاط ثلاث تفتقر اليها أي حكم مظفر، وهي:

أوّلاً: المساندة الفكرية (قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ) في التفكير للانتصار فكريا.

ثانيا: الكفاءة العسكرية: (وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ) من القوة العسكرية للانتصار في ساحات القتال.

ثالثا: القرار القيادي الأخير (وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ) باعتبار ان مهمة القيادة هو اتخاذ القرار المناسب بعد دراسة كل الجوانب المرتبطة بالموضوع.

(فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ) حسب متطلبات الظروف والاحوال المدروسة نظريا، فيكون الامر القيادي امرا نافذا، لانه قائم على اساس الشورى كما هو المفروض في أي حكم عادل.

وقد اعلنت بلقيس باعتبارها في قمة المسؤولية عن قرارها بأمرين :

الاول – طبيعة الحروب:

(قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً)، وهي المجتمع الانساني الآهل بالمواطنيين ، وبقرينة السياق تعني الدخول في الحرب عنوة.

(أَفْسَدُوهَا)، لان طبيعة الحرب الفساد، وليس في التاريخ حرب من دون سفك دماء بريئة واراقتها من دون علم وعمد، هذا اضافة إلى ما يكون للدخول في الحرب من تاثير على الحياة الاجتماعية العامة في كل مظاهرها، وقد خصت منها بقولها:

(وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ) في كل صور ونماذج الجيوش الفاتحة، سواء دخلت اثر حرب معلنة أو بدون حرب، فان في اعلى قائمة اهداف الحروب اذلال الطبقة الحاكمة إما بالاعدام أو السجن أو الهروب إلى الملاجي. والتاريخ على ذلك شاهد. ويستتبع ذلك فرض نظام جديد لا يخلو من فساد حتى يستقر من جديد الحكم العادل .

الثاني – اختبار سليمان:

(وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ)، وهذه الهدية كما يقتضيه السياق هدية مادية على عادة الملوك الذين يقوم حكمهم على المادة والماديات .

(فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ)، فان رد فعل سليمان على اثر هذه الهدية المادية يكشف عن شخصيته الروحية والسياسية بوضوح، وبعد معرفة نفسية سليمان يمكن اتخاذ القرار المناسب من قبل بلقيس.

وطبيعي ان يقع هذا القرار موقع القبول ممن يهتم بالامر في المجتمع، فكان كما ارادت بلقيس .

وعن موقف سليمان قال سبحانه:

(فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ)، والفاعل هو رسول بلقيس الذي جاء سليمان وهو مفهوم من السياق.

(قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ)؟ وهذا الجواب الاستنكاري من سليمان بان الهدية المادية لاقيمة لها في الدعوة الايمانية، وقد علل ذلك بقوله:

أوّلاً: (فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ)، فان الرؤية الواضحة النابعة من الايمان افضل من المادة والماديات التي هي في طريقها إلى الزوال عاجلا ام آجلا.

ثالثا: (بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ)، لان الحكومات القائمة على المادة والماديات تهتم بالجانب المادي فقط وتفرح بها، دون الحكومات القائمة على مبادئ العدالة في الحكم.

ثم اعلن سليمان عن موقفه الواضح مخاطبا الرسول بقوله:

(ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا)، والقِبَل – بالحركة –: الطاقة. وفي هذا الاعلان بيان لفشل الاختبار بالمادة والماديات في الاغراء، وان الدعوة إلى الايمان ليس مساومة.

وعن نتيجة الحرب العقائدية أشار سليمان بقوله:

(وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ)، كما هي طبيعة الحرب العقائدية التي لا ترضخ للعوامل المادية ، فان الحرب المكونة من جنود كثيرة المندفعة بالروح العقائدية لابد وان يكتب لها النجاح.

وقد اعلن سليمان باعتباره قائد الحركة الايمانية عن موقفة الصريح في سياسية مفتوحة كما هو الشأن في كل الدعوات الايمانية التي قادها الانبياء والمرسلون من دون أي التواء أو مراوغة أو مماطلة.

المعجزة الالهية:

قال سبحانه:(قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ○قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ○قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرّاً عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ).(النمل:٣٧-٤٠).

يشير هذا المقطع إلى ان الطريق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق، وان القدرة الالهية فوق كل قدرة، وتتجلى هذه المعجزة الالهية في قرار اتخذه سليمان تمهيدا للقاء بلقيس.

وعن مضمون القرار قال سبحانه عن سليمان:

(قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ)؟، والعرش: المجلس المختص بالحاكم. والاسلام هنا التسليم. ويظهر من السياق ان القرار من جانب بلقيس كان بالاستسلام حضورا، تجنبا للحرب، وان القرار من سليمان كان الاثبات عند اللقاء على قدرة الله العليا، وليس اكثر اثباتا من ان يجلب اليها ما يختص بها وهو عرشها من دار ملكها.

وقد أعلن سليمان هذا القرار لاصحابه، وهذا الاعلان في نفسه يدل على وجود نظام الشورى في حكمه. ومن الاجابات المتعددة يظهر أنه اختار الافضل، وقد أشير هنا إلى جوابين بقوله:

أوّلاً: (قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ)، والعفريت: الداهية في القدرة والتنفيذ.

(أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ)، وهذا أقل فترة زمينة متصورة في نقل عرش من مكانه (اليمن) إلى بيت المقدس ظاهرا، ومهما كانت فترة الجلوس، فان احضاره في هذه الفترة يفتقر إلى سرعة فائقة في التنفيذ ودهاء خارق في النقل.

(وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ)، فان القوة نظريا في استخدام الوسائل المتيسرة لهذا العفريت وامانته في اداء ما وعد من الإتيان بالعرش في نفس المجلس.

ثانيا: (قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ). قيل هو آصف بن برخيا الذي كان يعلم الاسم الاعظم. والاوفق أنه من الملائكة الموكلين بما لا يتمكن عليه البشر بما فيهم النبي سليمان نفسه.

(أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ)، وهذه القدرة الفائقة لا تكون الا بمعجزة خارقة عن العادة البشرية، ولم ينتظر هذا القائل الجواب بل نفذ ما طلبه سليمان من قبل فورا.

(فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرّاً عِنْدَهُ) من دون طلب جديد بل اعتمادا على طلبه الاول بقوله:(ايكم يأتيني بعرشها ؟). وبذلك تحقق لسليمان ما اراد ، فأعلن ما يقتضيه هذه المعجزة بقوله:

(قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي) وليس من المتيسر بالطرق العادية الا في فترة زمينة طويلة.

والى الحكمة في هذه المعجزة أشار بقوله:

(لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ)، والبلاء: الامتحان. والكفر هنا: كفران النعمة بهذه المعجزة الالهية .

(وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ)، فان نتيجة الشكر تعود اليه من زيادة النعمة قال سبحانه : (لئن شكرتم لازيدنكم) (ابراهيم:٧).

(وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ)، والكفران للنعمة: عدم الشكر على هذه المعجزة الالهية، فانه يتعقب الخسران، للزيادة من جانب من يكفر بالنعمة من دون أي اثر في واهبها، لانه غني عنها وكريم بها.

مع بلقيس:

قال سبحانه:(قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ○فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ○ وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ ○قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) .(النمل: ٤١-٤٤).

ومهد سليمان للقاء بلقيس ما يستوجب اختبار استقلالها في التفكير، فأمر أن يغير عرشها نوعا ما، فان التغيير الظاهري لا يغير من واقع العرش شيئا أساسيا، وهذا التغيير لا ينطلي على من يستقل في تكفيره في تقييم الاشياء استنادا على الفكر الحر.

وقد استند سليمان في لقائه إلى أمرين يستدعيان إلى التوحيد، هما:

الامر الاول: ان الحقائق لا تتغير بتغير الظواهر، ومن هنا (قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا)، والتنكير: التغيير في الظاهر من دون تقويض للأساس، فان حقيقة العرش لا يتغير بتغيير ظاهره من حيث الظاهر كاللون مثلا .

والى السبب في هذا التغيير أشار بقوله:

(نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ)، والسياق يقتضي ان المراد بالهداية معرفة الحق تعالى، وان معرفة العرش ليست الا وسيلة للإشارة إلى أن الحقائق لا تتغير قط، وان الله سبحانه هو الحقيق بالعبادة. وتغيير ذلك بالعادات الجاهلية لا يغير من واقع الحقيقة شيئا.

(فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ)؟ وهذا الاستفهام التقريري يثبت ان حقيقة العرش لم تتغير بالتغيير الظاهري.

(قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ)، وهذا الجواب اقرار بان الحقيقة لا تتغير مهما اختلف الظاهر، وفي هذا الاقرار الزام بالتوحيد بانه لا يستحق العبادة سوى خالق السماوات والارض بما فيها الشمس، وان تغيير عبدة الشمس هذه الحقيقة لا يغير من واقع الحال شيئا، فان من يستحق العبادة هو الله سبحانه وحده لاشريك له.

ثم اكد سليمان على هذه الحقيقة بقوله:

(وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ)، فان العلم بالحقيقة هو الذي اوجب التسليم لرب العالمين وحده لا شريك، والقول بان متعلق العلم هو العرش ينافي ما في ذيله من قوله:(وكنا مسلمين).

الامر الثاني: ان التقليد الاعمى هو المانع من التوحيد (وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ)، وتقليدا لقومها اخذت عبادة الشمس عادة، واصبحت هذه العادة متأصلة حتى صدتها من عبادة الله تعالى وحده لا شريك له.

وحيث ان التقليد الاعمى يستند إلى المحوسوسات من دون تدبر لما يقتضيه العقل والفكر، أشار سليمان إلى ما يزيل هذه الشبهة، وانه لا يصح الاعتماد على المحسوسات فقط، بل لابد من الفكر الحر، قال سبحانه:

(قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ)، وهو القصر، ويظهر من السياق انه كان من الزجاج.

(فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً)، واللجة: معظم الماء، لان الزجاج المتراكم يعكس النور فتظهر كانها تتموج كأمواج المياه.

(وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا)، لئلا تبتل ثيابها بالماء كما حسبت، وهنا نبهها سليمان على خطأ الحاسة الباصرة في تقييم الاشياء .

(قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ)، والمرد : الملس، والقارورة: الزجاج، فان الذي تبصرينها ليس ماء، بل زجاجا ملسا.

وقد ظهر لبلقيس بهذين الامرين انه لا يستحق العبادة سوى الله سبحانه وتعالى، وان هذه الحقيقة لا تتغير بجهل من جهل، لأي سبب كان الجهل، كما هو الحال بالنسبة إلى المشركين في عبادة الالهة المادية جهلا أو تجاهلا، كما ظهر في نفس الوقت ان المحسوسات لا يمكن ان تمثل الحقائق مهما كانت واضحة في الحس، لان الحاسة المادية لا يمكن ان تحدد ما ليس بمحسوس، كما هو الحال في القوارير التي كانت من الزجاج وحسبتها بلقيس أنها ماء.

وبعد ظهور هذين الامرين لم يكن بدّ لبلقيس سوى اعلان إيمانها.

(قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي) بعبادة الشمس تقليدا أعمى للعادات أوّلاً، وباستخدام المقاييس المادية الخاصة لمعرفة بما ليس بمحسوس ثانيا، فان في الحالين الظلم يعود على النفس، لان الله اكرم الانسان بالعقل ليستخدمه في التفكير الحر المجرد عن العادات والتقاليد.

(وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)، فكان التسليم لله تعالى نتيجة طبيعية لهذا الاستدلال من سليمان.

ونحن نجد من هذه المواقف من الجانبين دروسا وعبرا في الدعوة إلى الله سبحانه في مراحل عملية تستوجب الايمان، ولولا الامرين الأخيرين من سليمان، وهما بيان ان الحقائق لا تتغير أوّلاً، ثم ان المقياس المادي الحر لا يكون ذليلا للفكر الحر ثانيا، لما كان قد حصل تغيير في موقف بلقيس من الاعتراف بظلم النفس أوّلاً، ثم اعلان التسليم لله تعالى ثانيا .

وقد انتهت المحاورة الفكرية العملية بين سليمان وبلقيس كمقياس اساسي للمحاورة بين دعاة الايمان والكفر في كل عصر وزمان، فان العلم يدعوا إلى الايمان، كما ان الجهل يدعوا إلى الكفر، واذا واجه الانسان الحقيقة، فسوف يعلم ان الحقائق لا تتغير بسبب التغيير الظاهري الطارئ للأشياء مهما كانت المهارة في التغيير، لان الفكر الحر يرفض ذلك .كما ان المقياس لكل شيء يجب ان يكون بحسب ذاته، ولا يمكن ان يتخذ المقياس المادي مقياسا لشئ غير مادي، وكذلك العكس. فان الفكر الحر يرفض ذلك. والله العالم.

رسالة صالح:

قال سبحانه:(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ○ قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ○قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ○و َكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ○ قالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ○ وَمَكَرُوا مَكْراً وَمَكَرْنَا مَكْراً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ○ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ

أَجْمَعِينَ ○ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ○ وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ).(النمل:٤٥-٥٣).

لقد واجهت رسالة النبي صالح إلى ثمود المعارضة الماكرة ضد الدعوة إلى التوحيد، فكان جزاؤهم ما يستحقونه بظلمهم من الهلاك وجزاء المؤمنين المتقين النجاة، بما فيه عبرة لمن يعتبر بالتاريخ.

وتمتد منطقة ثمود جنوب الجزيرة العربية لتشمل اليوم جنوب جزيرة العرب بما فيها اليمن، ومدائن صالح لا تزال قائمة في شمال الجزيرة العربية على طريق تبوك، حيث استخدموا من الجبال بيوتا منحوتة.

قال سبحانه:

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً)، وكانت رسالته بعد النبي هود، من حيث الزمان ، ومقاربا لمنطقته جغرافيا.

(أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ)، فان التوحيد في العبادة هي الرسالة التي تجتمع كل الرسالات السماوية عليها.

(فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ)، فان الانقسام إلى فريقين امر طبيعي في كل دعوة، بين مؤيد ومعارض، ولكن الذي ميز هذين الفريقين الخصام الماكر. والمخاصمة: النزاع والجدال، والخصام الفكري أيضا أمر طبيعي في الخلاقات ولكن الخصام الماكر بالاغتيال هو ما مارسة الفريق المعارض بخطة محكمة لمعارضة رسالة النبي صالح الداعي إلى التوحيد.

قال سبحانه عن صالح :

(قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ)؟ وهذا الاستفهام الانكاري انكار لموقف المعارضة التي كانت تستخدم الوسائل الماكرة التي تستوجب السيئة، وهي العقاب في الدنيا والآخرة، فيكون استخدامها استعجالا للعذاب. مع ان الفطرة الانسانية تدعوا إلى استعجال الحسنة دون السيئة.

(لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ)، وهذا حض على الاستغفار لدفع العذاب، لان التلبس بالوسائل المستوجبة للعقاب تستوجب التوبة قبل حلول العذاب.

(لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) على استخدام الوسائل التي تستوجب العقاب بسبب التوبة والاستغفار.

وعن موقف المعارضة الكافرة أشار إلى امرين:

الاول : الدعاية الماكرة (قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ)، والطيرة: التشاؤم بالشر، فان اول ما تقوم به المعارضة الحاقدة هو الدعاية الكاذبة، وايسرها دعوى التشاؤم من الجانب الآخر، لفقره أو ضعفه وما شابه من الاوصاف، فان هذا التشاؤم في نفسه يدل على ضعف الرؤية ، ولذلك فنَّد النبي صالح هذه الدعوى بوصفها بالكاذبة.

(قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ)، فان ما يستحق التشاؤم منه هو ما انذر الله عليه من العقاب، فهو الطائر الحقيقي، وهو عند الله ثابت عقابا للمنكرين، وليست الطيرة المعتادة بين الناس، من نعيق الطائر مثلا مما لا يستند إلى اصل ثابت.

(بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ)، والفتنة: الامتحان، وهذا الموقف المعارض فتنة وامتحان للانسان المخير بين الطاعة والعصيان، والفتنة والامتحان يستوجبان التحصن بما

يحصل به الامان من عقاب الرحمن، وليس الا بالطاعة والوقاية عما يستوجب العقاب ولو احتمالا.

الثاني: التخطيط للاغتيال (وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ)، والرهط: الجماعة، وكانت هذه الجماعة من شأنها الفساد المحض من دون أي اصلاح، ومن فسادهم: التخطيط المتعمد لاغتيال صالح واهله .

وعن خطة الاغتيال أشار إلى ثلاثة نقاط:

أوّلاً:(قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ) بان يقسم بالله كل واحد من المتآمرين التسعة على تنفيذ الخطة .

ثانيا: (لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ)، والتبييت: الاغتيال ليلا عند النوم في البيوت آمنين، لكل فرد من افراد العائلة المكونة من صالح واهله.

ثالثا: (ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ)، فان الاغتيال ليلا من جماعة لا يستلزم مشاهدة كل واحد منهم الآخر، فيكون نفي المشاهدة لمهلك الضحية صادقا بالنسبة إلى المجموع من التسعة.

وبهذه النقاط الثلاث سوف تنجح عملية الاغتيال من دون توجيه الاتهام لأي شخص خاص.

وبالقضاء على القيادة تنتهي دور القاعدة الايمانية.

ويظهر من السياق ان هذه الخطة كانت في معرض النجاح لولا مقابلة الله سبحانه وتصديه لها . فقال سبحانه:

(وَمَكَرُوا مَكْراً وَمَكَرْنَا مَكْراً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)، والمكر: التخطيط المتعمد، فكانت خطة التسعة الاغتيال وكانت خطة الله سبحانه العقاب على التخطيط قبل تنفيذ خطة الاغتيال، فكان العقاب قاضيا على تنفيذ الخطة من اساسها.

والى مورد الاعتبار أشار بقوله:

(فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ)، فان تخطيطهم المتعمد بالقضاء على صالح جوبه بالعقاب الذي استحقوه.

(أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ)، فان العقاب انما هو للظلم، وقد اشترك المجتمع في ذلك اما بالتخطيط المعتمد أو باهمال المسؤولية.

(فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا)، والخواء: الخلأ من السكان بالرغم من حصانة البيوت المنحوتة في الجبل، كما ينبئ عن ذلك قيام تلك البيوت لحد الآن في المنطقة المعروفة بمدائن صالح في شمال الجزيرة العربية، قرب مدينة تبوك.

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)، بان لكل فعل رد فعل يساويه في المقدار ويعاكسه في الاتجاه، وقد يكون أقوى كما حصل في مدائن صالح. والظلم له آثاره المحسوسة في العباد والبلاد، سواء في الامم والجماعات او الافراد، والوقاية من هذه الآثار تستلزم العمل لدفعها قبل حلولها. وما اكثر العبر واقل الاعتبار .

(وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ)، فان الايمان يستلزم الوقاية من الاثار التي تتحقق بعد حصول اسبابها، ومن آثار الظلم: خراب الديار في الدنيا وفي الآخرة العذاب الاليم.

ومن يدرس تاريخ الظلم والظالمين يجد أنهم يسيرون نحو مصير واحد، هو الخسران في الدنيا مهما طال دور الظلم، والعقاب العادل يوم القيامة أشد وأخزى. والله العالم.

رسالة لوط:

قال سبحانه:(وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ○ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ○ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ○ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ ○ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ). (النمل:٥٤-٥٨).

ولوط هو أحد الأنبياء (راجع شجرة الانبياء ، في سورة الانعام، الآيات: ٨٤-٨٧) ورسالته الاستمرار على المبادئ والوسائل والاهداف المرسومة لرسالة الله، من اجل تطبيقها في الارض على اساس العدل، ومحاربة الانحراف عنها بما يتيسر.

ومن ذلك ما حصل في عصر النبي لوط من الانحراف عن الفطرة الانسانية في المحتمع، وفي مدينة سدوم الواقعة على البحر الميت في الاردن اليوم، فان الانغماس في الجنس من غير الطرق المشروعة انحراف عن الفطرة الانسانية التي تبتني على استمرار النوع البشري بالتناسل. وهذا الانحراف فاحشة بالغة الفساد، لانه ينتهي بالقضاء على استمرار النوع الانساني. وحيث شاعت هذه الفاحشة في عصر النبي لوط بعث الله لوطا لمحاربتها.

قال سبحانه:

(وَلُوطاً) أي اذكر لوطا في رسالته كما هو مفهوم من السياق.

(إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ) مستنكرا اعمالهم بالاستفهام الانكاري بقوله:

(أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ)؟، والفاحشة: الفساد البالغ، فان استمرار النوع البشري انما هو بالتناسل، وسلوك ما يناقض ذلك يؤدي إلى انقطاع النسل البشري تدريجيا، وهذا ينافي البصيرة في الامور من حيث ان البصيرة التي انعم الله للانسان تستنكر هذا الانحراف.

ثم اوضح هذا الفحشاء مؤكدا بقوله:

(ائِنَّكُم لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ)!! وهذا عمل غير طبيعي لا يتحقق في سائر الحيوانات، وهو انحراف عن الفطرة الانسانية.

(بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ)، والجهل من الصفات الملازمة للانحراف، سواء بالاسراف كما أشار اليه في سورة الاعراف بقوله: (بل انتم قوم مجرمون) (الاعراف:٨٤) أو العدوان كما أشار اليه في سورة الشعراء بقوله: (بل انتم قوم عادون) (الشعراء:١٦٦)، فان العدوان والاسراف والجهل أمور متلازمة مع الانحراف عن الفطرة الانسانية.

وعن موقف القوم الرافض للدعوة إلى الحق والاعتدال أشار بقوله:

(فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ)، وهكذا موقف العدوان دائما حيث تنقطع الحجة ولا يبقى عذر عند المخاصمة، وقد برر القوم هذا الحكم بالتسفير بقولهم:

(إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ)، وهذا من أعجب المبررات، حيث انهم اعترفوا بالطهارة في جانب النبي لوط، وبمعارضتهم له أقروا على أنفسهم أنهم يدعون إلى محاربة الطهارة،

وليس لها من بديل سوى النجاسة والقذارة، وباختيارهم ذلك عن علم وعمد بعد تمامية الحجة استحقوا العذاب كما استحق النبي والمؤمنون معه النجاة.

قال سبحانه:

(فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ)، والاستثناء حقيقي، فان امرأته وان كانت من الاهل عرفا ولكن بسبب عدم ايمانها وقع عليها الاستثناء من النجاة.

(قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ)، والغابر: الباقي الذي تعلوه الغبرة من التراب بسبب الهلاك، لمشاركتها مع المنحرفين في المبادئ والوسائل والاهداف .

(وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَراً)، والمطر: ما ينزل من السماء من الماء، وقد كان نزول العذاب حجارة من سجيل، قال سبحانه: (وامطرنا عليهم حجارة من سجيل)(الحجر:٧٤)، فان نزول ذلك من حيث الكثرة والشدة كان كالمطر، ولكن المطر النازل عذابا مطر يختلف عن سائر الامطار من حيث النوعية، فهو مطر من حيث الكثرة وليس مطرا من حيث المادة.

(فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ) على المبني للمفعول، حيث سبق الانذار عليهم بواسطة النبي لوط، واستحقوا العذاب باصرارهم على منكرهم عن علم وعمد وكان بئس العذاب.

رسالة التوحيد:

قال سبحانه:(قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آَللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ) .(النمل:٥٩).

ورسالة النبي مُحَمَّد(ص) بالدعوة إلى التوحيد في العقيدة استمرار على خط النبوة، والتي تلتقي في نقاط ثلاث :

قال سبحانه للرسول القائد اعلانها بقوله:

أوّلاً:(قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ)، فان سلسلة الانبياء جميعا تركز على حمده سبحانه، وليس حمد أحد سواه.

ثانيا:(وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى) من الانبياء والرسل (راجع شجرة الانبياء ، في سورة الانعام، الآيات: ٨٤-٨٧) ومن سار على خطاهم في الحياة من المؤمنين برسالتهم.

ثالثا:(آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ)؟ وهذا الاستفهام الانكاري اعلان لمحاربة الشرك بمختلف مظاهره، ومن ذلك الاصنام التي اتخذها المشركون آلهة لشبهات شيطانية كارثية تعارض الفطرة الانسانية.

ثم استعرض سبحانه خمس ايات تنفي الشرك وتدعوا إلى التوحيد على سبيل الاستفهام الانكاري، معقبا كل آية منها بقوله :(أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ)؟!، فان هذه الآيات الخمس تنفي الشرك، لانها لا يمكن ان يتصف بها سوى الذات الواجب الوجود المستغني عن الخلق اجمعين.

الآية الاولى - في السماء:

قال سبحانه:(أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ) .(النمل:٦٠).

قال سبحانه بالاستفهام التقريري للايات الافاق السماء:

(أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ)، فانه لا يمكن ان ينكر خلق السماوات والارض أحد، لوجودهما المحسوس الذي يفتقر في الوجود إلى علة ينتهي في سلسلة العلل والمعلولات إلى الله تعالى .

(وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً) بالمطر الذي يجلب الماء من منطقة إلى اخرى.

(فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ) في المنظر من مختلف الاشجار والازهار والزروع والثمار.

(مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا) من دون الوسائل الطبيعية التي خلقها الله ومنها ماء المطر الذي تجلبه السحاب.

وهذه الآيات الكونية في السماء تدل على قدرة الله العليا الغنية عن الشريك.

(أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ)؟! والاستفهام الانكاري هنا حقيقي.

(بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ)، والعدول: الميل عن الحق بالانحراف عن الفطرة الانسانية الداعية إلى التوحيد.

الآية الثانية - في الارض:

قال سبحانه:(أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَاراً وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَاراً وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) .(النمل:٦١).

قال سبحانه:(أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَاراً) يستقر فيها الانسان بسبب قانون الجاذبية الحاكمة فيها، والذي في وجوده الطبيعي يستند إلى علل متسلسلة تنتهي إلى علة العلل وهو الله سبحانه.

(وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَاراً) من الماء الذي به حياة كل شئ من النبات والحيوان والانسان .

(وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ) من الجبال التي تمنع الارض من ان تميد، بسبب وجودها النامي طبيعيا، للمحافظة على التوازن في حجم الارض الطبيعي.

(وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً)، والبحر: معظم الماء، والمياه في الارض على انواع منها ما هو عذب كمياه الانهار، ومنها ما هو مالح كمياه البحار والمحيطات, ويفصل بينهما الارض، فلا يختلط احدهما بالآخر، لوجود الحاجز الطبيعي بينهما بقدرة الله تعالى، فان هذه الاية الكونية تدل على قدرة عليا غنية عن الشريك.

(أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ)؟! والاستفهام الانكاري هنا حقيقي أيضا.

(بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) دلالة هذه الآيات على التوحيد وان كانوا يعلمون بوجود هذه الآيات في أنفسها.

الآية الثالثة - في الدعاء:

قال سبحانه:(أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ).(النمل:٦٢).

ففي حالات الاضطرار التي لا ملجأ فيها سوى إلى الله، تنقطع يد الانسان عن غير الدعاء، قال سبحانه:

(أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ) في حالات ثلاث:

أوّلاً: (إِذَا دَعَاهُ)، فان اجابة الدعاء في حالات الاضطرار القصوى لا يكون الا من الله، كما في الحالات المستعصية من المرض والبلاء.

ثانيا:(وَيَكْشِفُ السُّوءَ)، فان الانسان بفطرته الذاتية يتوجه إلى القدرة العليا التي تؤثر في حياة الانسان بالكشف والنجاة من السوء الذي يحيط بالانسان حيث تعجز أية قدرة مادية عن الانقاذ، وأشار الله سبحانه في سورة يونس الى ذلك بقوله: (هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ) (يونس:٢٢). فان الاخلاص في الدعاء لا يكون الا في مثل الحالات الاضطرارية، فيترتب عليه الاثر المطلوب من كشف الضر.

ثالثا: (وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ)، والخلافة: لتطبيق حكم الله سبحانه على الارض، بحكم الفطرة الانسانية، قال سبحانه:(واذ قال ربك للملائكة اني جاعل في الارض خليفة) (البقرة:٣٠)، فان وجود الانسان على الارض آية على موجده، وهو يتسلسل في العلل والمعلولات حتى ينتهى إلى القدرة العليا التي اوجدها لاول مرة، وهو بكل خلق عليم، فان هذه الاية الكونية المتسلسلة تدل على قدرة عليا غنية عن الشريك.

(أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ)؟! فالاستفهام الانكاري هنا حقيقي أيضا.

(قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ)، والالتفات من الغيبة كما هو السياق إلى الخطاب، للتأكيد على وضوح الانحراف عن الفطرة الانسانية برفض التوحيد والاعتقاد بعقيدة الشرك.

الآية الرابعة - في الهداية بالفطرة:

قال سبحانه:(أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ) .(النمل:٦٣).

فان الحياة الانسانية تسير بالهداية الطبيعية التي جعلها الله سبحانه في الحياة، وبدون الاهتداء بها لا يمكن الوقاية عن الاضرار التي تكون في الحياة، وهي متعددة.

قال سبحانه:

(أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ)، فان الكواكب والنجوم التي في الفضاء هي علامات للاهتداء، كالشمس والقمر وغيرهما ، وبدونها يختل نظام الحياة.

(وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ) على ما يقتضيه علم الانواء في معرفة الاحوال الجوية من المطر التي يستبشر بها الانسان للنمو والوقاية من أخطار العواصف، فان هذه الآيات الطبيعية تدل على قدرة عليا غنية عن الشريك.

(أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ)؟! فالاستفهام الانكاري هنا حقيقي ايضا.

(تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ)، فان هذه الآيات الكونية في الافاق والانفس تنزّه الله سبحانه عن الشريك.

الآية الخامسة – في المعاد:

قال سبحانه:(أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ○ قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ○ بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآَخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ).(النمل: ٦٤-٦٦).

يعتبر المعاد آية واضحة لمقابلة المنافقين المشركين، لان المعاد من المنطلق الفكري لا يختلف عن المبدأ، فان الخلق أوّلاً وإعادة الخلق ثانيا، أمران متساويان. فاذا كان الخلق محسوسا بالوجدانن فيكون اعادته بنفس المستوى من الامكان.

قال سبحانه:

(أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ)، فان الخلق بدءا ايجاد من العدم، كما أن الاعادة بنفس المستوى، وكل منها آية على قدرة عليا متسلسلة تنتهي إلى القدرة العليا، وهي الله سبحانه.

(وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ)، بواسطة المطر النازل من السماء والمؤثر في انبات النبات على الارض وما يعيش عليها من الحيوانات.

فان هذه الآيات الكونية تدل على قدرة عليا غنية عن الشريك.

(أَءِلَهٌ مَعَ اللَّهِ)؟! فالاستفهام الانكاري هنا حقيقي أيضا .

وختم هذه الآيات الخمس بحقائق ثلاث تلازمها بقوله:

أوّلاً: (قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)، فان التوحيد استند إلى الآيات الكونية الخمس، وكلها ترفض الشرك بمختلف مظاهره، فاذا ليس للشرك من برهان وحجة على الشرك، لانها تنافي القدرة المطلقة الحاكمة في الكون.

ثانيا:(قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ)، فان الاصنام وما تعبد من دون الله فاقدة للشعور، فكيف العلم بالغيب؟

(وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ)، فان موعد البعث امر لا يعلمه سوى الله تعالى.

ثالثا: (بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ)، والادراك: بمعنى التتابع، فان التدارك: تتابع الاجزاء بعضها لبعض، فان علم المشركين بالآخرة مر بمراحل، اولها كثرة الانذار منها على لسان الانبياء والمرسلين بالتتابع، ثم تتبعه المرحلة الثانية.

(بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا)، فان التتابع كانت له نتيجة عكسية، حيث لم يهتدوا بها، واصبحوا في شك منها، ثم تتبعه المرحلة الثالثة.

(بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ)، والعم: العمي، على إثر الشك حتى اصبحت عقولهم في عمي عن درك الحقائق.

وفي هذا اشارة إلى حقيقة طبيعية في الحياة، فان وضوح الشئ بالتتابع قد يعمي عن معرفة الحقيقة كالناظر إلى الشمس، وبالنتيجة قد يؤدي إلى العمي من النظر إلى الشمس، فكأنه لا يراها. والناظر إلى الآيات الكونية في الآفاق والأنفس المشار اليها اذا مرت عليه ولم يعتبر بها ، فقد يؤدي كثرة النظر اليها إلى أن يصبح شاكا، ثم قد يصبح كالاعمى الذي لا ينظر اليها ولا يعتبر بها. والله العالم.

شبهة الكافرين:

قال سبحانه:(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَئِذَا كُنَّا تُرَاباً وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ○ لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ○ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ○ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ○وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ○ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ○ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ○ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ○ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ) .(النمل: ٦٧-٥٧).

أشار سبحانه في هذا المقطع إلى شبهة الكفار في مسألة البعث والتي يشترك معهم المشركون في انكار المعاد مع ايمانهم بالمبدأ، بخلاف الكفار. والامر في المبدأ والمعاد واحد من وجهة النظر العقلي، فانها معا إيجاد من العدم، إما حدوثا أو إعادة، وقد استند الكفار في انكار البعث إلى امور ثلاثة:

الامر الاول: الاستهزاء (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا)، استهزاءً يالبعث على سبيل الاستفهام الانكاري: (أَئِذَا كُنَّا تُرَاباً وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ)؟، فان مصير الانسان بعد الموت هو التراب، كما هو الحال في الآباء الذين ماتوا من قبل، ومع هذا المصير المعلوم إلى العدم، لا يمكن لشئ – من منطق الكفر- الخروج إلى الحياة.

الامر الثاني: الاتهام (لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ) على لسان الانبياء والرسل على طول الخط المنتهي بالنبي مُحَمَّد ص .

(إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ)، و (ان) نافية، فان عقيدة البعث من منطق الكفر ليس الا خرافة واسطورة لا حقيقة لها.

وقد فنَّد سبحانه الامرين معا بقوله:

أوّلاً:(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ)، وهو انذار بالعذاب كما حصل لغيرهم ممن سبقهم من الآباء، فان العبرة بالتاريخ يقتضي الوقاية من العذاب المحتمل، وخصوصا أن العذاب الذي انذر منه الانبياء قد تحقق في أمم سابقة.

ثانيا:(وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ)، كما هو شأن النبي الساهر على مصلحة الناس اجمعين، فان العذاب انما نزل بعد تحقق موجباته بالانكار عن علم وعمد، فيكون عذابا عن استحقاق لهم.

ثالثا: (وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ)، والمكر: التخطيط المتعمد. ومن الطبيعي ان ما يخططه الكفار في اخماد صوت الحق يوجب الضيق في نفس داعية الاصلاح. والله سبحانه ينهى الرسول القائد من ذلك، لانه قائم بما هو واجبه الرسالي وليس عليه مسؤولية سوى ذلك.

الامر الثالث: السؤال (وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)؟. والسياق يقتضي ان يكون السؤال حقيقيا لمعرفة وقت العذاب.

وحيث ان الموقف بالتحديد لا يعلمه سوى الله تعالى، ولا يعرف الا بآثاره الواقعة في الكون، أشار سبحانه إلى الحقائق عن ذلك بقوله:

أوّلاً: (قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ)، والردف: التابع في الوجود والظهور، فان امر العذاب بيد الله وحده، وهو الذي ينفذ ما يشاء حسب المصالح التي يراها هو، وليس غيره، فقد يكون بعض العذاب الذي يستعجله الكفار لاحقا بهم في الوجود قريبا، ان كان ذلك هو ارادة الله.

ثانيا:(وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ) بإرجاء العذاب واعطاء الفرصة لتعديل المواقف بالتوبة والإنابة، فان العذاب ليس انتقاما، بل عقابا عادلا لمن يستحقه، ومن تاب عن خطئه لا يستحق العذاب، وقد فتح الله سبحانه باب التوبة للناس تفضلا.

(وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ) هذه النعمة بفتح باب التوبة قبل فوات الاوان.

رابعا: (وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ)، فان ما يعلنه الكفار هو السؤال عن موعد العذاب، وفي نفس الوقت يضمرون في انفسهم الخوف من العذاب، وكانهم يسألون ليعرفوا وقت العذاب حتى يتقوا منه في الوقت المناسب بالوسائل المادية أو بالتوبة قبل حلوله، فلا يكون السؤال عن موعد العذاب سؤالا حقيقيا، بل وسيلة ماكرة لتحقيق الاهداف المادية، فلا يستحق الاجابة عليه الابالاجمال للتاكيد على الحقيقة.

رابعا: (وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ)، والكتاب: الفرض على سبيل اليقين، فان الله سبحانه خلق الاشياء وقدرها حسب ارادته العليا في التأثير والتأثّر، فكل شيء في الوجود سواء كان حاضرا محسوسا كما هو المشاهد في الحياة اليومية، أو غائبا غير محسوس من أمور المستقبل، سواء في السماء أو الارض، فانه محكوم بما فرضه الله تعالى بتفصيل، حسب ارادته العليا، وهو على كل شيء قدير.

هذا القران:

قال سبحانه:(انَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ○وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ○ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ○فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ○ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ○ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِن باياتنا فهم مُسْلِمُونَ) .(النمل: ٧٦-٨١).

سرد في هذا المقطع حقائق القرآن والمسؤولية التي يحملها الرسول الكريم في تطبيق ذلك في الحياة.

قال سبحانه:

أوّلاً: (انَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ)، بحكم كون القرآن متمّما لما سبق من الكتب السماوية. والسياق في هذه الآية يقتضي ان تكون مدنية، وقد ذهب المفسرون إلى كونها مكية، بحكم كون القرآن هو الخاتم المحتوى على ما هو تشريع جديد بالنسبة إلى غيره من الاديان.

ثانيا:(وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ) في العقيدة والشريعة بما يفتقر الله المؤمن في حياته الشخصية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية وغيرها.

ثالثا: (إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ)، فان الاحكام في القرآن تنبع من الوحي الالهي وليس استنادا إلى نصوص التوراة التي يؤمن بها بنو اسرائيل. والوحي الالهي هو الحاكم على غيره مما سبق من النصوص وناسخا لها، فيكون

القضاء لحكم الله وحده، لكونه العزيز في القوة فيغلب حكمه كل حكم، والعلم بالحكمة في تشريع ما تتطلبه المصلحة.

والى مسؤوليات الرسول القائد من رسالة القرآن أشار بقوله:

أوّلاً:(فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ)، فان تنفيذ المسؤولية يفتقر إلى التوكل على الله وحده،

والى السبب الموجب لهذا التوكل الخالص أشار بقوله:

(إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ)، فان وضوح الرؤية للمبادئ والوسائل والاهداف الالهية يستوجب السير على الطريق اعتمادا على الله وحده.

ثانيا: (إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ)، فان الدعوة انما تؤثر فيمن له قابلية قبول الدعوة، فكما ان الميت لايسمع فلا تؤثر فيه الدعوة، والاصم لا يسمع فلا يكون الدعاء له مسموعا، فكذلك الذين يتولون عن سماع الحق بالادبار والإعراض، فانهم باعراضهم عن اختيار وعمد لا يسمعون شيئا، فلا تؤثر فيهم الدعوة.

ثالثا: (وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ)، فان الضلالة التي تكون عن علم وعمد كالاعمى الذي يصر على رفض العون من أي انسان، فلا تكون الهداية مؤثرة فيه.

(إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِن باياتنا)، فان الكلام انما يؤثر فيمن يؤمن بدلالة الآيات (فهم مُسْلِمُونَ) لما تدل عليه تلك الآيات.

اشراط الساعة:

يشير هذا المقطع إلى بعض اشراط الساعة الرئيسية، وهي خروج الدابة والحشر ونفخ الصور، وقد جاء في الروايات ما يوصلها إلى العشر أو اكثر، منها: خروج الدجال ويأجوج ومأجوج ونزول عيسى وغير ذلك مما تكون مصاحبة لها. (راجع المواد في المعجم).

واما المشترك منها في هذا المقطع فهي ثلاث:

الاول - خروج الدابة:

قال سبحانه:(وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ).(النمل:٨٢).

والدابة: ما يدب على الارض من الحيوان، والدب: المشي، واللفظة بمعناها اللغوي تشمل الحيوان العاقل وغير العاقل، ذكرا كان أم انثى. وقد اختلفت الروايات في ذلك اختلافا فاحشا . وبمقتضى المعنى اللغوي يمكن ان يكون انسانا. والسياق يقتضي ذلك، فان الكلام لا بد وان يفهمه سائر الناس، وهو عادة ما يكون صادرا من الانسان دون غيره من الحيوانات.

قال سبحانه:

(وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ)، والوفوع: الثبوت، بان تحقق القضاء بامر الساعة.

(أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ)، فان هذا حيوان يدب على الارض كسائر الحيوانات، ومنها الانسان، ومن خصائص الذي يدب أنه:

(تُكَلِّمُهُمْ)، والكلام من صفة الانسان، واما سائر الحيوانات فان اصواتها لها اسماء خاصة، ولايعبر عنها بالكلام عادة.

وعن مضمون الكلام أشار بقوله:

(أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ)، فان الكلام اعلان عام عن مسؤولية الناس اجمعين عن مواقفهم في الدنيا، ومن ذلك انهم لم يوقنوا بآيات الله الكثيرة المتوفرة في الحياة، بعد اتمام الحجة عليهم، وبذلك يتحملون مسؤولية تلك المواقف .

وطبيعي ان هذا الاعلان العام انما يكون عن جهة مسؤولة لموعد الحساب. والله اعلم بالصواب.

الثاني - يوم الحشر:

قال سبحانه:(وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ○حَتَّى إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْماً أَمْ مَاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ○وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ○ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ).(النمل:٨٣-٨٦).

وقد وصف سبحانه الكافرين في هذا اليوم من الذين لم يؤمنوا بالآيات مع اتمام الحجة عليهم بقوله:

(وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ) ، (ومن) هنا تبعيضية، والحشر: الجمع، والفوج: الجماعة السريعة في المشي. والوزع: المنع، فان الكفار على اختلافهم في مراتب العقاب، ومنهم القيادات المكذبة بايات الله عن علم

وعمد، فان هذه القيادات يجمعون في السير بسرعة ويمنعون عن التخلف عن السير أو الانحراف عن المقصد يمينا أو يسارا.

وعن محاكمة هذه الافواج قال:

(حَتَّى إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْماً أَمْ مَاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)؟، وهذا الاستفهام التقريري ادانة للكافرين بامور ثلاثة، تنبئ عن ذلك حالهم:

أوّلاً: التكذيب بايات الله التي ابلغها الانبياء والرسل.

ثانيا: العلم بالآيات بالاحاطة الكاملة لها عن علم وعمد.

ثالثا: رفض البديل الحق، حيث لم يعملوا شيئا مما يجب عليهم.

وحيث لا جواب لهذه الامور سوى الاقرار قال سبحانه:

(وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا)، فان كل واحد من هذه الامور ظلم يستحق العقاب العادل.

(فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ)، لعلمهم يتلبسهم بالجريمة، وثبوت الحق عليهم واستحقاقهم العقاب باتمام الحجة عليهم، بالآيات الكونية ومنها قوله:

(أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً)، فان الآيات الكونية المحسوسة من الليل للراحة والسكون، والنهار للعمل.

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)، بان هذه الطبيعة المحسوسة لا يمكن ان توجد دون مؤجد، فان وجودها يتوقف على سلسلة من العلل والمعلولات التي تنتهي إلى علة العلل وهو الله سبحانه، وكفى ذلك دليلا على تحكيم العقل بما يأمره الرحمن.

الثالث - نفخ الصور:

قال سبحانه:(وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ○ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ).(النمل:٨٧-٨٨).

والصور: القرن، وللملك اسرافيل نفختان، في الاولى الموت، وعلى اثرها يموت كل حيّ، وفي الثانية البعث حيث يحشر كل من مات. والنفختان تلازمان الفزع موتا ونشورا.

قال سبحانه من خصائص هذا النفخ:

أوّلاً:(وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ)، والنافخ اسرافيل في القرن النفخة الاولى، كما يقتضيه السياق، فتكون النفخة مصحوبة بالفزع وفيها يموت كل حي.

(فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ) من الانسان والحيوان.

(إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ) من الملائكة أصحاب المسؤوليات الخاصة، ومنهم اسرافيل.

(وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ)، والدخور: الذلة، فان الفزع يلازم الذلة والخوف.

ثالثا: (وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ)، فان من خصائص نفخ الصور ان الجبال على عظمتها في ثقلها المادي تسير بسرعة هائلة، كالسحاب.

وربما يكون ذلك اثر تصادم الكرة الارضية بغيرها من الكرات السماوية، وذلك بسبب انعدام الجاذبية، مع انها في الرؤية العادية تكون جامدة غير متحركة، وهذا حسب ما يقتضيه السياق.

ثم أشار سبحانه إلى ان حال الجبال في حالتي الجمود والسير السريع محكومة بارادة الله في صنعها من نظام متقن حال الجمود وحال السير، فقال سبحانه على سبيل الاغراء:

(صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ)، أي انظر إلى صنع الله في الجبال التي هي من مخلوقات الله، فان الله سبحانه اتقن كل شيء بالخصائص الطبيعية له في الوجود الدالة على قدرته العليا الحاكمة في الكون.

ثم أشار إلى ما يستلزم هذه القدرة العليا من العلم المطلق بقوله:

(إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ)، فان القدرة العليا لا يحدها شئ، فقد وسع علمه كل شيء مما يعلمه الانسان في حياته وما يترتب على ذلك من الجزاء والعقاب في الدنيا وفي الآخرة.

ختام السورة:

قال سبحانه:(مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ○ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ○ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ○وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ

الْمُنْذِرِينَ○ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ).(النمل: ٨٩-٩٣).

وقد لخص محتوى السورة في الختام بالإشارة إلى اهم المواضيع الواردة فيها، وهي:

أوّلاً - الجزاء العادل:

(مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا)، وقد حدد سبحانه هذا الخير بالمضاعفة عشرا، في قوله تعالى:(مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا). (الانعام:١٦٠).

(وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ)، لانهم عملوا بمسؤولياتهم في الحياة الدنيا، فاستحقوا الجزاء العادل ثوابا.

وعلى العكس:

(وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ)، فان الجزاء العادل هو العقاب الموعود عليه، وقد قال سبحانه في تحديد ذلك:(وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ). (الانعام: ١٦٠).

وحددها بما يذكر منها في الحياة الدنيا بقوله:

(فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ)، والكبت: الطرح، وحيث ان الوجه يواجه العذاب مباشرة فيكون العقاب مماثلا، لانكار الحقائق في الحياة مباشرة.

(هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)، وهذا الاستفهام التقريري اثبات لما أنذروا منه في الحياة الدنيا من العقاب العادل جزاء على كفرانهم.

ثانيا – مسؤولية الرسالة:

وقد أشار منها إلى ثلاث نقاط:

الاولى: توحيد العبادة (إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا)، وهي مكة المكرمة التي جعلها الله حرما آمنا، قال سبحانه: (ولاتقاتلوهم عند المسجد الحرام) (البقرة:١٩١).

(وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ) قال سبحانه: (ولله ملك السماوات والارض وما بينهما) (المائدة:١٧).

الثانية : التسليم لأمر الله : (وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ) لله وحده، برفض كل مظاهر الشرك من عبادة الاصنام والحكام، قال سبحانه:(لا شريك له وبذلك امرت وانا اول المسلمين) (الانعام:١٦٣).

الثالثة: رسالة القرآن: (وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ)، والتلاوة: القراءة باعلان رسالة القرآن على المجتمع اعلانا عاما، قال سبحانه:(أتل ما اوحي اليك من كتاب ربك) (الكهف:٢٧).

والى رد فعل الناس أشار بقوله:

(فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ)، لما يؤمن له الايمان من اطمينان القلب والعمل حسب الرؤية الواضحة للامور، وما يترتب على الوقاية من الانحراف في الحياة.

(وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ) من العقاب المترتب على الانحراف في الحياة. وليس مسؤولية الرسول بالنسبة إلى المجتمع باكثر من ذلك.

ثالثا – مسؤولية الرسول في نفسه:

(وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ)، فان الرؤية الواضحة التي تتمتع بها القيادة هي في نفسها تستحق الحمد لله، لانها نعمة الهية لا تحصل لاي انسان في الدنيا والآخرة.

وقال سبحانه:

(سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا)، فهي في الدنيا معروفة وان تجاهلها من يراها، وفي الآخرة يرى جزاءها الموعود.

(وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ) في الدنيا من خير أو شر، فتظهر نتيجة ذلك في الآخرة فينفذ الجزاء العادل ثوابا أو عقابا.

سورة القصص

(٢٨)

مكية ، وعددها (٨٨) آية. ويظهر ان السبب في تسمية هذه السورة بالقصص هو ورود كلمة "القصص" على صيغة الجمع فيها، مع انه تكررت كلمة القصص على صيغة الجمع في القرآن الكريم عدة مرات، هي قوله تعالى:

١-(ان هذا لهو القصص الحق) (ال عمران:٦٢).

٢-(فاقصص القصص لعلهم يتفكرون) (الاعراف:١٧٦).

٣-(نحن نقص عليك احسن القصص) (يوسف:٢٠).

٤-(فلما جاءه وقص عليه القصص قال لا تخف) (القصص:٢٥).

٥-(لقد كان قصصهم عبرة لاولى الالباب) (يوسف:١١).

وتستفتح السورة بالحروف المقطعة (طسم)، ولم ترد هذه المقطعات سوى مرتين في القرآن الكريم، احدهما: في مفتتح سورة الشعراء قوله تعالى:(طسم تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ) (الشعراء:١). وبنفس النص هنا في مفتتح هذه السورة.

كما تقدم ذكر الحروف المقطعة (طس) من دون حرف الميم في مفتتح سورة النمل.

ثم عقب ذلك بقصة النبي موسى على تفصيل لم يسبق في محاربة العبودية للحكام المتمثلة بفرعون، ثم رسالة النبي القائد (ص) في محاربة العبودية للاصنام في العرب، وختمه بالنصر الالهي لمن يرفض العلو والطغيان والفساد في الدنيا.

فاتحة السورة:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(طسم ○ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ)(القصص: ١-٢).

استفتح السورة بالحروف المقطعة بقوله سبحانه:(طسم)، وتكررت الإشارة اليه في المقطعات بانها – على الاغلب – تشير إلى ما يتكون منه القرآن الكريم من الحروف العربية.

وقد فسرها بقوله تعالى:

(تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ)، و(تلك) مبتدأ، تشير إلى تلك المقطعات، وما بعدها خبرها .

وتتضمن صفات ثلاث للقرآن الكريم، هي:

١-(ايات) لما تحملها من دلالات لمن يتدبرها بروح موضوعية.

٢-(الكتاب)، وهو ما فرض للسير عليه في الحياة الخاصة والعامة.

٣-(المبين) بوضوح الدلالة، وتفصيل المحتوى باتمام الحجة، ومن ذلك تاريخ النبي موسى وما يتضمنه من موارد الإعتبار.

نبأ موسى وفرعون:

(نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ).(القصص:٣).

و"فرعون" لقب ملوك مصر، واختلف المؤرخون في المعني به، هل هو "رعمسيس الثاني" الذي حكم قبل الميلاد (١٢٩٠-١٢٢٣ ق م) أو أبنه "منفناخ بن رعمسيس الثاني" (١٢٢٣-١٢٦١ ق م)، لقرب عهد كل منهما للآخر.

وعن موسى، راجع شجرة الانبياء ، في سورة الانعام، الآيات: ٨٤-٨٧.

ويستعرض المقطع الإشارة إلى حياة فرعون والنقاط الحيوية في حياة موسى في الرضاعة والرشد في مصر ومدين، والزواج من اسرة شعيب، والوحي في الطور، ومواقف الرسالة.

وفي كل نقطة منها دروس وعبر يستلهم منها المؤمن العبرة في السلوك في الحياة الفكرية الشحصية والاجتماعية والسياسية، بالاتكال على الله في مواجهة التهديدات التي يقوم بها الظالمون.

قال سبحانه:

(نَتْلُوا عَلَيْكَ)، والخطاب للنبي الاعظم مُحَمَّد (ص) باعتبارة قائدا واسوة لغيره من المسلمين.

(مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ) باعتبارهما رمزان للحق والباطل في المبادئ والوسائل والاهداف، ولا يخلوا منهما زمان أو مكان في التاريخ.

(بِالْحَقِّ)، والانباء التي يذكرها القرآن عن هذين الرمزين بالحق والصدق، وليست كما يسرد في التواريخ التي تكون مجرد تخرصات من دون استناد إلى امر ثابت، فان النبأ المستند إلى الوحي حق ثابت لا يتطرقه شك أو شبهة.

(لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)، فان الخطاب وإن كان للنبي القائد(ص) بالتلاوة، الا أنه ليس لشخص النبي، بل باعتباره قائدا، كي ينتفع من هذه الدروس والعبر المؤمنون في مسيرتهم الايمانية التي غلبا ما تكون هدفا للظلم والظالمين الذين يشتركون مع فرعون في سياستهم الظالمة.

سياسة فرعون:

قال سبحانه:(إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ).(القصص: ٤).

أشار سبحانه إلى سياسة فرعون الظالمة في نقاط يكفي سردها عن تفسيرها، لانها في نفسها تبتني على اساس الظلم كما هو مشروح في التاريخ.

قال سبحانه:

أوّلاً:العلو (إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ)، والعلو: الارتفاع بالطغيان في الحكم من دون التزام بمادة انسانية عادلة.

ثانيا: التفرقة (وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً). والتشيع: الاتباع، فان لكل قوم اتباع شايعونهم في الحياة العامة واستخدم فرعون سياسة "فرق تسد" بخلق الجماعات في الفرق المختلفة لتحارب بعضها البعض.

ثالثا: الطبقية (يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ)، فان في استخدام البعض من هذه الجماعات المختلفة ما ينفد سياسات الطبقة العليا فيها، لتحكم على الاقلية المغلوبة على امرها بحكم كونها طبقة ضعيفة، وليس الضعف في نفسها بل بسلب القدرة منها، فهي مستضعفة بسبب سياسة فرعون.

رابعا: العقوبات الظالمة بالنسبة إلى الطبقة المستضعفة بما يراه فرعون ضمانا لحكمة، وقد أشار سبحانه إلى نوعين من هذه العقوبات الواضحة في كونها ظالمة:

النوع الاول: الاعدام (يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ)، حيث ان الجيش الفرعوني كان يتكون من الرجال، وكان يخشى من الطبقة المستضعفة ان ينخرطوا في جيش يحارب ضده، فاستخدم سياسة الاعدام بالنسبة إلى الابناء خاصة، لكي تنقرض الطبقة المستضعفة التي يحتمل منها المعارضة المسلحة.

النوع الثاني: استخدام النساء (وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ)، فان ابقاهن أحياء وصونهن من الاعدام انما هو لاستخدامهن في الشهوات والخدمة في بيوت الحكام الفراعنة القائمة، وانغماسهن في الملاهي وتعودهن على الشهوات يقضي على روح المعارضة في النساء.

وقد وصف سبحانه هذه السياسة بالفساد بقوله:

(إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ)، باستخدام سياسة الاعدام للرجال والاستخدام للنساء في سبيل قتل روح المعارضة للطبقة المستضعفة.

المستضعفون:

قال سبحانه:(وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ○ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ).(القصص: ٥-٦).

وأشار سبحانه إلى ان الارادة الالهية تعارض السياسة المادية التي استخدمها فرعون باعتباره طاغية ضد المستضعفين.

قال سبحانه:

أوّلاً: (وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ)، فان سياسة الطغيان محكوم بالبوار مهما كان على التخليط المتقن، فانه بدرجة الاتقان في التخطيط الظالم تكون المقاومة من الجانب المؤمن بهويته التي خلقه الله عليها مستعيتا بالفطرة الانسانية الحرة، فقد اكرم الله الانسان بالعقل، الذي لا يحده شيء من المفاهيم المادية .

ثانيا: (وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً)، بان يتسلموا قيادة انفسهم من دون تسلط ظالم، لما تستلزم الامامة من تطبيق المبادئ والوسائل والاهداف في شؤونهم الالهية من القاعدة إلى القمة.

ثالثا: (وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ) للحكم من الذين ظلموهم، وهم الفراعنة، ولا تحقق الوراثة الا بتطبيق الحكم المناقض لحكم من سبقة من الحكم القائم على الظلم، فان استمرار الحكم الظالم ليس ارثا، بل استمرارا لحالة متواجدة، والارث انما يكون بعد موت من سبق عينا واثرا.

رابعا: (وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ)، والتمكين: الاستخدام بالقوة، فان الحكم الظالم ليس قويا في نفسه، بل باستخدام الحديد والنار في وجه المعارضة، والحكم الالهي العادل قوي في نفسه، كالجسم الصحيح في نفسه فلا يفتقر إلى استخدام الظلم الا في وجه من يتعدي القانون العادل، وليس ذلك ظلما، بل هو تطبيق للعدل.

خامسا:(وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ)، فان الحكم القائم على العدل يكون عبرة للحكم المادي القائم على الظلم، بان الحذر واستخدام الحديد والنار وسياسة التفرقة لا تضمن للحكم المادي الخلود، لان الظلم في نفسه خطوة نحو الهلاك، وان طال الزمن، فيقضي على الرئيس وهو فرعون ووزراءه ومنهم هامان وجنودهما الذين ينفذون سياسة الظلم، لأن السياسة الظالمة مصيرها الى الزوال مهما طال الزمن، وعلى العكس تماما السياسة العادلة المتمثلة بموسى في مراحل حياته من الرضاعة وإلى القيادة التي تشملها القيادة الالهية في كل خطوة منها.

موسى الرضيع:

قال سبحانه:(وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ).(القصص: ٧).

في مرحلة الرضاعة تظهر العناية الربانية لموسى بحفظه من حكم الاعدام العام الصادر من فرعون. ويشير المقطع إلى الاسباب التي يسرها الله في حفظ هذا الرضيع في مختلف المواقف المتضاربة من الام والاسرة من جانب ومن فرعون واسرته من جانب آخر، وما استلزمت هذه المواقف من حفظ الله له من شر الاعداء.

والى دور الام أشار سبحانه بقوله:

أوّلاً: (وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ)، والسياق يقتضي اخفاؤها الولادة للذكر لفترة صعبة في حياتها، فان اعلان ذلك يستلزم الاعدام لا محالة، ومن الطبيعي اشتفاق الام الحنون على ولدها من الاعدام.

والوحي: الاعلام بالخفاء ويتحقق بالالهام، فان مسؤولية الامومة هي المحافظة على الوليد ما أمكن، واولى مراحل ذلك: الارضاع من دون اعلان عن جنس الوليد بكونه ذكرا أو انثى حتى يجعل الله لها مخرجا.

ثانيا: (فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ)، فعند الخوف من الاعدام يكون المرحلة الثانية في المحافظة على الوليد المحكوم بالاعدام هو القاءه في اليم. واليم: البحر ويطلق على كل مسيل ماء كبير مجازا، كما هو الحال بالنسبة إلى نهو النيل في مصر، وذلك بان يجعل في محفظة وتطلق في الماء.

ثالثا: (وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي)، فان الالقاء في النهر مجهول العواقب، ولكنه في نفس الوقت افضل من تسليمه للاعدام مباشرة. وطبيعي انه هذا الالقاء يرافق الخوف، وهو توقع المكروه في المستقبل، كالغرق في الماء أو تسلم الاعداء ، وكذلك الحنان، وهو المكروه الحاصل بالفعل بفراق الوليد الجديد.

رابعا: (إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ)، وهذا وعد الهي بالنجاة من ظلم الاعدام ورجوع الوليد إلى أمه بعناية الله تعالى التي تشمل من انقطعت وسائله المادية كلها.

خامسا: (وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ)، وهذا بشارة اخرى زائدة على رده سالما، جزاءً للموقف الايماني من الام الصامدة.

في آل فرعون:

قال سبحانه:(فَالْتَقَطَهُ آَلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ○ وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أو نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ).(القصص: ٨ -٩).

والى موقف العدو الظالم أشار سبحانه بقوله:

أوّلاً: (فَالْتَقَطَهُ آَلُ فِرْعَوْنَ)، والالتقاط: الحصول على الشئ من دون طلب، فان وصول المهد الحامل لموسى الرضيع إلى آل فرعون كان من دون طلب منهم، والسياق يقتضي قرب منزل الام من قصر فرعون.

ثانيا: (لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً)، واللام ليس للتعليل، بل للعاقبة، فان عاقبة التقاطهم -كما سيأتي في حياة موسى - ان اصبح لهم عدوا، لانه بحكم تربيته معهم اصبح اعرف من غيره بحقيقة ظلمهم ونقاط الضعف الكامنة في الظالمين.

والحزن - بالفتح-: الاثر النفسي المتعقب للمكروه بعد حصوله، فان سياسة الظلم لابد وان ينفضح آجلا أم عاجلا، وبداية معرفتها بداية لنهايتها.

ثالثا: (إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا) باعتبارهم مشاركين جميعا في استخدام سياسة الظلم من القيادة والوزارة والجيش المؤتمر بامرهما.

(كَانُوا خَاطِئِينَ) في سياسة الظلم وفي اعتقادهم ان الظلم يحصن الحكم من البوار، ومن يدرس تاريخ الحكومات الظالمة يجد أن هذه السياسة تولد طبقة واعية لهذه السياسة وآثارها السيئة في المجتمع، وهي تكون من أقرب المقربين إلى السياسة

الحاكمة، ولا تعرف حقيقتها ولا اهدافها وخططها الا بعد أن تقوم هذه الطبقة بالثورة، وذلك يتبين ان الحكام البائدين المستخدمين لسياسة الظلم كانوا خاطئين.

رابعا:(وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ)، وهي آسية بنت مزاحم التي كانت من الطبقة الواعية لخطط السياسة الظالمة، لقربها من القيادة في الحكمن ووقوفها على الآثار السيئة لهذه السياسة، فقامت بدورها الانساني في حدود استطاعتها ودعت ربها قائلة: (ونجني من القوم الظالمين) (التحريم :١١) باقتراح بدائل ثلاث، الاول، أنها قالت:

(قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ)، وقرة العين كناية عن السرور، حيث تستقر العين برؤية المحبوب، فان تربية الولد في الجو الفرعوني يجعله ينطبع بالحياة الفكرية والاجتماعية الجديدة.

الثاني: (لَا تَقْتُلُوهُ)، وهذا امر قيادي من المرتبة الثانية في الطبقة الحاكمة، والسياق يقتضي ان يكون الخطاب موجها الى الجماعة الموكلة بتنفيذ حكم الاعدام، أو انه إقتراح لفرعون نفسه لالغاء حكم الاعدام استثناءن بما يكون مقبولا في الجو الارهابي الحاكم.

الثالث: (عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا)، بان يكون من جملة الجيش المستخدمين في تنفيذ الاوامر العسكرية أو من جملة الخدم في الوظائف الادارية الاخرى.

(أو نَتَّخِذَهُ وَلَداً)، بان يكون من حجلة الطبقة الحاكمة ليتطبع بأفكارهم السياسة والاجتماعية فيكون واحدا منهم.

وبهذا الاسلوب المادي في الاقناع استخدمت إمرأة فرعون المؤمنة لقربها من القيادة ومعرفتها العقلية المادية لهم، والضروف المؤثرة في اقناعهم بالغاء حكم الاعدام.

(وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)، والواو حالية، فان القيادة الظالمة الممتثلة بالرئيس فرعون والوزير هامان والمنفذين الجنود لم يشعروا بهذا النصر الالهي الذي جاء على يد امراة فرعون باسلوبها الحكيم.

تضامن الاسرة:

قال سبحانه:(وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغاً إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ○ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ○ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ○ فَرَدَدْنَاهُ إِلى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ).(القصص: ١٠- ١٣).

والى موقف اسرة موسى أشار بقوله:

وتتكون الاسرة -كما في بعض المصادر - من عمران الابن وزوجتة وأولادهما الثلاث مريم وموسى وهارون, وقد أشار هذا المقطع إلى دور كل واحد من أفراد الاسرة بأداء واجبهم الانساني.

أوّلاً: عن الحالة التفصيلية للام ، قال:

(وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغاً)، والفراغ: الخلو، فان الحالة التي تعيشها وهي منفصلة عن وليدها الذي تركته في الماء، ولا تعلم مصيره، في المقاييس المادية هل يكون الغرق في الماء أو وقوعه في قبضة الجيش وقتله، فلا يكون للفكر من مخرج.

(إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ)، و(ان) مخففة من الثقيلة، للتأكيد على شدة الموقف حتى اصبحت في موقف الاعلان عن جزعها بان تظهر هلعها على موسى، والتصريح

بانه وليدها، وذلك بالصراخ والعويل والبكاء حزنا، وطبيعي أن ذلك يستلزم معرفة الجيش لأسرة موسى ومعاقبتهم على ذلك.

ثانيا: عن الروح الايمانية، قال:

(لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)، والربط: الشد، فان العناية الالهية بها وبوليدها جعلتها تستمر على ايمانها بقدرة الله تعالى في انفاذ وعده سبحانه في الوقف المناسب لها ولوليدها.

ثالثا: عن الخطة العملية ، قال:

(وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ)، فكان الدور المشرف لاخت موسى في تكميل المسؤولية للاسرة في الحفاظ على مصير الوليد الرضيع . والقص: اقتفاء الاثر، ولذلك سميت القصة قصة، لانها تتابع الاثار في الاجيال المتتابعة. فقامت الاخت باقتصاص آثار الوليد.

(فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ)، فتابعت الاخت مريم مصير اخيها موسى. والجنب: الجانب من دون مباشرة في التتبع. بل ملاحظة مصيره وكانه امر جانبي غير رئيسي في توجهاتها. وقد قامت بدورها الاسرى من دون ان تجلب انتباه الرئيس ولا الجند.

(وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)، والواو حالية، فان مسؤولية الاخت قد تحقق في حال ان أحدا من القائد فرعون والوزير هامان والجند المأمورين بالاعدام لم يشعروا بتظامن الاسرة في انقاذ الوليد بالطرق العملية في الانقاذ.

رابعا: عن العناية الالهية ، قال:

(وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ)، والحرمة :المنع، والمرضع: المرأة المرضعة، فقد كانت الارادة الالهية ان يمتنع موسى من الرضاع من المراضع من قبل ان تعلم امه أو اخته بذلك، وهذه العناية الالهية كانت خطوة في نجاة موسى.

(فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ)، فكان اقتراح الاخت خطوة ثانية بعد الابصار به، ووقع موقع القبول بالعناية الالهية بالامتناع من الارتضاع بالمراضع .

خامسا: عن نتيجة الوعد الالهي، قال:

(فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ). وكما يقتضيه السياق ان الاسرة كانت قريبة من القصر الفرعونين وان الافتراح كان بان ترضعه ام موسى من دون ان تكون معروفة بكونها امه.

(كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا) برؤية وليدها حيا ناجيا من حكم الاعدام الظالم.

(وَلَا تَحْزَنَ) على فراقه وجهالة مصيره.

(وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ) بنصر المؤمنين، فقد وعد سبحانه ام موسى بقوله: (انا رادوه اليك) و (ان الله لا يخلف الميعاد) (الزمر:٢٠).

(وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) ان وعد الله يتحقق سواء عاجلا ام اجلا حسب الظروف والاحوال التي يقررها الله سبحانه، وليس حسب ما يطلبه الانسان نفسه، فان الله أبى ان يجري الامور الا بأسبابها الطبيعية المساوقة للعناية الالهية، والتي تحققت في موسى باستخدام كل الوسائل المتيسرة في الحفاظ عليه وليدا باخفاء الولادة، ثم القاء المهد في الماء مع جهالة المصير حيث لاخيار غيره، ثم تقصي اخباره بالطرق

الجانبية التي لا تجلب انتباه الاعداء، واستخدام المرأة المؤمنة كل الوسائل المقنعة للسلطان المادين وما يستلزم كل مرحلة منها من الصبر والاتكال على الله باداء المسؤولية وطلب النصر من الله.

دور المسؤولية:

قال سبحانه:(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ).(القصص: ١٤).

ويتضمن هذا المقطع المسؤولية التي قام بها النبي موسى في الوطن بعد بلوغ اشده، وبلوغ سن الرشد يكون بتجاوز عصر المراهقة والدخول في سن البلوغ، واما بلوغ الشدة والاستواء، فيقتضي ان تكون مرحلة اعلى من ذلك، ويظهر انه بلوغ الاربعين من العمر، فقد قال سبحانه عن مراحل العمر الانساني (حتى اذا بلغ اشده وبلغ اربعين سنة قال رب اوزعني ان اشكر نعمتك) (الاحقاف:٢٠).

والسياق للمقطع يقتضي ذلك، فان موسى حسب ما يستفاد من السياق كان معروفا في المجتمع، وكان له جماعة يعرفون بانهم من شيعته وصحبه، بينما هناك جماعة تعرف بالعداوة له، كما هو الحال في كل القيادات التي تعيش في عزلة عن المجتمع وتنفذ اراداتها بواسطة آخرين ممن يعيشون في المدينة التي يحكمون فيها. كما وأشار في هذا المقطع إلى دور موسى المسؤول في نفسه وفي الوطن وردود الفعل منها.

والى دور موسى في نفسه أشار سبحانه بقوله:

أوّلاً:(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى)، وهو العمر الذي تشتدد فيه الاعضاء وتنمو فيه العقول الانسانية جسميا وفكريا وهو الاربعين من العمر. وراجع خاتمة شرح الاربعين النبوية، ط / بيروت ١٣٩٤.

والاستواء: الكمال الفكري والجسمي وقد أشار إلى اثار ذلك بقوله:

ثانيا: (آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً)، والحكمة: القرار الصائب في الموقع المناسب، والعلم: الرؤية الواضحة للمبادئ والوسائل والاهداف في حكم الله سبحانه، وهما صفتان تلازمان النبوة.

ثالثا: (وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)، فان الحكم والعلم درجة فاضلة لها اسباب تستوجبها، ومن ذلك الاحسان وما يقوم به الانبياء تجاه المجتمع الذي يعيشون فيه من أعظم مراتب الاحسان الذي لا يتمكن منه أي انسان الا من اصطفاه الرحمان وذاب في الايمان واستنفذ كلما في وجوده في محاربة الشيطان.

مع النبي شعيب:

قال سبحانه:(وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ ○ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ○ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ).(القصص: ١٥-١٧).

والى دور المسؤولية في الوطن أشار بقوله:

أوّلاً :(وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ)، فان موسى وان تربى في القصر الفرعوني وكما هو عادة الملوك بعيدا عن المدينة واهلها، كما هو العادة في الفصل بين القيادة والقاعدة في سيرة الملوك والحكام عادة.

ثانيا: (عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا)، فان موسى تعاطف مع الشعب ودخل المدينة ليعيش آلام الشعب وآماله، وقد دخلها من دون اعلان مسبق كما هي عادة الملوك، بل على حين غفلة من أهلها، على خلاف عادة الملوك.

ثالثا: (فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ)، والسياق يقتضي ان موسى كان معروفا بين الشعب، وله فيهم من يشايعه، وطبيعي ان تكون من الطبقة المستضعفة من بني اسرائيل، وان يكون العدو من الأقباط الذين كانوا يستعبدون بني اسرائيل على اساس السياسة العنصرية الحاكمة انذاك، والظاهر من القتال المنازعة والخصومة.

(فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ) وطبيعة المقاتلة الاستعانة عند العجز، وقد طلب النصر من هو حزبه باعتباره في موقف العجز لكونه من المستضعفين ، وقام موسى بدوره المسؤول بنصر المستضعف

(فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ) بالوكز، وهو الضرب بجميع الكف بقوة، وكانت الضربة قاضية على العدو حيث انه مات بها .

رابعا: (قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ)، ومرجع الضمير القضاء بالقتل المفهوم من السياق، فانه اقرب. فان القتل وان لم يكن مقصودا ليس من الاهداف الالهية بل هو من الاهداف الشيطانية.

(إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ)، فان الشيطان يتصف بهذه الصفات الثلاث، ويكون سببا في استخدام الوسائل الشيطانية وتحقيق ذلك، ومنها: الوكز في المقام.

خامسا: (قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي) بقتل القبطي العدون وان لم يكن عن قصد، فان النصر للمظلوم لا يكون بالوسائل غير الالهية كالوكز، بل لابد وان يكون بالوسائل الالهية كالنصح ما أمكن.

(فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)، فان القتل وان لم يكن عن عمد، فان التسرع في استخدام وسيلة غير الهية بالنسبة إلى الانبياء تعتبر سيئة، فان حسنات الابرار سيئات المقربين.

وقد شكر موسى ربه على هذه المغفرة.

(قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ)، والظهير: الناصر، والمجرم: من يتلبس بالجريمة، فان النصر لاحد المتخالفين من دون تحقيق من الجانبين مهما كانت الاسباب تعتبر وسيلة غير الهية في الحياة، ولا يجوز استخدامها، فان نصرة المستضعف من دون تحقيق يعتبر تطبيقا لنظام العنصريةن وهو مرفوض عقائديا مهما كانت الاسباب.

في المدينة:

قال سبحانه:(فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ ○ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّاراً فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ○ وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى

الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ○ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفاً يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ).(القصص:١٨-٢١).

وفي ظل النظام العنصري القائم على الطبقية بين الاقباط الاسياد وبني اسرائيل المستضعفين ااصبح موسى بين خيارات ثلاث:

١-مساندة النظام العنصري الاسياد الاقباطن والرجوع إلى القصر الملكي الحاكم.

٢-مسائدة النظام العنصري للمستضعفين من بني اسرائيل، بالبقاء في المدينة.

٣-رفض النظام العنصري من أية جهة كانت كما عاهد ربه، بأن لا يكون ظهيرا للمجرمين أينما كانوا.

قال سبحانه:

أوّلاً : (فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ)، فان رجوعه إلى القصر الملكي ومساندته للحكم العنصري الغالب، مرفوض من الناحية الدينية.

وايضا فهو خائف من العقاب على قتل القبطي، ومن جانب آخر يترقب نتائج الخطأ الذي ارتكبه من جانب السلطة الحاكمة، وهذه الحالة المجهولة العواقب تصاحب القلق النفسي المستوجب لتحاشي السلطة.

ثانيا: (فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ)، والنصر: العون. والصراخ: الاعلان برفع الصوت، وهو اعلى مرتبة في الاستنصار، فقد وجد الجانب المستضعف قوة في شخيص موسى لاستخدامه في الوسائل التي تبتني على العنصرية فقط.

ثالثا: (قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ)، والغواية: الضلالة، والبيان: الوضوح، فان العبري في استصراخه انما يحاول استخدام موسى وسيلة لفرض العنصرية من جهة الطبقة المستضعفة من دون استناد إلى الرجوع إلى محكمة عادلة تستمع للجانبين.

رابعا: (فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا)، والبطش: الضرب بقوة، على اساس العنصرية التي تجمع بين موسى والمستصرخ في مقاتلة القبطي الذي هو عدو لهما بروح العنصرية ايضا.

وكانت ردة فعل القبطي اتهام موسى بامور ثلاثة:

الاول: (قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بِالْأَمْسِ)؟، وهذا الاستفهام الانكاري إدانة لموسى من وجهة نظر القبطي، وان كان لا يعلم بان القتل حصل خطأ وان موسى قد استغفر لها.

الثاني: (إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّاراً فِي الْأَرْضِ)، فلا يكون حينئذ فرق بين الحكم القائم على نظام عنصري قبطي أو القائم على نظام عنصري عبري، فان النظام العنصري يتوقف على الجبروت والطغيان، والطغيان من أي جهة كان يعتبر تجاوزا على العدل.

الثالث: (وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ)، فان الإصلاح يستوجب استخدام الوسائل المشروعة في مواجهة الانحرافن وليس الطغيان والجبروت منها.

وبهذه الامور الثلاث لا يبقى فرق بين الجبار والمصلح.

والى مصير موسى في المدينة أشار بقوله:

(وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى)، والسعي: السير السريع، وطبيعي ان يكون ذلك لمهمة خاصة.

(قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ) والملأ: الجماعة ذات الشوكة التي تملأ العيون بكثرتهم، وهم من الطبقة الحاكمة التي قتل موسى منهم القبطي.

(فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ)، لان البقاء في المدينة يجعله في متناول الحكم الفرعوني باعتباره الحكم السائدن والخروج من المدينة يجعله في مأمن عن ذلك.

(فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفاً يَتَرَقَّبُ)، فان الخروج رافق امرين، أحدهما نفسي وهو الخوف من تمكن سلطة فرعون من القاء القبض عليه أو قتله. والثاني: الترقب والاحتياط لكل المفاجئات المترقبة والوقاية منها.

(قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)، فان فرعون باعتبار حكمه العنصري في مصر كان ظالما، ومؤامراتهم للقضاء على موسى من دون محاكمة عادلة ظلم آخر، فلا يكون مخرج من هذا الموقف سوى الخروج إلى خاج المدينة حيث لا يطاله حكم فرعون العنصري.

في المهجر (مدين):

قال سبحانه:(وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ○ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ○ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ).(القصص:٢٢-٢٤).

وحيث لم يجد موسى مخرجا من ايقاف المؤامرة على قتله سوى الحياة في خارج المدينة خرج من وطنه مصر إلى مدين، وهي منطقة في الشامات منها الاردن اليوم١٣٩٦ حيث فيه القبر المنسوب إلى شعيب النبي بظاهر عمان العاصمة.

ويتضمن هذا المقطع الإشارة الى الحالة النفسية التي عاشها موسى في الطريق للوصول الى مدين والمسؤولية الرسالية التي تقلدها في تطبيق المبادئ والوسائل والاهداف الالهية وهو في المسيرن بالنسبة الى امرأتين تمنعان من سقي الماءن والدعاء الذي دعاه موسى بعد اداء الواجب الالهي الانساني .

قال سبحانه:

أوّلاً- عن الحالة النفسية، قال:

(وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ)، والتلقاء: الاتجاه، فان موسى لان موسى لم ير امامه حينئذ سوى الخروج من الوطن الذي يحكمه الحكم العنصري من دون ان يكون له هدفا خاصا، وقد توجه إلى مدين كما يقتضيه السياق باعتباره أبعد منطقة من الحكم العنصري الحاكم في مصرن وأقرب من غيرها من المناطق المستقلة عنه، وكما هو الظاهر ان مدين لم يكن هدفا خاصا، بل مجرد اتجاه للحركة ابتعادا عن مصر، وذلك ما اعلن عنه بقوله:

(قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ)، وهو الطريق للنجاة من الحكم العنصري الحاكم في مصر بالاستقرار في اى مكان كان، والسواء: المستقيم من الطريق إلى النجاة، فان لكل شيء في الحياة طريق مستقيم وغير مستقيم.

والقول بأن مقصده كان مدين خاصة يأباه السياق، فان الطريق اليه كان معروفا مستقيما لا يفتقر إلى هداية ظاهرا، وان كان لا يخلوا من وجه، وموسى وهو في هذه الحالة النفسية المضطربة فضل الخروج من الحكم العنصري الحاكم في الوطن على البقاء والخنوع في اصل الحفاظ على المبادئ والوسائل والاهداف الالهية.

ثانيا – وعما جرى في الطريق، قال:

(وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ)، وهذا امر طبيعي، حيث يتكون المجتمع البشري في القرى والحضارة دائما حول الماء الذي به حياة كل شيء، يستخدمونه في السقي والرعي والزرع. والامة: الجماعة، والسياق يقتضي انهم كانوا من الرجال فقط.

(وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ)، والذود: المنع، فقد وجد موسى ان امراتين تمنعان من الوصول إلى الماء لكثرة الرجال وتسابقهم على السقي لانفسهم وأغنامهم.

وطبيعي ان ذلك يمنع المراتين من الوصول إلى الماء.

وهذه الظاهرة الطبيعية في المجتمع القبلي دعى موسى إلى يطبق المبادئ والوسائل والاهداف الالهية، فان مبدأ العدالة يقتضي مساعدة الضعفاء ومنهم هاتان المراتان اللتان تمنعان من الماء. ومن الوسائل التأكد من ان المنع ليس لسبب معقول، بل مستند إلى الظلم فقط، ومن الاهداف اللهية معاونة المستضعفين، فانه الذي من اجله رفض موسى حياة الترف والنعمة في ظل الحكم الفرعوني، وفضل الحياة في المنفي على الخضوع.

ومن اجل ذلك كله (قَالَ مَا خَطْبُكُمَا) مخاطبا الامرأتين معا لمعرفة السبب في منع الجماعة إياهما من الورود على الماء، ولم يتجاوز السؤال إلى اكثر مما يرتبط بالواجب من الامور الشخصية.

(قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ)، فكان في جوابهما دلالة على انهما من الطبقة المستضعفةن حيث يقوم عادة بالسقي الرجال ، فقيامهما بهذه المهمة يدل على فقدان من يتولى الامر من الرجال، وهما يقومان بالمهمة بعد (صدور الرعاء)، والصدور: الخروج من الماء. والرعاء: جمع الراعي، حيث ينتهي كل من المهمة لنفسه، وان الوحيد في الاسرة من الرجال والديهما الذي هو كبير في العمر ، وادركته الشيخوخة ولا يتمكن من الرعي لذلك.

(فَسَقَى لَهُمَا) وقام موسى بالمسؤولية الالهية الانسانية من تفقد المستضعفين كما تقتضه العدالةن والتأكد من الوسيلة بالسؤال عن الحقيقة فعاونهما كما تفرض عليه المسؤولية الالهية.

ثالثا – عما حدث بعد اداء الواجب ، قال:

(ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ)، والسياق يقتضي ان السقي كان في النهار وفي فصل الصيف، حيث كان الجهد في السقي والتعب من الطريق، قد اجهده، فافتقر إلى الاستظلال بالاشجار القريبة من الماء، وبعد ان أدى ما عليه من الواجب والمسؤولية تجاة المرأتين من دون أي توسع في الاسئلة الشخصية التي لا ترتبط بالمسؤولية الدينية.

(فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ)، وهذا الدعاء تأكيد على الرؤية الواضحة في المبادئ والوسائل والاهداف الالهية. والفقر: الحاجة، والسياق يقتضي انه

كان بحاجة إلى ما يسد رمقة من الطعام بعد الجهد في السقي والتعب في الطريق الى القرية. واللام للتعليل، اي بسبب ما انزلت إلى من خير وهي الرؤية الواضحة اصبحت فقيرا إلى الله ومحتاجا الى الطعام بعد الاستغناء عنه في قصور الفراعنة الظلام، وليس في ذلك شكاية، بل عن واقع الحال حكاية لما يفتقر اليه من رحمة الله تعالى.

مع بنت شعيب:

قال سبحانه:(فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَاسَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ○ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ○ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ○ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ).(القصص: ٢٥-٢٨).

لم يرد اسم شعيب النبي في هذا المقطع، والسياق يقتضيه بلا ريب، لتكرر قوله تعالى :(والى مدين أخاهم شعيبا) في مواضع ثلاثة من القرآن الكريم في (الاعراف:٨٥) و (هود:٨٤) و (العنكبوت:٣٦). (راجع شجرة الانبياء ، في سورة الانعام، الآيات: ٨٤-٨٧).

والسياق يقتضي ان الفترة التي قضاها موسى في الظل كانت طويلة بالنسبة إلى المسافرين عادة، فان وحدته من ناحية ومبادرته إلى المساعدة بالسقي من ناحية أخرى ورجوع المرأتين إلى ابيهما وقص الواقعة من ناحية ثالثة يستغرق وقتا ليس بالقليل،

وكل ذلك دعي إلى اللقاء بشعيب رب الاسرة والتي ادت إلى صلة وثيقة بين موسى والاسرة، كما شير اليها المحادثة في هذا المقطع.

قال سبحانه:

(فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ)، وفي هذا السلوك في المشي دلالة واضحة على رسالة غير منتظرة من الجانب الاب.

(قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَمَاسَقَيْتَ لَنَا)، فان العمل الانساني الذي قام به موسى جدير بالتقدير العادل، وشعيب النبي هو اول من يطلب منه تطبيق المبادئ والوسائل والاهداف الالهية، وخاصة فيمن ظهرت فيه امارات الوحدة والغربة والانقطاع عن الوطن.

(فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ) التي مرت به في وطنه مصر من الحكم الفرعوني الظالم.

(قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)، فإن منطقة مدين التي يسكنها شعيب ليست في مصر ولا يمتد اليها حكم فراعنة مصر الحاكمين بالظلم، وبعد هذه الحقائق كانت ردود الفعل المتعاطفة.

أما رد الفعل من الاسرة فكان كالتالي:

(قَالَتْ إِحْدَاهُمَا) بعد استماع القصص جميعا لما قصه ضيفهم موسى، وربما كانت الكبرى بحكم تجربة العمر، وان صح هذا الاستنتاج فيقتضي ان تكون المرسلة الاولى هي الصغرى لحكمة يقتضيها السياق.

(يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ)، بان يكون عاملا أجيرا لشعيب، والمفروض استعداد موسى لذلك باعتباره منقطعا عن الوطن، و عاطلا عن العمل وتكون هذه الاجارة لمصلحة الطرفين معا، ولكنها عللت هذا الاقتراح بقولها:

(إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ)، وذكرت في صفة موسى ما شاهدته بنفسها، وهما:

أوّلاً: (الْقَوِيُّ) حيث ظهرت القوة الجسمية فيه من السقي وهو ما كان محسوسا.

ثانيا: (الْأَمِينُ)، وقد ظهرت أمانتة في مراحل:

منها: عند اللقاء الاول، حيث لم تتعد اسئلته عن موضع الضرورة لمعرفة السبب في منعهن من الماء، من دون أي توسع في الاسئلة الشخصية والعائلية، عن اسمها أو عائلتها.

ومنها: قيام موسى بواجبه الديني من السقي من دون نظر إلى المرأتين ومحاسنيهما الشخصية للتمييز بينهما.

ومنها: في اللقاء الثاني مع المرأة الوحيدة، فان الخلوة في اللقاء يفسح المجال لحرية اكبر ومنه تظهر حقيقة الانسان في سلوكة المعبر عن تفكيره في الحياة والمبادئ التي يحترمها من الامانة وغيرها.

وأما رد الفعل من رب الاسرة، شعيب النبي ، فتكونت من ثلاث نقاط:

الاول: (قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ)، والمصاهرة أقوى صلة بين اسرتين، وقد قام شعيب باعلان هذه الرغبة بحكم ولايته في الاسرة، وجعل القرار

لموسى في الاختيار من دون اي اكراه أو اجبار، وكان الاقتراح مقدمة للنكاحن وليس نفسه:

(عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِنْدِكَ)، والحجة: السنة، حيث يقع فيها الحج مرة واحدة في العام. والاجارة: العمل – وهي بقرينة السياق – السقي وما يستلزمه من الرعي والزرع وما شابه من العمل اليومي في الحياة القروية.

وبالنسبة الى المهر كذلك جعل شعيب الاختيار بيد موسى بين الثمانية والعشر من دون أي بتّ في الموضوع على سبيل الالزام بأحدهما خاصة . ولم اهتد إلى السبب في التحديد باي منهما. وان امكن التعليل بالعشر بكونة صفة الكمال، وان في طول المدة مهما كانت ما يكشف عن سلوك الانسان والتزامه بمبادئه.

الثالثة: اشار شعيب في اقتراحه بالنقطة الاخيرة الى ما هو المطلوب في أية صلة عائلية بقوله:

(وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ)، فان المصاهرة تشكل وحدة العائلة في الحياة الجديدة، وذلك يستوجب التساهل بما لا يشق على الطرفين من العادات والتقاليد الجاهلية التي تثقل كاهل أحد الجانبين او كلاهما.

وختم شعيب هذه النقاط الثلاث بقوله:

(سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ)، فان كل نقطة منها تبتني على المبادئ والوسائل والاهداف الالهية التي ترافق الصلاح في الدين والدنيا والآخرة، والانحراف عن أي واحدة منها لا يكون الا بالاجبار والالزام والمشقة، وكلها مرفوضة دينيا.

والى موقف موسى من الاقتراح أشار إلى قراره بالاختيار من دون الزام أو معه بالنقاط الثلاث:

أوّلاً: (قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ)، فهو قرار من الجانبين والتزام بما تعاقدا عليه من دون أي اكراه أو اجبار.

ثانيا: (أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ)، وقد جعل الاختيار في الاجل بين الثمانية اعوام من العمل أو العشر أمرا خاضعا للظروف الشخصية أو الاجتماعية أو السياسة الحاكمة في الوطن مصر، فلا يكون تعديا على الاجل فيما لو قرر الرجوع إلى الوطن بعد ثمانية اعوام وقبل العشر، أو الاستمرار إلى العشر فيما لو وجد الظروف تستدعي ذلك.

ثالثا: (وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ)، فان القرار بين الجانبين يخضع بالاعتماد على الله تعالى وحده، والوكالة- لغة-: الاعتماد بالحفظ، فانه سبحانه على كل شئ وكيل.

وبهذه النقاط الثلاث بنى موسى اساس المصاهرة العائلية بين الجانبين.

والنقاط الست من الجانبين هي الأساس في اية علاقة مصاهرة ناجحة والتخلف عنها ولو جزئيا يكون سببا للاخلال بهذه العلاقة الثابتة سواء بين الزوجين انفسهما أو بين افراد الاسرة بصفة عامة.

الرجوع الى مصر:

قال سبحانه:(فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَاراً قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أو جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ).(القصص:٢٩).

وبعد ان انتهى الاجل المضروب في الاجارة وهي على اقل الفروض ثمانية سنين وعلى الاكثر عشرا ولم يكن الاجل في نفسه سببا لقرار موسى بالخروج من مدين، فان السياق يقتضي ان يكون الخروج مستندا إلى تحول في السياسات القائمة في الوطن الام مصر، ما يقرب القول المتقدم بان فرعون هو منفاح وليس أباه، فمن المحتمل قويا وفاة فرعون الاب رعمسيس الثاني ووصول الابن منفاح إلى الحكم جعل سياسة الحكم الفرعوني مفتوحة للمعارضة، فوجد موسى فرصة للرجوع إلى الوطن بعد انقضاء الاجل، والله اعلم.

قال سبحانه:

(فلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ) الذي اختاره مع أبي زوجته شعيب، وعلى افل الفروض ثمانية سنين.

(وَسَارَ بِأَهْلِهِ)، وهم زوجتة ومن خلذف من الأولاد، فان الفترة الزمنية كافية للانجاب، ويؤيده السياق بخطاب الاهل بصيغة الجمع.

(آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَاراً)، والانس: الرؤية السريعة للشيء من دون استقرار. والطور: اسم للجبل في سيناء في الطريق إلى مصر. والنار تلازم النور المنبعث من النار، والتي يمكن رؤيتها من مكان بعيد ، فان سرعة الضوء هو ٣٠٠ الف كيلو متر في الثانية.

(لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ) عن حقيقة النار التي ظهرت لمحة منها كالنار.

(أو جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ)، والجذوة: الشعلة، فيما اذا كان بالامكان الاتيان بذلك.

(لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ)، والاصطلاء: التدفئة، والسياق يقتضي ان يكون الفصل في الشتاء الذي يستدفأ فيه بالنار عادة، وان يكون ذلك ليلا حين تظهر النور من مسافة بعيدة.

الوحي الالهي:

قال سبحانه:(فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ○ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآَمِنِينَ○ اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ).(القصص: ٣٠-٣٢).

وقد اراد الله سبحانه تيسير الوحي للنبي موسى (ع) بتجريده عن كل العلائق المادية المعروفة قبل تحمل مسؤولية الرسالة الالهية وذلك بتهيئة الاسباب الطبيعية لهذا الاستعداد.

قال سبحانه:

(فَلَمَّا أَتَاهَا)، بان وصل إلى موضع النار المشهودة له دون غيره من اهله.

(نُودِيَ) بالوحي الالهي.

وعن مصدر النداء المكاني أشار إلى صفات ثلاث:

أوّلاً: (مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ)، والشاطئ: الجانب. والوادي: الموضع المنفرج بين الجبال. والأيمن: صفة لما يقع على الجانب الايمن من موقف موسى، واليمن من صفات البركة.

ثانيا: (فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ)، والبقعة: القطعة من الارض. والبركة: بنزول الوحي فيها.

ثالثا: (مِنَ الشَّجَرَةِ) .

فان هذه الصفات الثلاث للمكان تلازم البركة والنماء الروحي بالوحي.

وعن محتوى النداء أشار إلى سلسلة من البراهين على الوحي، كلها غير طبيعية:

الاول:(أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ)، فان الشجرة لا تنطق، وقد خلق الله الكلام فيها ظاهرا، فكان موسى كليم الله مباشرة بواسطة خلق الكلام بارادة الله العليا، وهو على كل شيء قدير.

الثاني: (وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ)، وقد امتثل موسى للأمر كما يقتضيه السياق.

(فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ)، والجان: لغة في الحية.

(وَلَّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ) بالرجوع إلى الوراء، من دون تعقيب، أي النظر إلى الخلف، خوفا من متابعة الجان — اي الحية– إياه.

وهذا امر غير طبيعي، لا يمكن ان يتحقق الا بقدرة الله العليا.

الثالث:(يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ)، وهذا النداء الثاني يؤكد على الأمان من مصدر يختلف عن غيره، حسب المقاييس المادية، فان مقتضى المقاييس المادية الخوف من هذه الحالة، فالتأكيد على الأمن ينبع من مصدر الوحي، وحيث ان ذلك يفتقر إلى اثبات قال سبحانه:

الرابع:(اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ)، والسلوك: الدخول. والجيب: فتحة الصدر. والسوء: المرض. فان هذه معجزة غير طبيعية بأن تكون اليد تتلألأ وتشع بالنور بهذه الصفة التي لا تخضع للمقاييس المادية ، فلا بد وانها محكومة بارادة الله العليا.

الخامس: (وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ)، والجناح: اليد. والضم: ادخال اليد تحت الابط. والرهب: الفزع. فان هذه الحالة تدل على ثقة بالنفس وتركز على ما يجب من العمل، دون الارسال لليدين فانه يلازم الاهمال عادة أو الابقاء لهما، فان ذلك من اوضح الدلالات على الفزع والخوف.

وهذه براهين خمسة لموسى على النبوة في نفسه، لأنها خارقة عن الطبعية، وقد خص سبحانه إثنتين منها بأنهما برهانان للكافرين خاصة، فقال سبحانه:

(فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ)، وهما برهانا العصا وبرهان اليد البيضاء، حيث ان موسى سيؤمر باستخدامهما في مقام البرهان.

(إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ) من القيادة المتمثلة بفرعون نفسه والقوم المنفذين لأوامره العنصرية في محاربة المستضعفين من بني اسرائيل.

والى السبب في ضرورة هذين البرهانين الماديين أشار بقوله:

(إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ)، فمعصية الاوامر الالهية بالعدل في الحكم في المجتمع والمسؤولية الدينية تفتقر إلى ما يؤمن به العدو، فانه لا يعرف سوى المقاييس المادية للدلالة على حقيقة الوحي.

موقف موسى:

قال سبحانه:(قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْساً فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ○ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَاناً فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءاً يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ○ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَاناً فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ).(القصص: ٣٢-٣٥).

يشير المقطع إلى ما يفتقر اليه أية رسالة من قوى النصر المادية، وما يتطلبه شخصية الرسول من البراءة من المؤخذات.

وقد أشار موسى فيما يراه مفقودا من المواصفات المطلوبة في نفسه بالذات المؤثرة في انتصار الرسالة، قال سبحانه:

أوّلاً: (قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْساً)، وهذه مؤاخذة قانونية يمكن ان يؤاخذ عليها الرسول وبالنتيجة لا ينجح في ابلاغ الرسالة.

(فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ) عقابا بالمقاصة، فيكون ذلك عقبة في نجاح الرسالة.

ثانيا: (وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَاناً)، فان الفصاحة في اللسان من قوى النصر المادية.

(فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءاً يُصَدِّقُنِي)، والردء : العون، لحاجة الرسالة إلى العون في نجاحها.

(إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ) بالرسالة، لعدم استيفائها شرائط النصر المادية المطلوبة في نجاح أية رسالة.

وقد اكد سبحانه على ضرورة تحمل الرسالة بالتأكيد على نجاحها بارادة الله سبحانه.

(قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ)، بالنسبة إلى متطلبات النصر المادي بالعون.

(وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَاناً)، وهو الحجة الظاهرة على الخصم، بالنسبة إلى الخوف من القتل.

(فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا)، وان السبب في عجز العدو من القضاء على صوت التوحيد ليس المقاييس المادية، بل هو الآيات الالهية التي تُعجز الخصم من أي عدوان.

ثم اكد سبحانه على نصر الرسالة بقوله:

(أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ) على العدو الفرعوني، لغلبة الحجة المستندة إلى القدرة الالهية على المقابيس المادية التي يستند اليها العدو الفرعوني.

مع فرعون:

قال سبحانه:(فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ○ وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ○ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ

لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ○ وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ○ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ).(القصص: ٣٦-٤٠).

أشار سبحانه إلى رد فعل فرعون وملئه بالنسبة إلى رسالة موسى الداعية إلى تطبيق العدل الالهي في المجتمع، ورفضهم الدعوة أوّلاً، ثم دعوى الالوهية ثانيا، واستحقاقهم العذاب الالهي ثالثا، فقال سبحانه:

أوّلاً: (فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ) الدالة على الوحي من العصا واليد البيضاء.

(قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى)، لانها لا تخضع الى المقاييس المادية المتعارفة عندهم.

(وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ)، وهذا تأكيد على تبعيتهم للعادات الجاهلية من دون استخدام العقل والمنطق.

وقد علق موسى هذا الرفض الذي لا يستند الا الى الدعاية والتقليد الاعمى:

(وَقَالَ مُوسَى) مؤكدا على حقائق ثلاث، هي:

١-(رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ)، فان الحجة القائمة لا يمكن ان يعارضها تهمة السحر.

٢-(وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ)، وهي دار الدنيا، فانها انما تكون العاقبة مهما طال الزمن لمن يقوم بالعدل.

٣- (إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ) في حكمهم مهما طال، فان البناء القائم على الظلم منهار .

ثانيا: دعوى الالوهية (وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي).

قال هذا بعد فقد الحجة المادية على دعاوى فرعون وعجزه هو وملئه. وكل نظام قائم على الطغيان لا يخضع لمنطق العقل والايمان، فلا يزداد في غروره الا غرورا حتى يهلك فيه، ومن ثم لم يذعن فرعون للحق، بل ادعى الالوهية لنفسه، شأن الطغاة من قبله، وقد اصدر أمره القيادي لمعارضة دعوى الرسالة بالمقاييس المادية التي لا يفهم الظالمون سواها، فقال آمرا وزيره هامان، قائلا:

(فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحاً)، والايقاد: اشعال النار. وهامان وزيره. والطين : الآجر القوي. والصرح: البناء العالي المكشوف. وهذه الاوصاف تكاد تتطابق مع الاهرام، بان اتخذ في اعلاها موقدا للنار ليعارض فيها ما اخبر موسى من النار التي رآها في الوادي المقدس.

وعن الهدف من بناء هذا الموقد قال:

(لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى) بمثل ما اطلع عليه موسى في الوادي المقدس طوى.

(وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ) في دعوى الرسالة، ودعوى الرؤية للنار في الوادي، فان فرعون المادي لا يمكن ان ينظر إلى الامور بنظره غير ماديةن ولا يمكنه ان يرى قدرة الله في العصا واليد البيضاء.

وثالثا: عن استحقاق العذاب الالهي بعد تمامية الحجة قال سبحانه:

(وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ)، والاستكبار: التجبر، حيث انكر الحجج والبينات عن علم وعمد.

(وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ) بالموت القاضي على كل حي.

(فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ)، وهو البحر الاحمر. والنبذ: الطرح من دون قدرة على المقاومة.

(فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ)، فانهم بتلبسهم بجريمة الظلم في العقيدة والحكم تدرجوا في مدارج العلو والاستكبار: من انكار الحق ودعوى الالوهية فاستحقوا العذاب الالهي القاضي عليهم. وهذا على النقيض من مدارج الايمان التي تدعوا إلى قبول الحق ومعرفة الحدود الشرعية والوقاية من العذاب.

مقارنة الموقفين:

قال سبحانه:(وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنْصَرُونَ ○وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ○ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ).(القصص: ٤١-٤٣).

وختم المقطع بمقارنة بين موقعي دعاة الكفر والايمان المتناقضين في الحياة دائما، فقال سبحانه عن دعاة الكفر:

أوّلاً:(وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ) في الدنيا، فان فرعون وجنوده يمثلون دعاة الكفر، الذين يدعون الناس إلى ما يستحقون به النار في الآخرة.

(وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنْصَرُونَ)، لعدم وقايتهم منها، بسبب عدم ايمانهم.

ثانيا:(وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً)، وهي الطرد من رحمة الله في الدنيا، حيث عاشوا فيها مطرودين من نعمة الفطرة السليمة، الداعية إلى تطبيق العدل الالهي في المجتمع.

(وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ)، للذل الذي يشملهم بعد الاستنكار للحق في الدنيا، فانهم حينئذ سيظهرون بمنظر قبيح في نفسه، فكيف اذا قيس بما سبق منه؟!.

ثم قال سبحانه عن دعاة الايمان:

(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ)، وهو المفروض من عند الله لتحقيق العدل في المجتمع.

(مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى) من دعاة الكفر باستحقاقهم العذاب كقوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب حتى وصلت النبوة إلى عصر موسى.

وقد وصف رسالة النبي موسى بأوصاف ثلاث:

أوّلاً:(بَصَائِرَ لِلنَّاسِ)، فان البصيرة رؤية القلب بالفكر الحر الذي يستند إلى رؤية واضحة للحياة.

ثانيا:(وَهُدًى) يهتدي بها المؤمنون في حياتهم الخاصة والعامة.

ثالثا:(وَرَحْمَةً) للناس أجمعين، فان الحكم الالهي العادل يعم جميع افراد المجتمع من دون استثناء.

والى الحكمة من رسالة النبي موسى كغيره من الرسالات، أشار بقوله:

(لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)، فان مسؤولية الرسالة هي التذكير، ثم جعل الخيار للانسان في القبول أو الرفض متحملا المسؤولية لأي من الموقفين في الحياة. وما يترتب على ذلك في الحياة الدنيا والآخرة.

الرسالة المحمدية:

قال سبحانه:(وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ○ وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُوناً فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِياً فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ○ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ).(القصص: ٤٤-٤٦).

أشار في هذا المقطع إلى خصائص الرسالة المحمدية التي تدل على استنادها إلى الوحي المبين، حيث اخبر النبي مُحَمَّد (ص) عن حوادث التاريخ التي ليس للوقوف عليها سوى طرق ثلاثة: الحضور شخصيا أو الدراسة والتعلم أو الوحي الألهي، ومن الواضح من سيرة الرسول مُحَمَّد (ص) انتفاء الأولين معا، فتنحصر طريق العلم بها بالاستناد إلى الوحي المبين.

قال سبحانه:

أوّلاً:(وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إلى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ)، والجانب الغربي: والتحديد بالمكان الغربي من جبل الطور الذي فيه نزل الوحي على النبي موسى أولا، فان الاخبار عن هذا النداء بالتفصيل المتقدم انما حصل لمن لم يكن شاهدا، حيث البعد التاريخي بين عصر النبي مُحَمَّد والنبي موسى بما يقارب الألف عام.

(وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُوناً فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ)، والقرن: الزمن البعيد، وان حدد عصرنا بالماءة عام، فان القرن بين عصري موسى ومُحَمَّد فترة طويلة لا يمكن ان يكون الاخبار عنها بالمشاهدة، فينحصر الامر بالتعلم، والمفروض انتفاء التعلم بالنسبة الى شخص النبي مُحَمَّد، فينحصر الامر بالوحي.

ثانيا:(وَمَا كُنْتَ ثَاوِياً فِي أَهْلِ مَدْيَنَ)، والثواء : الاقامة. ومدين: المنطقة الواقعة في الشامات، ومنها الاردن اليوم، حيث عاش فيه شعيب النبي، والقبر المنسوب اليه اليوم في عمان العاصمة.

(تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا)، بالقراءة أو التعلم للآيات الالهية المنزلة على الانبياء من اهل مدين.

(وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ) للوحي إلى شخص النبي مُحَمَّد (ص) بهذه الآيات.

ثالثا:(وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا)، ومتعلق النداء هو النبي موسى كما تقدم، وليس هذا تكرارا للاول، فان الوحي والنداء أمران مختلفان مفهوما وان اتحدا مصداقا.

وفي هذه الاخبار عن الآيات المذكورة دلالة على استنادها إلى الوحين لعدم مشاهدة النبي مُحَمَّد ذلك شخصيا، للبعد الزمني بين العصرينن ولعدم تعلمه ص ذلك بالدراسة كما هو واضح من السيرة، فتعين أن يكون المصدر لها هو الوحي الالهي المبين.

والى خصائص الرسالة المحمدية أشار إلى ثلاث بقوله تعالى:

١-(وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ)، كما هو الحال في كل الرسالات السماوية.

٢-(لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ)، وهم العرب المشركون في مكة، حيث لم يكن لهم نبي بلسانهم من قبل في تاريخ الرسالات.

٣-(لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ) بهذه الرسالة الخاصة كما هو المأمول في كل الرسالات.

حكمة الرسالة:

قال سبحانه:(وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ).(القصص: ٤٧).

يشير المقطع إلى ان الحكمة في تتابع الرسالات هي اتمام الحجة، فان المسؤولية الرسالية للانبياء في كل العصور هي الابلاغ لاتمام الحجة على القوم الكافرين، وليس لهم التنفيذ، بل مجرد الانذار بعقوبات رب العالمين عند المخالفة.

قال سبحانه:

(وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ)، والمصيبة: هي العذاب الذي ينذر به النبي، و(لولا) هذه امتناعية، وجوابها مفهوم من السياق، أي لولا الاعتراض، بعدم استحقاق العقوبة

من دون ارسال الرسل، لما كانت حاجة إلى الرسل، فان الحكمة في ارسال الرسل اتمام الحجة على الناس.

(بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ) من الاعمال التي تستوجب العقوبة والعذاب.

(فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)، فان هذا القول حجة معقولة في عدم استحقاق العقاب عند فقدان الانذار.

وتنقطع هذه الحجة من المشركين بتتابع الرسالاتن التي منها رسالة النبي مُحَمَّد(ص).

موقف الكفار:

قال سبحانه:(فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ○ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ○ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنَ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ○ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ).(القصص: ٤٩-٥١).

ثم أشار سبحانه إلى ان موقف الكفر واحد في الماضي والحاضر والمستقبل، وهو مناقض لموقف الايمان، فان الايمان والكفر هنا كخطين متوازيين لا يلتقيان في أي عصر أو زمان أو مكان، كما يدل على ذلك دراسة تاريخ الاديان ومواقف الانسان.

وأشار إلى موقفين من مواقف الكفار متماثلين في كل عصر، فقال سبحانه عن الموقف الاول:

(فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا)، وهو الوحي القرآني للمشركين.

(قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى) من معجزة العصا واليد البيضاء. و(لولا) هنا تحقيقية، أي هلا أتي النبي مُحَمَّد مثل ما اوتي موسى من المعجزات؟!

وقد فنّد سبحانه هذا الموقف بالاستفهام الانكاري بقوله:

(أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ)؟، فان هؤلاء المشركين كفروا بما أوتي موسى كما كفر المشركون الفراعنة في عصر موسى ايضا بالرغم من مشاهدة المعجزات. والكفر ملة واحدة، فان الموقف الكافر الرافض لغير المادة والماديات لا تؤثر فيه المعجزات.

الموقف الثاني:(قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا)، والتظاهر: التعاضد، وهذا الموقف اتهام لكل المعجزات بأنها سحر، كما سبق في عصر موسى من العصا واليد البيضاء، الذي اتهمه بذلك الفراعنة، ولو تكرر في عصر النبي مُحَمَّد ص لكان لهؤلاء الكفار نفس الموقف.

(وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ)، أي بكلي الرسالتين، رسالة النبي موسى ورسالة النبي مُحَمَّدن لانهم يتهمون المعجزة بانها سحر، فلا يكون للمعجزة اثرها.

ثم أشار سبحانه إلى أن الحجة تامة بالدعوة إلى تحكيم الفطرة الانسانيةن وان رفض هذه الفطرة الانسانية يستلزم اتباع الهوىن وهو الكفر الذي يحاربه الانبياء والمرسلون.

قال سبحانه:

(قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا)، الضمير يعود إلى القرآن والتوراة المفهومان من السياق.

(أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)، حيث لا بديل للوحي الالهي الداعي إلى العدل في العقيدة والشريعة، من نزول الوحي في السابق بالتوراة وفي عصر النبي بالقرآن. ولا بديل ولا مثيل، فلا يكون البديل سوى اتباع الهدى أو حكومة شريعة الغاب.

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ)، كما تدل على ذلك مواقفهم المتكررة برفض الحق.

(فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ) مهما كانت اقوالهم ودعاياتهم.

(وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنَ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ)، فان اتباع الهوى عين الضلالة، حيث يستلزم التنكر للفكر الحر القائم على العدل، وبغياب العدل يحكم المجتمع شريعة الغاب، فيأكل القوي الضعيف ظلما.

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)، لانهم استحبوا الظلم على العدل. والمجتمع القائم على الظلم عن علم وعمد، لا يمكن ان يصل إلى الهداية الالهية خصوصا بعد اتمام الحجة عليه بالرسالة.

(وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ) بمواصلة رسالة الانبياء فتمت عليهم الحجة.

(لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ) بالمسؤوليات الانسانية التي يجب تطبيقها في الحياة الشخصية والعامة. والله العاصم.

المؤمنون بالقرآن:

قال سبحانه:(الَّذِينَ آَتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ○ وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آَمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ○ أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ○ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ○ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ).(القصص: ٥٢-٥٦).

سرد في هذا المقطع صفات المؤمنين بالقرآن الكريم، فانهم على النقيض من صفات المشركين الذين يتبعون الاهواء والمصالح الشخصية المادية فقط.

قال سبحانه:

أوّلاً: (الَّذِينَ آَتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ)، وهم اليهود والنصارى واصحاب الكتب السماوية.

(مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ)، والضميران يعودان إلى القران الكريم المفهوم من السياق، فان اصحاب الكتب السماوية عادة لا يتبعون الاهواء لاعتقادهم بالوحي وسائر الكتب السماوية السابقة لرسالة القرآن.

ثانيا:(وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ) القران الكريم من الآيات في العقيدة والشريعة.

(قَالُوا) معلنيت مصداقية القرآن امورا ثلاثة، هي:

١-(آَمَنَّا بِهِ)، لما يتضمن القران من الدعوة إلى الوحي والحكم الالهي العادل.

٢-(إِنَّهُ الْحَقُّ) الثابت، لكونه المصدق لما بين يديه من التوراة والانجيل من كتبهم.

٣-(إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ) بالتسليم إلى حكم الله تعالى.

ثالثا:(أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا)، فان الأجر على قدر العمل، والمؤمنون بالقران من اليهود والنصارى لهم أجر متابعة دينهم قبل القرآن، وأجر متابعة القران بعد الايمان، والحالان يلازمان الصبر على مبادئ الايمان.

رابعا:(وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ)، والدرء: الدفع، فيهم لا يتعاملون بالمثل في السيئة الموجهة اليهمن بل يدفعونها بالحسنة، لعلمهم بان النار لا يطفأ بالنار.

خامسا:(وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ)، فان الانفاق لما زاد عما يفتقر اليه الانسان في الحياة، مساعدة لمن يحتاجه وتخلص مما لا يحتاجه، لعلمهم بان ما لا ينفق لا يخلد لأحد، ولا يحتاح الانسان أكثر مما يفتقر اليه في الحياة.

سادسا:(وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ)، واللغو: ما لا فائدة فيه. والمراد هنا اللغو في الكلام، بقرينة السماع، وهو ما لا أثر له في الحياة، فان اللغو لا يستحق سوى الاعراض، والاهتمام بما ينفع في الحياة الشخصية أو العامة.

سابعا:(وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ)، فان الميزان عند المؤمنين هو العمل، وليس القول المجرد عن العمل.

ثامنا:(سَلَامٌ عَلَيْكُمْ)، فان القول الايماني هو الدعوة إلى السلام لأي انسان كان.

تاسعا:(لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ)، فان طلب العشرة مع الجاهلين تشجيع على الجهل، والمقاطعة معهم حصن من الانحراف.

وقد ختم سبحانه هذه الصفات بنقطة اساسية دعا اليها بقوله:

(إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ)، فان واجب الرسالة هي الابلاغ والانذار وليس من مسؤوليات الرسل الاجبار والاكراه على الهداية.

(وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ) بقدرته العليا التي تفوق أية إرادة للبشر.

(وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ) عن صدق والمتظاهرين بالهداية نفاقا، ومن يهتدي في مستقبل حياته. جعلنا الله منهم ، آمين رب العالمين.

حجة الكافرين:

قال سبحانه:(وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقاً مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ○ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ○ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ○ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ○ أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ).(القصص: ٥٧-٦١).

يشير هذا المقطع إلى حجة واحدة للمشركين، وهي الاصل لكل مواقفهمن وهي في طبيعتها حجة مادية بحتة، بيانها أن اتباع الهدى يستلزم الخسارة المادية أو الماديات والوطن وأهم من ذلك الامن.

وعقب سبحانه على هذه الحجة بعدة اجوبة تؤكد على ان فقدان الأمن أمر مادي يتوقف على اسباب موجبة لذلك، كما ان للوقاية منه اسبابن وليس الكفر والشرك موجبان للامان فقط .

وأشار سبحانه إلى ان هذه مغالطة في ذاتها، فان ردود الفعل دائما في خيارات ثلاث:

الخيار الاول: التبعية التامة من دون استغلال فكري كالقرود والكلاب التي تمثل ارادة من يملكها. وفي هذا ضياع للشخصية الانسانية من الفرد والامة بكل مقوماتها.

الخيار الثاني: المقاطعة التامة من دون اهتمام بمجريات الحضارة التي تحكم المجتمع إيجابا أو سلبا، واتخاذ مواقف ضرورية في إزاء كل منها. وهذا ما عليه مواقف الأمم العنصرية التي لا ترى الا مصالحها الذاتية.

الخيار الثالث: الاستقلال التام بالاعتماد على مقومات الفرد والعام والتجاوب مع المستجدات الايجابية ومحاربة السلبيات بقدر الامكان حسبما تسمح به الظروف والاحوال. وهذا هو الخيار الالهي المعتمد على الفكر الحر كما تمليه الفطرة الانسانية.

قال سبحانه:

(وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا)، لكثرةمن يحارب الهدى ويساند الضلالة ومخالفة الكثرة تستلزم العداء معها، وهم بحكم كثرتهم سوف يقومون بخطف القلة، والخطف: هو الاستيلاء التام على شيء. وهم يعتمدون الخيار الاول دون الخيار الثاني، وهو الاستقلال.

وقد أشار سبحانه إلى خيار التبعية بوجوه من الاستفهام الانكاري.

الخيار الاول: (أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقاً مِنْ لَدُنَّا) فإن مكة المكرمة منذ أن تكونت كان لها الاستقلال في الفكر والاقتصاد من دون أية تبعية اجنبية، فقد جعل الله لها الحرمة والقداسة وكانت ولاتزال المركز الاقتصادي الذي يحمل إليه ثمرات الاقتصاد الزراعي الذي رزق الله بها العباد.

(وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) هذه الحقيقة التي كانت متعمدة على الاستقلال الذاتي في الفكر والاقتصاد من دون تبعية أجنبية.

الثاني: (وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا)، والبطر: الطغيان بسبب توفر النعم وعدم تقدير المعيشة تقدير اقتصاديا سيلما، فان دراسة التاريخ كفيلة بمعرفة الحضارات التي بادت بسبب الاخلال بما يقتضيه الاقتصاد السليم في المجتمع، لاعتمادهم على توفر النعمة من دون شكر بالمحافظة عليها.

(فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلاً)، فان آثارهم تدل على حضارتهم الراقية في عصرها، وقد بادت تلك الحضارات واصبحت اطلالا، لعدم اعتمادها على ما امر الله به من العدل في المجتمع والاقتصاد، فكانت مأوى لطائفة من الناس لا مسكن لهم لفترة وقتية اضطرارية قليلة الامد حيث الحاجة الوقتية.

(وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ)، فان الارض وما فيها ترجع إلى مالكها الاصلي وهو خالقها تعالى، فان الهلاك لهذه الحضارات يستند إلى علل ومعلولات تنتهي إلى اهمال العدل في الحكم والنظام والاقتصاد، وفي كل ذلك مخالفة للاوامر الالهية العادلة المستوجبة للهلاك.

الثالث:(وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً)، القرية: المجتمع الانساني الذي يتواجد حول الماء، كما تتواجد النمل، وام القرى: المركز الرئيسي للمجتمعات الصغيرة المتخاصمة التي يعمها حكم من المركز، فان الله سبحانه ارسل الرسل لكافة المجتمعات الانسانية في مختلف العصور والازمان، قال سبحانه:(وما ارسلنا من رسول الا بلسان قومه) (ابراهيم:٤).

وعن مسؤولية الرسل قال سبحانه:

(يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا)، فليس مهمة الرسالة سوى تبليغ الآيات في الافاق والانفس للاعتبار بها، لتطبيق العدل الالهي في المجتمع في الحياة الفردية والاجتماعية، وان الانحراف عن المسؤولية يستوجب العذاب والهلاك لاستناده إلى الظلم.

(وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ)، فان الشعب الذي لا يلتزم بالقانون العادل لابد وان يغلب عليها شريعة الغاب، فيأكل القوي فيه الضعيف، وفي ذلك تشريع لقانون الظلم، ولا يتولد من الظلم الا الظلم المنتهى إلى الظلم العام، وفيه هلاك العباد والبلاد، بل هلاك للحضارة عامة.

الرابع:(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا)، فان ما يملكه الانسان في الحياة لابد لها من المصير إلى الزوال، فهي متاع يتمتع بها الانسان لفترة الحياة فقطن وزينة يتزين بها لفترة زمينةن فكما ان الزينة لاتستخدم دائما، بل لفترة محدودة كذلك المتعة لا تكون دائمة بل تنتهي بانتهاء أمدها في الحياة. وهذه موصوفة بالدناءة على التصغير لو قيست الى ما هو خالد.

(وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ)، فان ما يثيب الله على الاستقلال الفكري ثواب خالد لا يتغير بتغير الزمان والاحوالن فلا يقاس أحدهما بالآخر في منطق العقل.

الخامس:(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً) من الثواب الآخروي (فَهُوَ لَاقِيهِ)، لأان الله لا يخلف الميعاد (كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)؟!، فان بالمقارنة بين الاثنين يتبين البعد الكبير بينهما، وان أحدهما خالد والآخر زائل، فلا يقاس احدهما بالآخر في منطق العقل.

(ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ)، والحضورك الحشر. والسياق يقتضي أن الحضور للحساب في يوم القيامة لينال العبد جزاء الاعمال من الوعد أو الوعيد عليها نما بشر وانذر بها الانبياء والرسل عن الله سبحانه.(والله لا يخلف الميعاد) (الزمر:٢٠).

وهذه الوجوه الخمسة تكفي للوقاية من العذاب الالهي الموعود عليه في الآخرة، كما تقتضيه الفطرة الانسانية من الوقاية من الضرر المحتمل في الحياة.

يوم القيامة:

قال سبحانه:(وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ○ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ○ وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ○ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ○ فَعَمِيَتْ

عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ○ فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَعَسَى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ).(القصص: ٦٢-٦٧).

وصف سبحانه حال المشركين في يوم القيامة بحال من يواجه الحقائق ولا يجد مخرجا مما هو فيه الا بإلقاء اللوم على الاخرين، كما هي عادة الماديين في الحياة الدنيا، فلا يتحمل احد منهم مسؤولية الخطأ، بل يحاول بكل الوجوه المحتملة إلقاء المسؤولية على غيره. وقد شاهدت رغم القصر -كما شاهد غيري – العديد من الحكام بعد الاطاحة بهم وبحكمهم، من يحاول رفع التهمة عن نفسه بإلقاء الذنب على رؤسائهم، ولم اشاهدوا ولا واحدا منهم من يتحمل المسؤولية بنفسه.

قال سبحانه:

(وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ) الله سبحانه في يوم الحشر للحساب.

(فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ) في الدنيا من الاصنام أو الفراعنة الحكام.

(قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ)، والتحقيق: الثبوت. والقول: هو الحكم الفاصل لما يستحقه المشركون من العقاب على انحرافهم عن علم وعمد واختيار كامل منهمن وهم المتفرعنين من الحكام والأصنام، فهم يدافعون عن انفسهم بوجوه ثلاثة:

الاول: (رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا)، إشارة إلى المشركين الذين وقعوا في التضليل بسبب اغواء المتنفر عنين والوسائل ؟ المستخدمة فمنهم في تضليل الاخرين واستحمارهم، فالرؤساء يعترفون بالاغواء، ولكن يبرؤون انفسهم من ان يكون الاغواء

عن إجبار، بل يدعون أن المشركون قبلوا ذلك بالاختيار، فلا تكون المسؤولية على المغوين من جهة الاختيار والاكراه.

الثاني:(أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا)، فان الغواية من الجانبين كان عن اختيار من دون أي اكراه أو اجبار، فيكون كل منهم مسؤولا عن عمله بذاته، وليس مسؤولا عن عمل الآخرين، فتسقط المسؤولية عن الرؤساء بسبب الاكراه، لاستخدام كل منهم الحرية الكاملة في القرار.

الثالث:(تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ)، فإن عقيدة الشرك عن اختيار يستلزم براءة المعبود عن وزر العابد، فان كل انسان مسؤول عن نفسه وليس مسؤولا عن غيره.

وهذه الوجوه الثلاث تكفي لادانة المشركين، لانهم اعتقدوا بالشرك عن علم وعمد واختيار، من دون أي اكراه أو اجبار، والعقاب على الغواية امر آخر.

ثم وجّه الخطاب إلى المشركين للدفاع عن انفسهم، حيث لابد من فسح المجال للمتهم للدفاع عن نفسه، وذكر ذلك بوجهين:

أوّلاً:(وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ) ليخلصوكم من العقاب كما كنتم تدعونهم في الدنيا.

(فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ)، حيث انهم قد تبرؤا منهم ومن اعمالهم بحججهم المعقولة.

(وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ)، ففي حين رؤية العذاب بالمشاهدة يتمنون لو أنهم اهتدوا الى الحق في الدنيا، ولكن التمني يكون بعد فوات الاوان.

ثانيا:(وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ)، أي المشركين ورؤساهم جميعا، لاشتراكهم جميعا في الإغواء والإضلال عن علم وعمد واختيار، بلا فرق بين ان يكون احدهم سببا أم لا.

(فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ)، فان الرسالة الالهية وصلت اليهم جميعا وتمت الحجة عليهم جميعا. وجواب الرسالة من المشركين – الرؤساء والمرؤوسين– كان بالنفي والنكران عن علم وعمد واختيار، من دون أي اكراه أو اجبار.

(فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ)، فانه لا جواب على هذا السؤال الا الاعتراف المستوجب للعقاب.

وبوضوح الجواب لا يتساءل احد منهم الآخر في التخلص، لانهم جميعا يعترفون بالجريمة المستتبعة للعقاب.

ثم أشار سبحانه إلى ما تقضيه العدالة الالهية من استثناء من تاب من الشرك في الدنيا بقوله سبحانه:

(فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً) في الدنيا، فان هذه العوامل الثلاث من التوبة والايمان والعمل الصالح لها آثارها في الآخرة.

(فَعَسَى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ). والفلاح: النجاة، فان هذه اسباب للنجاة اذا كانت مقبولة عند الله بتحقق شراطها المطلوبة وخلوصها من الشرك الخفي. والله الموفق.

عقيدة التوحيد:

قال سبحانه:(وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ○ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ○ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ).(القصص: ٦٨-٧٠).

وعقيدة التوحيد تناقض الشرك في كل الصفات، في الخلق والعلم والحكم، وقد أشار إلى صفات الذات المقدسة التي تستوجب العبادة والتي تختص بالذات المقدسة، فقال سبحانه:

أوّلاً : الخلق (وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ)، فان خلق السماوات والارض وغيرهما من الآيات الكونية صفة تختص بالذات المقدسة التي على كل شيء قدير.

ثانيا: الاختيار (وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ)، فان الاختيار في نظام الكون بالاسباب والمسببات ليس الا للقدرة العليا من القادر المتعال دون سواه.

ثالثا: التنزيه (سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ)، فان التسبيح، وهو النزية عن كل ما لا يليق، يختص بالذات المقدسة العلى القدير.

رابعا: العلم (وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ)، وليس للعلم الالهي حدّ، كما هو الحال في معبودات المشركين المحدود علمهم بالماديات.

خامسا: التوحيد (وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ)، فانه منزه عن الشركة بكل الوجوه والاعتبارات والمظاهر التي لا تكون الا مادية، وهو منزه عنها.

سادسا: الحمد (لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ) بالخلق في الحياة الدنيا، والنشر في الحياة الاخرة، فان كل ذلك سائر على نظام دقيق قائم على العدل.

سابعا: الحكم (وَلَهُ الْحُكْمُ) العادل في الحساب يوم القيامة.

ثامنا: النشر (وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) في يوم القيامة كما بدأ الخلق أول مرة.

فان هذه الصفات المختصة على حقيقتها بالذات المقدسة تستوجب التوحيد ورفض الشرك في كل ألوانه ومظاهره.

من آيات الله:

قال سبحانه:(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ○ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَداً إِلى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ○ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ○ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ○ وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ).(القصص: ٧١-٧٥).

في هذا المقطع سرد للآيات الكونية المحسوسة التي يستوجب النظر اليها عقيدة التوحيد ورفض الشرك بكل صوره ومظاهره، لمناقضة صفة الشرك للقدرة العليا الحاكمة على الكون.

قال سبحانه:

أوّلاً: (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلى يَوْمِ الْقِيَامَةِ)، والسرمد: الدوام، فان هذه الحالة على فرض حدوثها تستلزم انعدام الحياة على الارض، لتوقف الحياة الانسانية على النبات والحيوان، وتوفقهما على نور الشمسن وبانعدام النور يستلزم انعدام الحياة في النهاية.

(مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ) كالشمس الذي تتوقف عليه الحياة عامة في الكون من انسان وحيوان ونبات، فان القدرة العليا التي خلقها هي القادرة على ذلك دون سواه.

(أَفَلَا تَسْمَعُونَ) الآيات والنذر والرسل في الدعوة إلى تحكيم العقل في تحديد من يستحق العبادة؟ حيث لا يستحقها سوى الذات المقدسة.

ثانيا: (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَداً إِلى يَوْمِ الْقِيَامَةِ)، فان الحال مشابه لما سبق من حيث النتيجة.

(مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ)، فان الحياة تفتقر إلى السكون والراحة في الليل، كما يفتقر إلى العمل والجهد في النهار.

(أَفَلَا تُبْصِرُونَ) الايات الكونية من اختلاف الليل والنهار بما يفتقر اليه الحياة في الكون، في نظام متناسق ينتهي في سلسلة العلل والمعلولات إلى الله تعالى.

ثالثا: (وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ) باختلافهما وتعاقبهما من حيث الفصول الاربعة، ولكل منها الدور الطبيعي المختص به.

فبالنسبة إلى الليل (لِتَسْكُنُوا فِيهِ)، للراحة استعدادا للعمل في اليوم التالي.

وبالنسبة إلى النهار (وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ) تعالى بالعمل الهادف في الحياة.

(وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) على رحمة الله تعالى.

وهذه الرحمة العامة الالهية التي وسعت كل شيء تستوجب التوحيد ورفض الشرك.

ثم ختم ذلك بالإشارة إلى موقف المشركين في يوم القيامة بقوله:

(وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ) الله سبحانه في يوم القيامة مخاطبا المشركين على سبيل الاستفهام الانكاري.

(فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ) له الشركة في العبادة، كالاصنام أو الفراعنة الحكام؟!!.

وحيث لا جواب بعد مواجهة الحقيقة، يدعوا الله سبحانه إلى الشهادة من الانبياء والرسل، فقال:

(وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً)، والنزع : الاخراج، حيث يدعوا سبحانه الانبياء للشهادة بدورهم المسؤول في الدنيا من الدعوة إلى التوحيد.

ثم يتوجه سبحانه بالخطاب إلى المشركين بعد شهادة الشهود.

(فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ). وبهذا تنتهى مرحلة المحاكمة العادلة التي لم يحكم فيها الا بعد اقامة الدعوة وشهادة الشهود، والطلب من المدعي عليه الحجة والبرهان، وحيث ان كل عناصر الحكم تامة فلا محالة:

(فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ)، والحق: هو الثبوت والدوام، فلا يثبت على حقيقة سواه سبحانه.

(وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ) من الشرك على الله سبحانه، سواء الاصنام أو الفراعنة الحكام.

من تاريخ قارون:

قال سبحانه:(إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ).(القصص: ٧٦).

يستعرض في هذا المقطع من تاريخ قارون ما به العبرة للاجيال المتأخرة، فيعرض المواقف المنافقة في المبدأ والمسير والمصير في حياة قارون المجهولة تفاصيلها سوى ما نص عليه القران الكريم، بانه كان من قوم موسى الباغين. وفي الروايات انه كان ابن خالتة موسى، وفي التوراة سفر العدد، الاصحاح ١٦، قصة معارضة موسى من قبل قورح بن يصهار بن قهات بن لاوي(١)، وان الارض ابتلعتهم. والطبقة في النسب تساعد ان يكون قورح هو قارون بالعبرية، فان موسى هو ابن عمران بن كوش بن لوي، فكل من قورح وموسى يجتمعان في لاوي بواسطتين. (راجع شجرة الانبياء ، في سورة الانعام، الآيات: ٨٤-٨٧).

---

(١) في التوراة سفر العدد، الاصحاح ١٦، قصة معارضة موسى من قبل قورح بن يصهار بن قهات بن لاوي ، وداثان وأبيرام ابنا أليـاب ، وأون بن فالت من سبط رأوبين ، ٢ يتآمرون على موسى ، مع مئتين وخمسين من رؤساء جماعة بني إسرائيل ، ذوي المكانة ممن تم تعيينهم في المجلس . ٣ هؤلاء تألبوا على موسى وهارون وقالوا : حسبكما ! إن كل الجماعة بأسرها مقدسة ، وفي وسطها الرب . فما بالكما تترفعان على جماعة الرب؟. (راجع: التوراة والإنجيل – موقع arabicbible – ص ٢٦٢، فصل ١٦،تمرد قورح وداثان وأبيرام).

وقد وصف سبحانه قارون بالاوصاف التالية:

الاول: (إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى) سواء بالنسب القريب من جهة الام بان يكون ابن خالتهن أو من جهة الاب لاجتماعها بواسطين في الجد الاعلى (لاوي)، فهو على كل حال من قوم بني اسرائيل.

الثاني: (فَبَغَى عَلَيْهِمْ)، والاسباب الداعية إلى البغي والعصيان كثيرة، شخصية واجتماعية أو عائلية او سياسية، وهي تنتهي جميعا إلى نقطة واحدة وهي المعارضة للمبادئ، وحيث ان دعوة موسى دعوة دينية تستند الى الوحي الالهي، فان البغي من قارون لابد وان يستند إلى عبادة المادة والماديات، وقد اوضح ذلك تعالى بقوله:

الثالث: (وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ)، والكنز: ما يدخر للتنافس، من المال سواء بالدفن في الارض أو بالحرز في الصندوق والبنك وما شابه، فقد آتاه الله القدرة والعلم في طرق استثمار المال وادخاره، وقد وصف كثرة المال بقوله:

(مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ)، و (ما) موصولة، والنوء: الثقل، والعصبة: الجماعة فوق العشرة إلى الخمسين، فكان له الكنز الذي يكون مفتاحة ثقيلا على الجماعة أولى القوة، فاذا كان المفتاح بهذا الثقل لابد وان يكون الكنز أثقل، وكثرة الكنوز يدل على تعددها، وربما بحسب ما تحتويه من انواع المجوهرات فيها اضافة إلى المال من النقدين.

وهذه الصفات الثلاث بالاجمال تشير إلى التفوق المادي الاقتصادي لقارون في قوم بني اسرائيل، الذي أدى الى طغيانه واعلان المعارضة لدعوة موسى.

وقد أشار سبحانه إلى تناقض مواقف قارون بالنسبة الى المواقف القائمة على الايمان باللهن والمواقف القائمة على المادة في المبدأ والمسير والمصير، التي لا تخلو منها الافراد والامم على مر التاريخ، ليكون عبرة لمن اراد الحركة برؤية واضحة في الحياة، فقال:

أوّلاً - في المبدأ:

قال سبحانه:(إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ○ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ○ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ).(القصص: ٧٦-٧٨).

أشار سبحانه إلى المبدأ الايماني المناقض للمبدأ المادي، بقوله سبحانه:

(إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ)، و (اذ) ظرف متعلق بالفعل المفهوم من السياق، أي اذكر مقولة صلحاء القوم الناصحين المنذرين من عواقب البغي والطغيان في اى فرد أو امة أو زمان أو مكان، وقد تلخصت هذه المقولة الناصحة في نقاط:

أوّلاً: (لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ)، فان الفرح يحصل عند الافراط في السرور، ويكون باظهار السرور النفسي بالمظاهر الماديةن والسرور النفسي أمر غير اختياري لا يتعلق به نهي، واما اظهار ذلك فلابد ان يكون في حدود لا تتجاوز شكر النعمة، ومن ذلك البذخ والاسراف الذي يمقته الله في الحياة الشخصية والاجتماعية والاقتصادية.

ثانيا: (وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ)، فان المال انما هو وسيلة لتحقيق الاهداف المطلوبة منها، وليس امرا مطلوبا في نفسه، فيجب تحقيق ما يكون نافعا في الحياة من المال.

ثالثا: (وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا)، فان التوازن بين الدنيا والاخرة أمر يحبذه الدين، ومن ذلك استخدام المال في دعم الاقتصاد الذي ينفع المجتمع عامة.

رابعا: (وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ)، باستثمار المال فيما يكون احسانا للفقراء والمحتاجين والمرافق العامة التي يفتقر اليها المجتمع في الحياة.

خامسا: (وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ)، والفساد: ما يستند إلى الظلم، وهو الانحراف عن العدل، ومن ذلك الاسراف في المال.

وهذه النقاط الخمس تمثل المبدأ الايماني .

والى المبدأ المادي أشار بقوله:

(قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي)، وهو حصول المادة باستثمار المال بالطرق التي يعلمها صاحب المال، وعليه يكون لصاحب المال ان يتصرف فيها كيفما يشاء، سواء بالاسراف أو بغيره.

وقد غفل حسب المنطق المادي عن ان العلم الذي عنده يستند إلى العقل الذي وهبه الله له، وأن كل ذلك ينتهي إلى الله في سلسلة العلل والمعلولات، ومن وهبه يمكنه ان يسلبها ممن لا يشكرها.

وفنَّد سبحانه هذا المنطق المادي بقوله:

(أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً)، فالقرون: الامم السابقة من الحضارات المادية التي لا تزال لها أطلال من طاق كسرى واهرام مصر واطلال تدمر، فانها جميعا كانت تبتني على المنطق المادي البحت، وهي في القوة اشد من كنوز قارون، والكثرة: أجمع مما جمعن فلم يكتب لها الخلود.

(وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ) بعد تحقق الاجرام فيهم، وتمامية الحجة عليهم. وهذا التباين في المبدأ الايماني المادي قائم في كل العصور والظروف بالسير على المبادئ المتناقصة يكون كذلك متباينا في العمل.

ثانيا – في المسير:

قال سبحانه:(فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ○ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ).(القصص: ٧٩-٨٠)ز

وحيث ان السائر على المبادئ المتناقصة يكون كذلك متناقضا في العمل فقال سبحانه عن عمل لقارون الملازم لنظرته الماديةك

(فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ)، وليس لهذا الخروج من سبب سوى اظهار الجبروت والاستعلاء والقوة لا غير، وما أشبه هذا الخروج بما نعاصره من خروج الرؤساء والطغاة في عصرنا مفتخرين بالعادات الجاهلية البالية، لا لشئ سوى التفاخر، في حين ان الشعوب تئن من الفقر والمرض والأمية. ولو صرفت هذه الاموال في خدمة الامة لمحت الفقر والمرض منها.

ثم أشار سبحانه إلى ردود الفعل الطبيعية لهذه المظاهر من الناس ، وهم بين مؤيد ومعارض، وعن الموقف المؤيد قال :

(قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا)، لان رؤيتهم رؤية مادية بحتة.

(يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ) من المال الذي يفتخر به على الآخرين.

(إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ) من الحياة في رفاهية من العيش في المادة والماديات.

وعن الموقف المعارض قال:

(وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ)، فان المادة والماديات خاصة بفترة زمنية زائلة لامحالة، وأما ما يثيب الله الانسان لا يزول بل يستمر، فان الابتهاج بالاحفالات بهذه المفاخر والمظاهر وقتية، تزول في مرور الزمن، وأما ما ينفع الناس مما يثيب الله عليه كالتثقيف ومحو الأمية له آثار دائمة في الشعوب والاجيال القادمة .

وقد أشار إلى ثلاث من المواصفات التي تستلزم ثواب الله، وهي:

١-الايمان: (لِمَنْ آمَنَ)، فان الايمان هو المبدأ الاساس في الحياة الفاضلة.

٢-العمل: (وَعَمِلَ صَالِحاً)، والايمان بالله يدعوا إلى العمل الصالح في كافة محالات الحياة.

٣-الصبر: (وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ)، ومرجع الضمير (الحياة الفاضلة) المفهمومة من السياق، لانها مثوبة من الله وليس من المبدأ المادي البحت.

ثالثا – في المصير:

قال سبحانه:(فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ○ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ○ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ○ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ).(القصص: ٨١-٨٤).

والنتائج للمبادئ المتناقضة كذلك تكون متباينة في المصير، اما عن مصير الموقف المادي فقال بالنسبة إلى قارون كما هو مصير كل ظالم:

أوّلاً: (فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ)، والخسف – لغة-: الذل، ومنه سقوط السقف، فان التفاخر بالعمارات المادية الشاهقة سوف تقسط لا محالة بعد فترة زمنية.

ثانيا: (فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ)، فان الجماعات التي تصفق للظالم انما هو في حال قوته ومكنته، ولكن بعد تزعزع اركان حكمه يتخاذلون عن نصرته وحتى اقرب المقربين اليه.

ثالثا: (وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ) لعلمهم بان الانتصار لا ينفعهم شيئا، فانهم اعرف من غيرهم بفقدان أية فائدة مادية من النصر حينئذ، فان الحكم القائم على المادة لابد وان ينهار بفقدانها.

وطبيعي أن ردود الفعل بعد المصير الأسود تكون مختلفة، والى رد الفعل لموقف الماديين أشار بقوله:

(وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ) معلقين على مقارنة الحالتين المتفاوتتين من الامن في الطغيان المادي، ومن الذل الذي اصابه بعد ذلك:

أوّلاً: (وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ)، وكلمة (وي) تدل على الندامة على الموقف المادي البحت، والشعور بالموقف الايماني بان الرزق ليس من ارادة الانسان نفسه، بل ان الرازق هو الله، يبسطه لمن يشاء من العباد ممن يستخدم الطرق العادلة بالسعي اليه، ويؤدي واجبه في الحفاظ عليه، دون غيره فانه اللخ تعالى سوف يضيق على من لا يؤدي واجبه في الرزق من الشكر للحفاظ عليه.

ثانيا: (لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا)، فيمن خسف به من الجبابرة، لما سبق من تمني مثل ذلك لانفسهم، فان التمني للشئ يستلزم ما يستلزمه ذلك الشئ، وقد من الله عليهم بالخلاص من الخسف.

ثالثا: (وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ)، (وي) للندامة على الموقف المادي البحت، للشعور بان النجاح لا يكون للكافرين بمبدأ الايمان بالله .

والى رد الفعل من الموقف الايماني أشار بقوله:

أوّلاً: (تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ)، وهي الدار الاخرة في الدنيا، وليست الدار الخالدة في الاخرة، فان الجزاء في الاخرة للجميع.

(نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ) بالجبروت والطغيان، بل يريدون العمل بالمسؤوليات التي اوجبها الرحمن.

(وَلَا فَسَاداً)، وهو كل عمل يستند إلى الظلم بالانحراف عن العدل.

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)، لان وقايتهم عنما يوجب العقاب تجعلهم في حصانة من العذاب.

ثانيا: (مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا)، كما وعد الله سبحانه بقوله: (من جاء بالحسنة فله عشر مثلها). (الانعام:١٦٠).

فان عامل الحسنة يضرب مثلا يقتدى به في الحياة، فيستحق أجر العمل وأجر التعليم بالمثل.

ثالثا: (وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)، كما تقتضيه العدالة الالهية في ان يعاقب صاحب الجريمة دون غيره ممن لايباشرها.

وقصة قارون تمثل المبدأ المادي المناقض لمبدأ الايمان في الاساس والعمل والآثار، ولا تخلوا منها حياة فرد من الافراد أو امة من الامم، و كل الظروف والاحوال فالانسان فيها بين خيارين: اما شاكر واما كفورا.

ختام السورة:

قال سبحانه:(إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلى مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ○ وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِلْكَافِرِينَ○ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلى رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ○ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ).(القصص: ٨٥-٨٨).

وختم سبحانه السورة بخلاصة في رسالة الاسلام التي تشارك الرسالات السماوية السابقة في كتابها السماوي ومبدئها الايماني وشخصية الرسول والمسؤوليات القيادية التي تحملها ليكون اسوة للمسلين عامة.

فأشار سبحانه إلى الكتاب السماوي بقوله:

أوّلاً: (إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلى مَعَادٍ)، فقد اوجب الله على الرسول مُحَمَّد (ص) اعلان القراءة لهذا القران الكريم، الذي هو آخر الكتب السماوية، مؤكدا على التلويح إلى المعاد، وهو ما يعاد اليه من الوحي الالهي مصدقا للكتب السماوية التي قبله من تطبيق العدل الالهي في المجتمع.

وأشار إلى مبدأ الوحي الالهي بقوله:

ثانيا: (قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)، فان دعايات الكفار والمشركين باتهام النبي مُحَمَّد (ص) وغيره من الانبياء بالسحر والكذب وما شابه، لا يغير من الحقيقة شيئا، لان الله اعلم بالحقيقة من الناس اجمعين.

والى شخصية الرسول أشار بقوله:

ثالثا: (وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ)، فان الوحي انما هو باختيار الله سبحانه، وليس من اختيار الرسل أنفسهم، ولم يكن النبي مُحَمَّد (ص) بشخصه يعلم بهذا الاختيار، فلا تسند امر الرسالة الا الله سبحانه وحده، فهو الذي يصطفي لرسالته من يشاء من عباده، وهو على كل شيء قدير.

(إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ)، والاستثناء منقطع، فان الاصطفاء للرسالة رحمة من الله يختص الله بها من يشاء من عباده.

ثم أشار إلى نقاط من المسؤوليات القيادية للرسالة المحمدية التي يجب ان تتخذ أسوة للمسلمين:

الاولى: (فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِلْكَافِرِينَ)، فان المبدأ الايماني يناقض المبدأ المادي، وهما في خطين متوازيين لا يلتقيان مهما طال الزمان، وفي أي مكان، حيث انه ليس بعد الحق الا الضلال.

الثانية: (وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ)، والآيات كما هو مفهوم من السياق: آيات التشريع، فانها قبل النزول ليست فريضة، وبعد النزول يكون تشريعا لا يمكن ان يكون في طريق نطبيقها أي مانع، فتكون المحاولات للصد أو المنع عنها بأية وسيلة مرفوضة .

الثالثة: (وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ)، فان الدعوة الاسلامية يجب ان تستمر في مسيرتها مهما واجهت من الصعوبات حسب الظروف والاحوال.

الرابعة: (وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)، وذلك بالمقاطعة والبراءة منهم، لعدم وجود رابطة جامعة بين الايمان والشرك.

الخامسة: (وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ)، كما يدعي المشركون، بدعوى ان الآلهة الاخرى مظاهر لصفات الله تعالى، فانه لا يجتمع التوحيد مع الشرك في شئ قط.

وهذه النقاط الخمس من المسؤوليات الرسالية في الشريعة المحمدية نافذة تامة في القيادة والقاعدة بلا استثناء.

ثم أشار إلى أن حتمية هذه النقاط تستند إلى امور ثلاثة:

أوّلاً: (كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ)، والوجه: الجهة، وهي جهة التوحيد الخالص.

ثانيا: (لَهُ الْحُكْمُ) في الخلق بالايجاد والتقدير في الحياة الدنيا.

ثالثا: (وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) في يوم الحشر للحساب العادل ثوابا أو عقابا.

فان المبدأ الايماني يستند إلى رؤية واضحةن لاستناد الحياة إلى علل طبيعية تنتهي في سلسلة العلل والمعلولات إلى ارادة الله سبحانه، وهي خاتمية الرسالة المحمدية بتطبيق القران الكريم في كافة مجالات الحياة الفردية والاجتماعية وغيرها.

سورة العنكبوت

(٢٩)

مكية في قول عكرمة وعطا والكلبي. عددها (٦٩) بلا خلاف.

وسميت السورة بالعنكبوت، لورود المادة فيها مرتين في قوله تعالى:(كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وان اوهن البيوت لبيت العنكبوت). (الآية:٤١).

ولم ترد المادة في أي موضع اخر من القران الكريم.

استفتح السورة بالحروف المقطعة (الم) من دون تعقيب لها باوصاف القران الكريم، وتتضمن السورة التنويه الى الفتنة، بمعني الامتحان الذي يرافق الايمان في كل أدوار التاريخ البشري، مستعرضا الفرق بين الفتنة والعذاب، ومبادئ الايمان والكفر، وأنواع الامتحانات التي سبقت في تاريخ الانبياء والرسل من قبل، ابتدءا من النبي نوح , وابراهيم, ولوط, وشعيب, وانتهاءا بالنبي موسى وما لاقاه من قارون رمز المعارضة الداخلية وفرعون رمز العداوة الخارجية وهامان رمز المؤازرة في العداء.

ثم أشار إلى تمثيل الأساس الذي يقوم عليه الكفر، وانه كبيت العنكبوت الذي لاستقرار فيه، ثم الى امتحان المؤمنين بالصلاة.

ثم أشار إلى امتحان النبي مُحَمَّد (ص) في مواقف المشركين ضد دعوة التوحيد.

ثم أشار إلى جزاء كل من الكفار والمؤمنين حسب استحقاق من اعمالهم.

وفي ختام السورة أشار إلى ان التوحيد فطرة انسانية تظهر في مواقف الانسان المجردة عن التقليد الاعمى، وان النصر والهداية للمحسنين في الدنيا.

ولو كانت تسمية السور اختيارية باعتبار مضامينها لكان تسمية هذه السورة بسورة الامتحان أولى، لوحدة موضوعها، فان الوحدة الموضوعية فيها تامة، كما هو الحال في سورة يوسف.

مقدمة السورة:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(الم○ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آَمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ○ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ○ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ○ مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآَتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ○ وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ).(العنكبوت: ١-٦).

تستفتح السورة بالحروف المقطعة (الم).

وقد تكررت في القرآن سته مرات، في ثلاث منها بتبع وصف القران الكريم، وهي قوله:

١- (الم ذلك الكتاب) (في البقرة الاية :١،٢).

٢- (الم تلك الكتاب الحكيم) (لقمان:١).

٣-(الم تنزيل الكتاب لا ريب فيه) (السجده:١).

وثلاث منها غير مستتبعة بالوصف وهي:

٤- (الم الله لا اله الا هو الحي القيوم) (ال عمران:١).

٥- (الم احسب الناس) (هذه السورة).

٦- (الم غلبت الروم) (الروم:١).

وكما ترى كلها في مفتتحات السور من المقطعات، والنسبة المتساومة في ذكر الاوصاف وعدمها قد ينبئ عن ظهورها في انها للتنبيه على كون القران مكون من الحروف الهجائية المستخدمة في الحياة العامة. (راجع ما ذكرته في دراسة حول القران الكريم) .

الفتنة والامتحان:

وتشمل مقدمة السورة على ان الفتنة – وهي بالمعنى اللغوي: الامتحان والاختبار – أمر ضروري في الحياة، لان بالامتحان تظهر حقيقة الانسان في اعماله وليس بالأقوال والدعاوي. وان هذه هي سنة الحياة في كل مرافقها الحضارية في الماضي والحاضر والمستقبل، ولا تختلف مسألة الايمان عن هذه السنة الحياتية، فان الايمان يستلزم العمل، وعند الامتحان يكرم المرء أو يهان. ويستحق ما لأعماله من الآثار في الدنيا والآخرة.

فأشار إلى ذلك سبحانه بالاستفهام الانكاري بقوله:

(أَحَسِبَ النَّاسُ)، أي كل الناس في الحياة، بمختلف الحضارات في الحاضر كما في الماضي والمستقبل.

(أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آَمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ)؟، فان الفتنة بمعنى الامتحان أمر ضروري في الحياة دائما.

ثم أشار إلى مصداقية هذه الحقيقة في التاريخ الماضي والتي تشير إلى مصداقيتها في الحاضر والمستقبل بقوله:

(وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ) من الامم الماضية كما ستأتي الاشارة اليه في الامتحانات في عهود الانبياء والرسل من قبل.

والى الحكمة من هذه الفتنة أشار بقوله:

(فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ)، وحيث ان الله سبحانه عالم بالذات قبل الامتحان وبعده، فيكون المراد لا محالة من العلم اظهار علمه بما يترتب على الاعمال من الثواب والعقاب، فانه عند الامتحان يظهر الصدق والكذب للاقوال بواقع الحال من الاعمال وما يترتب على كل منهما من الآثار.

ثم أشار إلى ضرورة العدل الالهي في جزاء الاعمال بقوله:

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا)؟ ، والسبق: الفوت، وهذا استفهام انكاري، فان المكذبين بالاعمال يظنون ان العدل الالهي يفوتهم، ولا يشملهم العقاب الذي يستحقونه، فأنكر الله سبحانه ذلك عليهم، بأنهم لا يتقدمون على ارادة الله في تنفيذ حكمه العادل.

(سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ) من الظن السيئ بالحكم الالهي، فان العدل الالهي تشملهم لا محالة مهما كانت ظنونهم الباطلة.

وأشار في نتيجة العدل الالهي إلى امرين:

الاول : بالنسبة إلى العقيدة: (مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ) من الثواب الذي وعد الله المؤمنين على الايمان.

(فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآَتٍ)، لان الله سبحانه لا يخلف وعده. (الزمر :٢).

(وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)، يسمع دعاء المؤمنين، وهو أيضا عليم بما فيه صالحهم في الحاضر والمستقبل.

الثاني: بالنسبة إلى الجزاء: (وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ)، فان جزاء العمل يتقدر بحسب العمل نفسهن فيكون الجزاء متفاوتا بالدرجات حيث تتفاوت الجهود التي يبذله الانسان، قال سبحانه: (وان ليس الانسان الا ما سعى وان سعيه سوف يرى) (النجم:٣٩).

فان لكل من مبادئ الايمان والكفر آثارا في الدنيا والاخرة تترتب على الامتحان في الحياة.

مبادئ الايمان:

قال سبحانه:(وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ○ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ

بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ○ وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ).(العنكبوت: ٧-٩).

أشار إلى اهم مبادئ الايمان وهو حقوق الوالدين التي تتجلى فيها كل الالتزامات الدينية ايجابا أو سلبا.

قال سبحانه:

أوّلاً: (وَالَّذِينَ آَمَنُوا) المبدأ الاول هو الايمان بالله، ومنه تتفرع كل المبادئ الاسلامية في الحياة بالنسبة إلى النفس والاسرة والمجتمع.

ثانيا: (وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)، فان الايمان المجرد من العمل الصالح ايمان ناقص ولا يكمل الا بمقارنته بالعمل الصالح على اختلاف انواعه وصوره، مما ينفع المجتمع ومن نتائج ذلك الوعد الالهي بقوله:

(لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ) التي تمسحها التوبة منهم كما يقتضيه الايمان.

(وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ)، فانهم يستحقون جزاء عادلا، والأحسن في الجزاء: التضعيف كما قال سبحانه:(من جاء بالحسنة فله عشر امثالها). (الانعام:٦).

ثالثا: (وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً)، والحسن: مفعول مطلق عامله مفهوم من السياق وهو العمل أو القول أو غيرهما مما يقتضيه مقام التعامل مع الابوين بالطاعة لهما بما يرضيها في الحياة.

ولم يستثن سبحانه من ذلك سوى الشرك بقوله:

(وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا)، لان طاعتهما يناقض طاعة الله سبحانه، ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق. (راجع المادة في المعجم).

وأشار الى أن الحكم في ذلك راجع الى الله سبحانه، بقوله:

(إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) في يوم الحساب، فيثيب المطيع ويعاقب العاصي.

(وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ)، فيشملهم الثواب الذي يعم الصالحين خاصة بسبب اعمالهم الصالحة.

مقارنة باطلة:

قال سبحانه:(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آَمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ○ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ).(العنكبوت: ١٠-١١).

ان الفتنة بمعنى الامتحان شئ، وبمعنى العذاب الالهي شئ آخر، ولا تقارن بينهما، فان الامتحان يمر به كل انسان في حياته، بل في كل لحظة من اعمالة العادية يكون مراقبا من تربيته علما أو صنعة ليرى اتقانه فيما تعلم واستعداده للتخطي إلى درجة متقدمة في طريق التكامل في العلم أو الصنعة أو غيرهما من شؤون الحياة. وهذا يعم المؤمن والكافر.

ومن جانب آخر فان العذاب الالهي عقاب يستحقه من يتعدى الحدود التي فرضها الله. وهذا مختص بالكافر ولا يعم المؤمن.

قال سبحانه:

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ)، وهو لا يتوقع الامتحان الذي يلازم الايمان كما يلازم أي عمل اخر.

(فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ) لما يستلزم الايمان من ردود فعل امتحانا، كما هو الحال في كل مرافق الحياة من لوازم العمل الطبيعية من التعب والاذى والارهاق.

(جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ)، مع ان الفرق بينهما كبير، فان الامتحان للناس عامة في كل مراحل الحياة سواء الايمان أو الكفر أو غيرهما، قال سبحانه:(فانهم يألمون كما تألمون وترجون من الله مالا يرجون). (النساء:١٠٤).

(وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ)، وهذا ناتج من الرؤية الضعيفة للاهداف، كما هو الشأن في المنافقين الذين لا يرون الا ما يخدم مصالحهم المادية.

وقد علق سبحانه على هذه الرؤية الضعيفة استنكارا بقوله:

(أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ)؟، فان علمه تعالى عين ذاته، ولا يخلوا منه شيء (يعلم خائنة الاعين وما تخفي الصدور).(غافر:١٩).

والى حكمة التي تظهر من امتحان المنافقين أشار بقوله:

(وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا)، بان يظهر علمه سبحانه بايمانهم عن اعتقاد صادق.

(وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ) بظهور نفاقهم من حيث العمل وإهمال الواجب عند الامتحان.

مبادئ الكفر:

قال سبحانه:(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آَمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ○ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ).(العنكبوت: ١٢-١٤).

أشار سبحانه إلى اهم مبادئ الكفر، وهو الكذب، فان مبادئ الكفر جميعا ينتهي إلى الكذب في العقيدة، حيث يعبد الكافر ما لا يستحق العبادة من الاصنام والفراعنة الحكامن عالما بعدم استحقاقهم ذلك. ويعتمد في الحياة على الافراد والجماعات الذين لا يصح الاعتماد عليهم في معيار الصدق.

قال سبحانه:

أوّلاً: (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آَمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ)، فان من صفات الكفر البارزة الوعود الكاذبة المجردة عن العمل في ما لا يمكن الوقاية منه، ومن ذلك تحمل المسؤولية التي ليست بامكانه، كل ذلك اغراءا وكذبا.

ثانيا: (وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ)، لان الوعد الفارغ تظهر من بوادره، فان المتمكن لا يعدن بل يعمل. وهذا يعد ولا يعمل شيئا.

(إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ) في وعدهم، لانهم يعدون ما لا يتمكنون منه في الحال. ومنه يظهر كذب دعواهم في تحمل المسؤولية في المستقبل.

ثالثا:(وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَعَ أَثْقَالِهِمْ)، فان أثقالهم هي ضلالة انفسهم باختيارهم عن علم وعمد، واثقال غيرهم للتضليل والاغراء بهمن فتكون الاثقال مضاعفة حسب درجات التضليل.

رابعا:(وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ)، فان الحساب للاعمال عامة كما يقتضيه العدل الالهي في المحكمة الكبرى يوم القيامة. ويتعقب السؤال ما يستحقه من العقاب المستوجب بالافتراء. والله العاصم.

الامتحان في عهد نوح:

قال سبحانه:(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَاماً فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ○ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ).(العنكبوت:١٤-١٥).

أشار سبحانه إلى سلسلة من الامتحانات التي مرت به البشرية في التاريخ مبتدأ بعهد نوح حتى عصر الرسالة المحمدية، وما استتبعت الامتحانات من الجزاء العادل ثوابا أو عقابا لمن يستحقها في الدنيا.

قال سبحانه عن النبي نوح:

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ) بالرسالة الداعية إلى التوحيد ورفض الشرك في كل مظاهره. (راجع شجرة الانبياء ، في سورة الانعام، الآيات: ٨٤-٨٧).

(فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَاماً)، والفاء للترتيب، وحيث عقب سبحانه الارسال باللبث فتكون المدة (٩٥٠) عاما، وهي فترة الوحي وتسبقها فترة ما قبل الوحي. وذكرت نصوص الروايات انه كان عمره عند البعث اربعين سنة ، وهو ما يقتضيه الاعتبار. وانه عاش بعد الطوفان ستين عاما، فيكون مجموع عمره المفروض ألف وخمسين عاما، والله اعلم. (راجع المادة في المعجم).

وكانت رسالته امتحانا للناس لاختيار الايمان أو الكفر. وعن نتيجة الامتحان قال سبحانه:

أوّلاً: بالنسبة الكفار: (فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ)، وهو ما يطفو من الماء بحيث يستولي على ما عداه، كما هو مشروح في قصة نوح. (وراجع المادة في المعجم) لاستحقاقهم ذلك بالظلم والعصيان عن علم وعمد.

ثانيا: قال بالنسبة إلى المؤمنين (فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ)، لاستحقاقهم ذلك بالايمان من القمة إلى القاعدة.

(وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ) من الحضارات المتأخرة عنها ليعتبروا بنتائج الايمان والظلم. وما اكثر العبر واقل الاعتبار.

الامتحان في عهد ابراهيم:

قال سبحانه:(وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ○ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَاناً وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ○وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ).(العنكبوت: ١٦-١٨).

أخبر سبحانه عن أبي الانبياء ابراهيم رسالته الداعية إلى التوحيد بكل صلابة، وعن الاساليب التي سلكها في نجاح الدعوة وما يستلزم ذلك من الامتحان الصعب في الحياة مع من تنكر لهذه الدعوة.

والى محتوى الرسالة أشار بقوله:

أوّلاً: (وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ)، فان توحيد العبادة امر طبيعي لمفهوم العبادة، فانها لا تجب الا لمن يستحقها بالكمال، وهو الذات المقدسة المنزهة عن جميع الصفات التناقضة للكمال، ومنها التجسيم.

ثانيا: (وَاتَّقُوهُ)، فان الوقاية من العذاب يجب ان يكون ممن يستحقه بالكمالن وليس سوى الذات المقدسة.

وقد سرد ابراهيم امورا تستوجب هذه العبادة والتقوى، فقال:

الاول: (ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)، فان العبادة لمن يستحقها بحكم الفطرة الانسانية، وما يضاده سلب لهذه الفطرة الانسانية، والوقاية من العذاب دفع للضرر المحتمل، والعاقل يتجنب عما يحتمل فيه الضرر، وذلك خير للانسان في الدنيا والاخرة.

الثاني: (إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَاناً)، والوثن: الصنم الذي لا يملك ارادة أو عقلا، وعبادة الصنم تنقيص للانسان من مرتبته العاقلة في تحكيم العقل إلى سلب ما يقتضيه العقل، كما هي المرتبة الحيوانية.

الثالث: (وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً)، والافك: الكذب البين، فان الصفات التي يطلقها الوثنيون على الاصنام صفات جسمية حيوانية، وفاطر السماوات والارض منزه عنها بالفطرة، كما هو مشروح في علم الكلام.

الرابع: (إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً)، فان موارد الرزق الطبيعية هي النبات والحيوان والمعادن الطبيعية كالماء، ليست محكومة لما سوى الله

سبحانه، والاصنام والفراعنة الحكام عاجزون عن خلقها وان تمكنوا منالسيطرة عليها واستثمارها بواسطة العقل الذي وهبهم الله .

وأشار إلى نتيجة هذه الحقائق الاربع بقوله:

أوّلاً: (فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ)، فان خلق الرزق ينتهي في سلسلة من العلل والمعلولات الطبيعة الى الله.

ثانيا: (وَاعْبُدُوهُ)، حيث لا يستحق العبادة حقيقة سواه.

ثالثا: (وَاشْكُرُوا لَهُ)، فان النعمة تفضل من الله سبحانه، ولكل فضل شكر.

رابعا: (وإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) في يوم القيامة للحساب العادل، والعقاب على رفض الحق عن علم وعمد.

وختم ذلك بالإشارة إلى مسؤولية الرسالة بقوله:

(وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ)، كما هو الحال في كل رسالة، فهي تواجه مؤمنين ومنكرين.

(وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ)، وليس من شأن الرسول التنفيذ قبل التشريع. وقد ابلغ أبو الانبياء ابراهيم رسالته بكل وضوح للمبادئ والوسائل والاهداف الالهية باستعراض الآيات في الافاق الدالة على التوحيد.

آيات الله:

قال سبحانه:(أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ○قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآَخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ○ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ○ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ○ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآَيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ).(العنكبوت: ١٩-٢٣).

يشير سبحانه في هذا المقطع الى آيات الله في الافاق والانفس التي تدل على وحدانيته، ومنها يستدل على البعث والمعاد. وهذه الآيات محسوسة في كل مرافق الحياة الانسانية.

قال سبحانه:

(أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ)؟، فان الآيات الكونية في استمرارها خلق واعادة باستمرار، فان النبات ينمو في فصله وينتهي دوره حتى يعود في الفصل المقبل مثتمرا من جديدن والانسان ينتهي دوره في الحياة كذلك.

(إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ)، فإن خلق النبات والانسان يسير بالنسبة إلى خلق السماوات والارض والنظام الحاكم في الكون كله، بما فيه من الدقة الذي لم يصل العقل البشري الا إلى جانب ضئيل من الاكتشافات، ولم يقدر على خلق العناصر الاولية في الحياة بالرغم مما أوتي من سعة العلم.

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ)، فان دراسة تطور الحياة الانسانية في الارض من ابتداء الخليقة وتطور العصر الحجري والانسان البدائي يكشف عن ارتباط متواصل في سلسلة العلل والمعلولات والوجود المنتهية إلى الذات المقدسة.

(ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآَخِرَةَ)، في المعاد يوم القيامة في سلسلة من العلل والمعلولات المنتهية إلى ارادة الله سبحانه.

(إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)، ومن ذلك الخلق بالاهداف أوّلاً والاعادة ثانيا.

والى الحكمة من المعاد بالبعث أشار بقوله:

(يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ)، في يوم القيامة لاستحقاقه العذاب.

(وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ)، من يستحق الرحمة والمغفرة.

(وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ)، والقلب: الرجوع للحساب العادل والجزاء ثوابا أو عقابا كما يستحقه كل انسان بعمله.

والى قصور الفكر المادي أشار بقوله:

(وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ)، فان معرفة الفضل ينحصر في اكتشاف الموجودات وعناصرها الطبيعية وتحليلها كيمياويان ولا يمكن خلق تلك العناصر ابتداء طبيعيا قط .

(وَلَا فِي السَّمَاءِ)، فان قدرة الانسان على اكتشاف الفضاء اللامتناهي محدود بقواه المحسوسةن وهي عاجزة عن اختراق الاجواء في عمقها الطبيعي.

(وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ)، فان ولاية الله تعالى حاكمة على كل شيء من المخلوقاتن فانها في وجودها تستمد النصر من الله، لانتهائها في سلسلة العلل والمعلولات الى الله سبحانه.

والى نتيجة العصيان والكفران أشار بقوله:

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ)، الدالة على توحيده سبحانه واستحقاقه العبادة دون من سواه.

(وَلِقَائِهِ)، في الرجوع اليه في يوم القيامة للحساب العادل ثوابا أو عقابا.

(أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي)، باختيارهم اسباب اليأس عن علم واختيار.

(وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)، لمواقف الكفر عن علم وعمد بعد اتمام الحجة عليهم بواسطة الانبياء والرسل.

من امتحان الكفار:

قال سبحانه:(فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أو حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ○ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَاناً مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ).(العنكبوت: ٢٤-٢٥).

يستعرض هذا المقطع الامتحان الذي واوجهه ابراهيم كداعية إلى التوحيد، والكفار المشركين رافضين للحق، قال سبحانه:

(فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ)، لدعوة الحق بقوة الظلم والطغيان، وليس بالمنطق الذي اكرم الله سبحانه الانسان، وذلك باحد امرين:

الاول: (إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ)، فان عقوبة الاعدام انما هو اقوى وسيلة للقضاء على المعارضة من المنطق المادي البحت، حيث يرى المنفذ أنّ بالاعدام يخمد صوت المعارضة غير عابئين بما يوقظ ذلك من اصوات خامدة وينفخ في الاجساد منروح الوثبة.

الثاني: (أو حَرِّقُوهُ)، وهذا الخيار ليس الا زيادة في الارعاب للمؤمنين عامة، وقمع الروح الوثابة وخنق الاصوات في الصدور، لكي لا تطمع في الظهور.

وبالرغم من هذين الخيارين الذين لا ثالث لهما في المنطق المادي.

(فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ)، بقدرته العليا في النصر عند انغلاق الابواب عامة.

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)، بأن نصر الله لآت بالطرق والوسائل التي يراها الله سبحانه من الحكمة للامة عامة.

وكانت هذه المعجزة الالهية دعما لموقف الايمان ودعوة لاستمرار ابراهيم في مواقفه.

(وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَاناً)، فان البديل للعبادة ليس بسبب الاستحقاق، بل بسبب مادي هو الروح القومية.

(مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)، فان اتباع العادات والتقاليد الجاهلية تربط من يتنفع بها اجتماعيا، من دون تقييم بضرورة تلك العادات أو فائدة تلك التقاليد، وتنفع بالدرجة الاولى من يتاجر بها ماديا وينفع بها اقتصاديا.

والى الآثار في الاخرة أشار بقوله:

أوّلاً: (ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ)، فان القاعدة المغفلة في الدنيا سوف تكفر بالقادة الكفار الذين أضلوهم.

ثانيا: (وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً)، وهم قادة الكفر فيما بينهم، وكذا المغفلين من القاعدة، فان قسما منهم يلوم الاخر باللعن والقطع من رحمة الله، للتخاذل من العمل بواجب الانذار أو التحذير وما شابه.

ثالثا: (وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ)، لاستحقاقهم ذلك بتكذيب الانبياء والرسل عن علم وعمد .

رابعا: (وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ) في يوم القيامة حيث انه يوم الحساب والجزاء العادل.

نجاح الرسالة:

قال سبحانه:(فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ○وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ).(العنكبوت: ٢٦-٢٧).

أشار سبحانه إلى انتصار ابراهيم من نواحٍ:

الناحية الاولى، وهي الاهم: نجاح الرسالة بتواجد الانصار والاتباع في نشرها. قال سبحانه:

(فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ)، والفاء للتفريع، فيظهر ان لوطا كان أول من اعلن المؤازرة للرسالة الابراهيمية في عصره.

(وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي)، والهجرة هي القيام في سبيل الله بما يقتضيه الرسالة.

(إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)، فان نجاة ابراهيم من النار لم يكن أمرا عاديا، بل مستندا إلى معجزة الهية متصفة بالعزة والحكمة، وذلك يستوجب الركون إليه والايمان به.

الناحية الثانية: نجاح ابراهيم في تكوين الاسرة الايمانية، قال سبحانه:

(وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ)، فان كلا منهما حمل الرسالة الابراهيمية في حياتهما كما هو متوقع في كل قصص الانبياء. (راجع شجرة الانبياء ، في سورة الانعام، الآيات: ٨٤-٨٧) وموارد ذكرهما في القران الكريم.

الناحية الثالثة: استمرار النبوة في سلالة ابراهيم، قال سبحانه:

(وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ)، فان هذه الوراثة استمرت حتى عصر خاتم الانبياء مُحَمَّد (ص) في ولده اسماعيل كما هو مشروح في كتب السيرة النبوية.

الناحية الرابعة: الانتصار الشخصي في الدنيا، نتيجة للموقف الايماني لابراهيم، بقوله تعالى:

(وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا)، وذلك بالنجاة من نار نمرود.

الناحية الخامسة: الجزاء الاخروي، بقوله سبحانه:

(وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ)، بالتأكيد على الجزاء العادل في يوم الحساب.

الامتحان في عهد لوط:

قال سبحانه:(وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ○ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ○ قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ).(العنكبوت: ٢٨-٣٠).

وقد واجه لوط النبي الانحراف والانكار المعلن، وقاوم ذلك بالاستمرار في الدعوة الاصلاحية الالهية مهاجرا إلى الله وحده، حتى حل بالقوم الكافرين ما يستحقونه من العذاب بعد اتمام الحجة عليهم ونجاة المؤمنين على قلتهم.

قال سبحانه:

(وَلُوطاً)، والفعل مفهوم من السياق، أي اذكر لوطا، ودوره في الامتحان الذي مر به قومه بكفرهم برسالته.

(إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ)، وهي الانحراف بالمعصية المعلنة بالنكران.

(مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ)، حيث لم يعهد ذلك في الطبيعة الحيوانية، فكيف بالانسان؟!! وقد أشار إلى ثلاث حالات انحراف:

الاولى: (أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ)، والاستفهام انكاري، لقبح ذلك في أي مجتمع فطري، فان المجتمع القائم على الشهوات المنحرفة لابد وان ينهار في حاضره أو

مستقبله، حيث تنعدم الخلية الاولى في بناء المجتمع وهي الاسرة، فان بناء الاسرة يتوقف على الزواج، لا اللواط .

الثانية: (وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ)، والعطف بالواو يقتضي ان يكون حالة جديدة، ولا يكون تفسيرا للاول، كما ذهب اليه بعض المفسرين، فيكون قطع السبيل: السرقة، بالاستيلاء على أموال الناس والاخلال بالأمن العام. وهذا من صفات من لا يلتزم بالاخلاق في المجتمع، وهم على الاغلب من الطائفة الاولى كمرتزقة للآخرين.

الثالثة: (وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ)، النادي: هو المحل العام الذي ينادي فيه دعوة عامة. والمنكر: كل ما ينكره العقل. والسياق يقتضي ان لا يكون تفسيرا للاول بعمل كل المنكرات من الملاهي التي فيها هدر للطاقات البشرية فكريا واقتصاديا.

وعن رد الفعل من القوم قال سبحانه:

(فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ)، فقد غلب البطر على القوم وعميت قلوبهم من الجواب، حيث لا جواب. فاستعجلوا بالعذاب الذي استحقوه بعد اتمام الحجة عليهم.

قال سبحانه عن لوط:

(قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ)، حيث لم يبق حل اخر سوى النصر عليهم بعد رفضهم كل ما للرسول من اساليب الدعوة وتصحيح مواقف الانحراف عن الفطرة الانسانية اخلاقيا والشذوذ الجنسي، وسياسيا بالاخلال بالامن العام، واجتماعيا باللهو واللعب.

البشرى:

قال سبحانه:(وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ○ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطاً قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ○ وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ○ إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزاً مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ○ وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ).(العنكبوت: ٣١-٣٥).

فكان الحل الاخير لموقف الانحراف ما طلبه القوم من العذاب. وانتصر لوط عليهم. وحيث ان النبي ابراهيم (ع) كان هو المرسلن ولوط كان مخولا عنه في قربة السدوم – في الاردن اليوم – أمر الله سبحانه بعرض القرار الاخير عليه قبل تنفيذه. قال سبحانه:

(وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى)، ولم يبدؤا بالإشارة إلى لوط نفسه، التزاما بضرورة تعريف الامر الى القائد المسؤول أوّلاً، وهو ابراهيم (ع).

(قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ)، وهي المجتمع الانساني الذي يعيش حول الماء من سدوم، والى السبب في قرار الهلاك أشاروا بقولهم:

(إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ)، والظلم: هو الانحراف والميل عن طرق العدل في كل مرافق الحياة العامة خلقيا وسياسيا واجتماعيا كما تقدمت في النقاط الثلاث .

والى رد فعل القائد ابراهيم أشار:

(قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطاً)، فان الهلاك العام يشمل الجميع، فاذا كانت الغالبية من القوم يستحقون العذاب بعد تمامية الحجة، فان القلة الصالحة ومنهم لوط لا يستحقه، ومن مسؤولية القائد الاهتمام بحقوق ذوي الحقوق.

(قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ)، فان العدل الالهي يقتضي عقاب الكافرين وليس المؤمنين، فان النجاة لهم دون المراة التي بقيت مع الكافرين، فلا تشملها النجاة. والغابر: الباقي.

وبعد اعلام القائد بخطة الهلاك توجه الرسل إلى لوط:

(وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً)، السوء: حالة الخوف. والضيق: حالة الغضب. وقد حصلت الحالتان للوط بسبب مجيئ هؤلاء الرسل، لعلمه بنيات السوء التي عليها القوم الذين لا يتورعون من الاعتداء على هؤلاء الضيوف، وهو بحكم الضيافة لا يمكنه الدفاع عنهم بنفسه لضعفه، ولا من المعارضة معهم للحد من هذه الحالة السيئة. ولكن رسل الله الملائكة خففوا عنه حالة الروع هذه.

(وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ)، بسبب الاسباب التي توجب الحزن في مثل هذه الحالة عادة.

(إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ)، من العذاب الذي يستحقه القوم.

(إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ)، لانها باقية على تعاطفها مع القوم في الانحرافن فهي مستثناة من الاهل.

والى طبيعة العذاب أشار الرسل:

(إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزاً مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ)، فان الفسق وهي المعصية عن علم وعمد، استوجبت هذا العذاب بعد تمامية الحجة.

(وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)، والآية تنص على هذه الاية بينية موجودة، وعلى الأقل في عصر الرسالة المحمدية، وقد مررت في طريقي إلى مصر على هذه المنطقة التي تعرف اليوم بسدوم، وهي على شاطئ بحر الميت، وبعدها مدينة العقبة، التي منها يبحر المسافرون إلى سيناء فمصر.

واظن – والله العالم – ان الاية الظاهرة هي ملوحة بحر الميت التي تزداد يوما بعد يوم ملوحةن وليس فيها حياة قط، بينما مياه العقبة مياه عذبةن ومياه البحر الاحمر وان كان مالحا نوعا ما ولكنه صالح للحياة، وفيها تعيش انواع الحيوانات البحرية.

وقد شاهدت المياه العذبة التي تجري من عمان الاردن وتصب في بحر الميت هدرا، لا ينتفع منها في شئ، فان الاية الظاهرة هي بحر الميت ظاهرا، التي لا تزال في ازدياد الملوحة على مر السنينن وربما ذلك من العذاب النازل بالقوم. والله العالم.

الامتحان في عهد شعيب:

قال سبحانه:(وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ○ فكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ).(العنكبوت: ٣٦-٣٧).

ومن موارد الامتحان ما واجه اهل مدين في عهد شعيب النبي (راجع شجرة الانبياء ، في سورة الانعام، الآيات: ٨٤-٨٧).

(وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً)، ومدين هي المنطقة المتاخمة لفلسطين من ناحية الشامات، ومنها الاردن اليوم، والقبر المنسوب الى شعيب يقع في عمان اليوم. والمفهوم من السياق الفعل، أي اذكر امتحان القوم.

والى رسالة شعيب أشار بالايجاز إلى ثلاث نقاط رئيسية:

أوّلاً: (فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ)، فان التوحيد في العبادة اساس كل رسالة السماوية.

ثانيا: (وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ)، فان الايمان بالعاقبة في الاخرة من اركان الدين كله.

ثالثا: (وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ)، فان الايمان بالتوحيد والمعاد يستلزم العمل على ما يقتضيه كل منهما، وهو الاصلاح في المجتمع ورفض الفساد بكل صوره ومظاهره فكريا واجتماعيا واقتصاديا. وانما اكد على ذلك لان الانحراف بالظلم الاقتصادي كان هو الطاغي في عصرهم.

والى رد فعل القوم أشار بقوله:

(فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ)، والرجفة: الزلزلة. والجثم: القعود من دون حراك كناية عن الموت الذي سلب عنهم الحركة بسبب الزلزال، والامتحان لهم بعقب التكذيب الذي استلزم نزول العذاب.

عاد وثمود:

وأشار سبحانه إلى كل من عاد وثمود في مقطع قصيرن لما يجمعهما من آثار العذاب بحكم تقارب المنطقتين، وهما في جنوب الجزيرة العربية من اليمن الجنوبي حتى

حدود الحجاز اليوم، فقد خلفوا آثارا في المناطق الجبلية التي كانت فيها مساكنهم. قال سبحانه:

(وَعَاداً وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمَ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ).(العنكبوت: ٣٨).

(وَعَاداً وَثَمُودَ)، أي اذكر كلا من القبيلتين، وكان النبي هود قد ارسل إلى عاد، واليه ينسب القبر الموجود على قمة جبل في حضرموت اليوم، وكان النبي صالح قد ارسل إلى ثمود، وهم آنذاك يعيشون في المنطقة الجبلية المعروفة بمدائن صالح في جنوب الجزيرة العربية اليوم. (راجع شجرة الانبياء ، في سورة الانعام، الآيات: ٨٤-٨٧).

(وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ)، في الاثار الحضارية التي خلفوها في الجبال والتي لا تزال اليوم قائمةن وتدل على تقدمهم الحضاري في العمران، ولكن من دون التزام بالعدل الالهي الذي دعاهم اليه النبيين هود وصالح.

وفي إثر الغرور المادي الحضاري قال سبحانه:

(وَزَيَّنَ لَهُمَ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ)، بالاعتزاز بالحضارة المادية في عصرهم والاعتماد عليه من دون أي اعتبار لما تستلزم من تطبيق العدل الالهي في المجتمع.

(فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ)، وهو طريق الحق، للهداية بتطبيق العدل الالهي.

(وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ)، الواو حالية، والاستبصار: الرؤية الواضحة، فان رسالة الانبياء باتمام الحجة عليهم جعلهم ذوي بصيرة بما يجب عليهم في الحياة، ولكنهم اختاروا الانحراف عن السراط المستقيم حالكونهم ذوي بصيرة بما زين الشيطان لهم من اعمالهم في الغرور بالنفوذ الحضاري وعدم الوقاية مما انذرهم به الانبياء. والله العالم.

الامتحان في عهد موسى:

قال سبحانه:(وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ ○ فَكُلّاً أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ).(العنكبوت: ٣٩-٤٠).

وقد واجه النبي موسى (راجع شجرة الانبياء ، في سورة الانعام، الآيات: ٨٤-٨٧) معارضة شديدة من الداخل والخارج من الاستكبار الكافر، فكان يقاوم في الحقيقة على جبهات ثلاث:

الاولى: المعارضة الداخلية، المتمثلة بقارون، (راجع سورة القصص :٧٦،٨٢).

الثانية: المعارضة الخارجية، المتمثلة بالقيادة الآمرة، وهي قيادة فرعون وهو على الأظهر رعمسيس الثاني، أو ابنه منفاح ، أو هما معا.

الثالثة : المعارضة المنفذة للاوامر القيادية والمتمثلة بهامان، الوزير المساعد لفرعون.
وقد ختم سبحانه امتحانات الانبياء والاقوام قبل موسى بالامتحان في عهد موسى، لما يشتمل الامتحان في عهد موسى من قوة وضراوة من النواحي المختلفة المذكورة، وطبيعي ان ذلك يؤثر على صعوبة ابلاغ الرسالة كما واجهها موسى (ع)، وان كانت الرسالة الالهية في خطوطها العريضة تلتقي مع كل رسالات السماء التي ابلغها الانبياء والرسل من قبل.

قال سبحانه:

(وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ)، أي اذكر الامتحان في عهد موسى بهؤلاء الذين مثلوا اكبر تحالف لقوى الكفر ضد الايمان، فان في ذلك لعبرة في انتصار الحق على الباطل.

(وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ)، من المعجزات من العصا واليد البيضاء.

(فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ) بالنكران لهذه الآيات، والمعارضة لها داخليا وخارجيا بكل القوى المادية المتيسرة لديهم.

(وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ)، والسبق على العذاب: النجاة منه بواسطة الكنوز التي خزنها قارون أو الجنود التي جندها فرعون، فانهم واتباعهم جميعا شملهم العذاب الذي استحقوه بالخسف وهو ابتلاع الارض لهم كما حصل لقارون أو الغرق كما حصل لفرعون وجنوده.

(فَكُلّاً أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ) كما يستحقه بانكار الحق بعد تمامية الحجة، وكانوا على طوائف:

الاولى: (فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً)، والحصب: الحجارة الصغيرة، وهم قوم لوط، قال سبحانه: (انا ارسلنا عليهم حاصبا الا آل لوط نجيناهم بسحر). (القمر: ٣٤).

الثانية: (وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ)، وهم قوام ثمود، قال سبحانه: (واخذت الذين ظلموا الصيحة فاصبحوا في دارهم جاثمين). (هود:٩٤).

الثالثة: (وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ)، وهو قارون، قال سبحانه: (فخسفنا به وبداره الارض فما كان من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين).(القصص:٨٢).

الرابعة: (وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا)، وهم قوم نوح وفرعون وجنوده، قال سبحانه: (فأهلكناهم بذنوبهم واغرقنا آل فرعون) (الانفال:٥٤).

فان هذه الطوائف كلها تشترك في استحقاق العقاب العادل بسبب تلبسهم بجريمة الظلم في المجتمع فكريا واجتماعيا واقتصاديا.

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ) من دون استحقاق للعقوبة، فان الله ليس بظلام للعبيد.

(وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)، لارتكابهم جريمة الظلم، الذي بسببها استحقوا العقاب العادل ، ولاستعجالهم بالعذاب استحقوا العذاب في الدنيا قبل الاخرة.

التمثيل ببيت العنكبوت:

قال سبحانه:(مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ○ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ○ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ○ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ). (العنكبوت: ٤١-٤٤).

العنكبوت نوع من الحيوانات تنسج من لعابها خيوطا لصيد الحشرات القريبة منها، وقد قارن سبحانه بين الكافر والعنكبوت للقاسم المشترك الاعظم بينهما، فان

العنكبوت تتخذ من بيتها وسيلة لصيد الحشرات، والكافر يتخذ من الاصنام وسيلة لاجتذاب المغفلين وايقاعهم في شرك ضلاله، وقديما قيل:

كل من في الوجود يطلب صيدا انما الاختلاف في الشبكات

والعبرة من هذا المثل ان البيت القائم على الحق بيت لا اصطياد فيه ولاحتيال، بل قائم على الحق والصدق، ومن ذلك العبادة لمن يستحق العبادة دون غيره.

قال سبحانه:

(مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ)، والولاية: النصر في الحكم سواء في ذلك الاصنام أو الفراعنة الحكام، فان الولاية القائمة على المصالح الوقتية لابد وان تؤول الى الزوال، لفناء اسبابها المادية، اما بالموت أو فوات قوة الحكم أو تعارض المصالحن وليس كذلك الحق، لانه امر ثابت لا يتغير، والمؤمن المعتمد على الحق برؤية واضحة له حياة مستقرة لاتزعزعه الحوادث، بخلاف السائر على عجلات الاهواء والمصالح الوقتية، كما هو الشأن في العنكبوت.

(كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً)، لاصطياد الحشرات وافتراسها، وهي مرحلة وقتية زائلة.

(وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)، لانه بيت قائم على هدف وقتي، وهو الصيد، وهذا ليس امرا ثابتا، فقد تقع الحشرة في الصيد وقد لاتقع، فلا يكون الهدف ناجحا دائما.(١)

(١) يقال: إن وهن بيت العنكبوت من جهتين: الاولى من الجهة المادية ، لان الأوتار التي يستخدمها العنكبوت في بناء بيته ضعيفة واهية ، تزول بأبسط الامور. واالثانية من الناحية المعنوية ، فان

وعلى نقيض ذلك تماما البيت القائم على اساس ثابت غير مؤقتن فانه لا يكون موهونا كبيت العنكبوت .

ومن ذلك يعلم المثل للذين يتخذون الله سبحانه وليا ونصيران فانهم قائمون على رؤية واضحة لا تتأثر بالاهواء والدعايات المظللة.

(إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ)، من الاصنام والفراعنة الحكام وهؤلاء لا يعلمون حقيقة الذات المقدسة التي تبلبلت العقول فيه حتى غدا الفكر كليلا.

(وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)، وانما يعرف سبحانه بصفات هي عين الذاتن ومنها العزة والحكمة في الوجود والخلق الظاهرتان في آثاره في الافاق والانفس، ولا يمكن معرفة الحقائق الابالأوصاف والامثال.

(وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ)، بان الامثال تعبر عن الحقائق التي لا يمكن الوصول اليها بالفكر المادي مباشرة.

ثم أشار إلى نتيجة العبرة بهذا المثل بقوله:

(خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ)، فان في خلق الآفاق من الآيات الكونية كالسموات والارض، القائمة على نظام دقيق حاكم في الكون، بالحق الذي لا يتغير ولا يتبدل، لعلامة واضحة لمن يؤمن بدلالة العلامات

العنكبوت الام عندما يلقحها الذكر تبادر الى افتراس الذكر وأكله ، لتعيش من اجل فراخها، وكذلك حال الام عندما تفقس البيوض وتنمو في بطنها، فان الاجنة يقتاتون على جسم الام وينهشونها للنمو. وهذا من عجائب خلق الله ، ولعله السر في تمثيل الوهن بصيغة أفعل التفضيل ببيت العنكبوت.

على آثارها. وطبيعي ان من لم يستخدم فكره في الاستدلال بهذه الآيات يكون بعيدا عنها، لتنكره على ما تقتضيه الفطرة الانسانية من التفكير الحر. والله العالم.

مبادئ الايمان:

قال سبحانه:(اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ○ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ○ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ).(العنكبوت: ٤٥-٤٧).

يشير في هذا المقطع إلى مبادئ الايمان التالية التي لا تتغير في الرسالة الاسلامية، موجها الخطاب إلى الرسول القائد (ص) باعتباره اسوة للمسلمين عامة، قال سبحانه:

أوّلاً: (اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ)، والكتاب: هو ما فرض من الله كمبدأ اصيل أساس في تلاوة القران الكريم واعلانه على المجتمع عامة فريضة اسلاميا اصيلة ليتيسر نشر الفكر الاسلامي من منبعه الاصيل وهو القران الكريم.

ثانيا: (وَأَقِمِ الصَّلَاةَ)، فان الصلاة عمود الدين إن قبلت قبل ما سواها، وترتبط الاحكام الشرعية الاخرى بها ارتباطا مباشرا من الطهارة إلى المعاملات.

(إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ)، لما يستوجب في الصلاة من طهارة القلب الخالصة للارتباط بالله تعالى وطهارة الجوارح وحليّة الملبس والمكان وما الى ذلك مما هو مرتبط بصورة مباشرة أو غير مباشرة بالصلاة.

ثالثا: (وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ)، فان ذكر الله على حال امر ضروري في الحياة، فبذكر الله تقوى القلوب وتطمئن النفس ويشعر المؤمن براحة روحية يتمكن بها التغلب على مشاكل الحياة بمعنوية عالية، ولا يمكن لأي شئي من المادة والماديات ان يسد هذا الفراغ في حياة الانسان.

رابعا: (وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)، وقد خص اهل الكتاب وهم اليهود والنصارى بذكر الجامع المشترك الاعظم بين الاديان الثلاثة، من الايمان بالله تعالى على خلاف في تفاصيل التوحيد والتثليث، وهذا مما يباين موقف المنكرين أو الوثنيين الذين لا يؤمنون بكتاب.

والجدال بالتي هي احسن يقوم على الاعتراف بالكلمة السواء بين الاطراف المعنية، وقد تكفلت اصول المجادلة في علم المناظرة بتفصيلن فليراجع الى الكتب المؤلفة فيها.

(إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ)، فان جريمة الظلم، وهو الانحراف عن الحق بعلم وعمد بعد تمامية الحجة لا يكون جدالا، بل معاندة، فلا يكون التعامل مع المعاند مثل التعامل مع المنصف.

خامسا: أشار سبحانه إلى مثال للمجالة بالأحسن من وحدة الكلمة على القواسم المشتركة بقوله:

(وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ)، فان هذه الامور الثلاثة من الايمان بالكتب المنزلة والايمان بالله الواحد والتسليم له، مما يوحد الكلمة بين المسلمين واليهود والنصارى.

وختم هذه المبادئ الخمسة الاصيلة بالإشارة إلى انها ثوابت لا يمكن تغييرها مهما اختلفت ردود الفعل، قال سبحانه:

(وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ)، وهو الفريضة على هذه الاصول الخمسة. وعن ردود الفصل قال:

أوّلاً: (فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ)، من أصحاب الكتب من اليهود والنصارى، لما يجدون من البشارة بالاسلام في كتبهم.

وثانيا: (وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ)، واسم الإشارة كما يقتضيه السياق يعود إلى العرب الذين لم يؤمنوا بكتاب ولكن لهم فكر حر.

وثالثا: (وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ)، وهم الذين كفروا، أي غطوا عقولهم بالتقليد الاعمى ولم يستخدموا الفكر الحر في تقييم الرسالة الاسلامية، فهم يجحدون الثوابت الاسلامية تعصبا أو عنادا، عن علم وعمد بعد تمامية الحجة عليهم.

الامتحان في عهد نبي الاسلام:

ان عهد النبي مُحَمَّد (ص) كسائر العهود الماضية لم يخلوا امن نقاط الامتحان الذي واجهت الناس، فاختلفوا في ردود الفعل تجاهها مؤمنين وكفارا، وقد أشار منها إلى نقاط:

النقطة الاولى- شخصية الرسول:

(وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ). (العنكبوت: ٤٨).

ان شخصية النبي مُحَمَّد (ص) كانت معروفة في المجتمع المكي الجاهلي، فهو لم يتخرج من مدرسة من المدارس الفكرية المعروفة في عصره في الشام أو فارس أو غيرها، بل عاش وتربى في مكة المكرمة من دون ان يتعلم الكتابة والقراءة في أية مدرسة، وهذه الحقيقة في نفسها تنفي وجود أي مصدر للقران الكريم سوى الوحي، حيث يخبر عن الامم الماضية من تاريخ اليهود والنصارى ومن قبلهم، في حين لم يتواجد أي واحد منهم في مكة المكرمة ولا جالية تتوارث تواريخهم، بل كان اهالي مكة من المشركين الذين لا يؤمنون بكتاب سماوي قط.

أشار سبحانه ان الرسالة الاسلامية تستند إلى الوحي بقوله:

أوّلاً: (وَما كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ)، من الكتب السماوية كالتوراة والانجيل. ومرجع الضيمران إلى القران الكريم، المفهوم من السياق، والتلاوة تستلزم التعلم، والمفروض عدم تخرجه من أية مدرسة فكرية قائمة في عصره.

ثانيا: (وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ)، حيث لم يخط بيده بالتعلم على غيره من اصحاب المعرفة بالخط، على ندرتهم في مكة المكرمة، بل العرب عامة.

والى الحكمة في ذلك أشار بقوله :

(إِذاً لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ) من دعاة الباطل في اتهام رسالة الاسلام بالنسبة إلى التعليم والتعلم، دون الوحي.

النقطة الثانية- القران الكريم:

قال سبحانه:(بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ).(العنكبوت: ٤٩).

والقران الكريم في نفسه يشهد على كونه وحيا من الله سبحانه لمحتوى الرسالة التي تتطابق مع العلم الموروث من علماء الاديان من قبل الاسلام، كما تكرر القران الكريم في اكثر من آية قوله تعالى: (مصدقا لما بين يديه) (البقرة:٩٧) و (ال عمران:٦٣) و (المائدة:٤٨) و (الانعام:٩٢).

قال سبحانه:

(بَلْ هُوَ)، إشارة إلى القران الكريم المفهوم من السياق.

(آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ)، لوضوح محتوى الرسالة الالهية التي هي معروفة.

(فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْم)، أي التمييز بين الحق والباطل، فان الرسالة الداعية إلى تطبق العدل الالهي في المجتمع تنبع من الفطرة الانسانية، وهي في ذات أي انسان يتجرد من العواطف والاهواء المتأثرة بالعادات والتقاليد ويتبع الفكر الحر في تقسيم الامور.

والى الاساس في الانحراف عن الفطرة الانسانية أشار بقوله:

(وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ)، الدالة على الآيات في الآفاق والأنفس على صدق الرسالة الالهية المتمثلة بالقران الكريم. وانكار هذه الدلالة انحراف عن الفطرة الانسانية، وهو الظلم برفض العدل واتباع العادات والتقاليد الجاهلية تقليدا الاعمى.

النقطة الثالثة ـ المعجزة:

قال سبحانه:(وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الآيات عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ○ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً

وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ○ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آَمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ).(العنكبوت: ٥٠-٥٢).

والنقطة الثالثة من نقاط الامتحان: طلب المشركين المعجزة السماوية، وقد رفض سبحانه هذا الطلب، قال سبحانه:

(وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آَيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ)، والآية في المقام: المعجزة السماوية من الآيات الكونية.

وأشار سبحانه إلى السبب في رفض الطلب بقوله:

أوّلاً: (قُلْ إِنَّمَا الآيات عِنْدَ اللَّهِ)، فان القرار في انزال الاية الكونية ليس حسب رغبة الرسول، بل أمر ذلك يعود إلى الله سبحانه.

(وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ)، لابلاغ الرسالة بالانذار، كما امر الله سبحانه، وليس من مسؤولية الرسول التنفيذ لكل ما يطلبه المرسل اليه.

ثانيا: (أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ)، فان هذا الاستفهام التقريري يثبت ان القران الكريم هو معجزة الهية، لما يحتويه من الهداية في العقيدة والشريعة، فانه بية في نفسه كسائر الآيات الكونية في الآفاق من السماوات والارض. ومع وجود هذه الآيات الكونية لاحاجة إلى آية اخرىن فان كانت الاية الكونية الموجودة لا تؤثر في الاقناع فتكون حالة الاية اخرى كذلك، فان في هذه الآيات كفاية لمن اراد التدبر.

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)، فان القران الكريم يحتوى على عناصر الرحمة والذكرى لمن اراد الوصول الى الحقيقة. فيؤمن به من يريد الايمان حقيقة، ومن لا يريد الايمان، بل المحاجة، فلا يؤثر فيه شيء قطن كما هو شأن المعاندين.

والى الموقف الحكيم من المعاندين أشار بقوله:

(قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً)، في اتمام الحجة بابلاغ الرسالة كما هو المفروض على الرسول الكريم.

(يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)، ففي ذلك اداء دور الرسالة وافيا.

والى نتيجة الموقف الكافر قال:

(وَالَّذِينَ آَمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ) في الدنيا، لما يحكم به العقل المجرد عن العادات الجاهلية. وفي الاخرة، لما يترتب على مواقف الكفر من العذاب الموعود.

النقطة الرابعة - استعجال العذاب:

قال سبحانه:(وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ○ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ○ يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ).(العنكبوت: ٥٣-٥٥).

ومن نقاط الامتحان: استعجال المشركين العذاب الموعود في الاخرة، بان يحل عليهم في الدنيا قبل الاخرة. وقد علق سبحانه على هذا الطلب بقوله:

(وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ)، قبل حلول موعده، وكانهم هم الذين بيدهم امر العذاب، مع ان العذاب عقاب له حدوده العادلة، ومن ذلك ان يتحقق الحساب العادل، والاستعجال يعني العذاب قبل الحساب، فان للعذاب اجل محدود يحدده الله سبحانه، وليس المشركون. ولا يؤثر في القضاء به في الدنيا والاخرة سوى الاجل الذي جعل الله له.

(وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ)، لاستحقاقهم ذلك بطلبهم استعجاله، ولكن ليس امر ذلك إلى الرسول ولا إلى المشركين، بل إلى الله تعالى.

ثم أشار سبحانه إلى حقيقتين من حقائق العذاب:

الاولى : (وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)، فان العذاب عقاب مباغت، لا يمكن صده عند حلول أجله.

الثانية: (يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ)، فان كل آت قريبن وصفة الاحاطة صفة الشمول عند مواجهة الحقيقة المرة في الاخرة.

(يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ)، حيث لا يكون لهم مفر من العذاب حينئذ.

(وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)، لاستحقاق هذا العذاب جزاء أعمال الكفر في الدنيا، على النقيض من جزاء المؤمنين.

جزاء المؤمنين:

قال سبحانه:(يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آَمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ○ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ○ وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفاً تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ○ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ).(العنكبوت: ٥٦-٥٩).

فكما ان جزاء الكافرين عن علم وعمد هو العذاب عقابا عادلا، كذلك جزاء المؤمنين لاستجابتهم دعوة الله بالعدل الالهي هو الثواب العادل.قال سبحانه:

(يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آَمَنُوا)، بالمبادئ والوسائل والاهداف الالهية بصفتها حكم الله على الارض.

(إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ)، فليس الحكم الالهي حكما محصورا بمنطقة دون أخرى، بل يعم الارض كلها، وان الارض وما فيها وما عليها كلها لله تعالى.

(فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ)، فانه لا يستحق العبادة الا فاطر السماوات والارض.

(كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ)، فالحياة على الارض حياة محدودة زمينا بالموت.

(ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ)، بعد فناء الارض ومن عليهان بالمعاد إلى رب العباد للجزاء العادل على الاعمال .

والى جزاء المؤمنين أشار بقوله:

(وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفاً تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا)، والبوء: الاقامة على وجه الاستقرار.

(نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ)، فان لهذه الاقامة حقيقة الخلود، وهي مفضلة على كل نعمة.

وأشار إلى استحقاق المؤمنين لهذا الاجر بقوله:

أوّلاً: الصبر (الَّذِينَ صَبَرُوا)، فان الايمان المجرد عن الصبر ليس ايمانا كاملا.

ثانيا: التوكل (وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) في مقام العمل بخلوص في النية والعمل، وفي ذلك قوام أي عمل يتقرب به إلى الله تعالى. واستخدامهم الفكر الانساني الحر في الاهتداء بالآيات الكونية والالتزام بدلالاتها على التوحيد.

الرزق من آيات الله:

قال سبحانه:(وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ○ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ○ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ○ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ).(العنكبوت: ٦٠-٦٣).

ومن آيات الله المحسوسة لكل انسان في حياته: الرزق الذي يعيش عليه في حياته من الطعام والشراب كسائر مخلوقات الله، فالمواد الاساسية في الحياة كالماء والنبات والهواء متيسرة للكل بلا استثناء، وانما التفاوت في درجات الجودة، وتحصيل ذلك يتوقف على سعي الانسانن فانه (ليس للانسان الا ما سعى وان سعيه سوف يرى). (النجم:٣٩). قال سبحانه:

(وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا)، وكلمة (كأين) تعني الاستفهام ، وهي بمعنى (كم) مبتدأ، والدابة: ما تدب على الارض بالآرجل من كل حيوان ذي نفس.

والحمل: الجمع بالادخار لما يتوقف الحياة عليه من القوت والخير. وهي كلها من رزق الله كما قال تعالى:

(اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ)، بما ييسره سبحانه من انواع الرزق من النبات والحيوان التي في وجودها تنتهي بسلسلة العلل والمعلولات إلى الذات المقدسة.

(وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) بحاجة المخلوقات إلى ما يوافق طبعها وتستمد منه حياتها، ومنها رزق الانسان والحيوان بالمواد الاصلية التي لولاها لانعدمت الحياة كالماء والهواء، فان التأمل في وجود هذه العناصر الطبيعية تستدعى الايمان بالله تعالى وتوحيده. ولا محيص للانسان المستخدم لفكره الحر سوى الاذعان بذلك.

وقد أشار سبحانه إلى الاذعان بذلك بالفطرة الانسانية في ضمن سؤالين:

السؤال الاول: (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ)، فانه لا جواب عن السؤال عن خالق الآيات الكونية الاربعة المحسوسة من السماء والارض خلقا والشمس والقمر سخريا، بالنظام الحاكم فيها، الا بالاذعان بالقدرة العليا التي تفوق وجود هذه الاشياء المحسوسة انفسها. وليس ذلك سوى واجب الوجود تعالى.

ومن صفاته تعالى:

(اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)، فان الرزق الذي به قوام الحياة كالماء والهواء والنبات المتيسر لكل الموجودات برحمتة الواسعة، أو ما بسط ذلك بالتوسعة والكثرة. والتقدير بالضيق والقلة، وذلك بارادة الله

تعالى للصلة المباشرة بين العمل من جانب الانسان شكرا على نعمائه تعالى في البسط والتضييق، قال سبحانه: (لئن شكرتم لازيدنكم) (ابراهيم:٧).

السؤال الثاني: (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ)، فان الماء الذي به حياة كل شيء بالمطر، ينتهي في سلسلة العلل والمعلولات الطبيعية إلى ارادة الله سبحانه.

ولا جواب لهذا السؤال سوى الاذعان باستناد ذلك إلى ارادة عليا خارقة حاكمة على الكون في النظام العام.

فان الجواب عن السؤالين يعتمد على استخدام الفكر الانساني المتحرر من قيود العادات والتقاليد الجاهلية.

(قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ)، الذي لا يستحق الحمد سواه، كما هو مقتضى دلالة الآيات الكونية بمنطق العقل.

(بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ)، حيث لا يستخدمون منطق العقل ويعتمدون على العادات والتقاليد من دون تحكيم للعقل المجرد منها.

ختام السورة:

قال سبحانه:(وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآَخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ○ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ○ لِيَكْفُرُوا بِمَا آَتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ○ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آَمِناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ○وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أو كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ

مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ○ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ).(العنكبوت: ٦٤-٦٩).

وختم السورة بالنقاط البارزة في محتواها والداعية إلى التوحيد الخالص في العبادة لله تعالى الذي فطر السماوات والارض، لدلالة الآيات الكونية في الافاق والانفس على القدرة العليا الحاكمة في نظام الكون، وما يتبع ذلك من الجزاء العادل حسب الاعمال ثوابا وعقابا في الدنيا والاخرة، فقال سبحانه:

أوّلاً: الفناء (وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ)، واللهو: ما يلهي الانسان عن المسؤوليات والواجبات. واللعب: مالا فائدة ثابتة له. والحياة في الدنيا بحكم زوالها بالموت تتصف بالأمرين، والاعتماد عليهما اعتماد كليا تلهي الانسان عن المسؤوليات الانسانية، وبحكم زوالها كسائر انواع اللعب التي تنتهي امرها، لا يمكن الاعتماد عليها.

(وَإِنَّ الدَّارَ الْآَخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)، والحيوان والحياة لفظان مترادفان، وتقابلهما في السياق يقتضي كونها حياة حقيقية بسبب صفة الخلود لها، دون الحياة في الدنيا، للعلم بزوالها بالموت.

ثانيا: طبيعة الانسان (فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ)، فان الانسان عندما يواجه الحقيقة يفهم أن طاقاته محدودة، ولا يتمكن التغلب على مظاهر الطبيعة القاهرة، فحينئذ يعترف بالعجز امام القدرة التي خلقها. ومن ذلك الركوب في السفينة العائمة في البحر، عند الابحار بها في وسط المياه حيث لا ينجي منها سوى خالق البحر. وكذلك الحال في الراكب في الطائرة المحلقة في الفضاء، حيث لا قدرة تنجي الانسان من المهالك المحتملة سوى خالق الفضاء، فاذا واجهته

صعوبة خلال ذلك، فانه يدعوا إلى الله مخلصا له بقلب مفعم بالايمان لفطرته الانسانية المؤمنة.

(فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إلى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ)، وبمجرد انتهاء الخطر المحدق به يعود إلى ما اعتاد عليه من التقاليد الشركية التي تناقض الايمان.

وان دل هذا على شيء فانه يدل على ضعف النفس الانسانية في طبيعتها، قال سبحانه: (وخلق الانسان ضعيفا). (النساء:٢٨) .

(لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ) النتائج في الاخرة، وسوف يحاسب الانسان على عمله الذي يميزه عن غيره من الناس في الدنيا والاخرة.

فان الكفران للنعمة والتمتع بالحياة الفانية لهما اثرهما الدائم على الانسان في يوم الحساب.

ثالثا: الامن (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمِناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ)، وهذا الاستفهام التقريري موجه إلى المشركين في مكة المكرمة، حيث انعم الله عليهم بالرسالة الابراهيمية فجعل البيت مركزا للامن بسبب تطبيق ابراهيم الحكم الالهي في عصره، وجعله مركز آمنا ليعيش فيه الانسان براحة بال وطمانينة، في حين ان الحياة الجاهلية الحاكمة في غيره من الاطراف فاقدة لذلك، حيث لا أمن ولا أمان، بل هو معرض للخطف مسلوب الارادة والحرية بسبب فقدان الحكم الالهي في حياته.

فان المقارنة بين الحياة الايمانية والحياة الشركية تكفي بنفسها سببا للايمان ورفض الشرك في كل مظاهره.

وقد عقب ذلك بالاستفهام الانكاري بقوله:

(أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ)، وهو الشرك في كل مظاهره.

(وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ)، وهي نعمة الأمن بسبب الحكم الالهي الذي طبقه ابو الانبياء ابراهيم (ع).

رابعا: نتيجة الظلم (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أو كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ)، فانه ليس أظلم من هذين، فالظلم والافتراءن وهو الكذب الواضح وتكذيب الحق بعد تمامية الحجة، يشركان في أصل الكذب، والكذب ظلم للانحراف عما تقتضيه العدالة. وبعد تمامية الحجة لا يبقى مجال للشبهة. ويترتب على ذلك نتيجة الاعمال التي انذر رسل الله منها.

(أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ)، فانه العقاب للظلم الذي أوعد الله عليه النار ، والله لا يخلف الميعاد.

خامسا: نتيجة الايمان (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا)، ببذل الجهد لتحصيل الرؤية الواضحة في الحياة، فان هذه الخطوة لتحصل الرؤية الواضحة لها أثران:

الاول: (لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا)، فان الهداية لا تتم الا بعد التحرك خطوة اليهان وبقدر التقدم في الخطى يتحقق الهدف وتتضح السبل المؤدية اليه. ولا يمكن ان يعرف الانسان السبيل في الوصول إلى الهدف الا بعد السعي في سبيل ذلك، فان لكل شيء وسائل متعددة ولا تعرف الافضل منها في المرحلة العملية الا بعد المباشرة بالعمل.

الثاني: (وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ) في النصر لهمن لقدسية الهدف الذي يسعون اليهن وهو الاحسان، قال سبحانه: (ان تنصروا الله ينصركم ويثبت اقدامكم) (مُحَمَّد:٧).

وقال: (ان ينصركم الله فلا غالب لكم) (ال عمران:١٦٠).

سورة الروم

(٣٠)

مكية على المشهور، وقال الحسن: الا قوله: (فسبحان الله حين تمسون) . عددها (٥٩) في المدني الأخير، و (٦٠) في الباقين.

وسميت السورة بالروم، لورود الكلمة فيها في قوله تعالى:(غلبت الروم في ادنى الارض)، (الاية:٣)، ولم ترد في أية آية اخرى في القران الكريم.

وقد تضمنت السورة خبرا غيبيا في الحرب القائمة بين الفرس والروم والتي اصبحت الجزيرة العربية مسرحا لها بين ملوك وأمراء يستخدمهم الروم وهم الغساسنة في سوريا

الكبرى المعروفة بالشامات، وبين ملوك وأمراء يستخدمهم الفرس وهم المناذرة في العراق.

والنبي القائد أخبر وهو في قلب الجزيرة العربية مكة المكرمة عن نتيجة الصراع القائم بين الحضارتين الفارسية والرومية القائمتين على المقاييس المادية البحتة، فان الفرس تغلبوا على الروم في سنة ٦١٤ ميلاديةن واستولوا على ارض الشامات بما فيها بيت المقدس وحرروا اليهود في بابل العراق بعد ان كان الروم قد قضوا على حكمهم في بيت المقدس، كما امتد حكمهم إلى اليمن ولا تزال لهم فيها آثار في العاصمة صنعاء اليوم في منطقة تسمى قرية الفرس، لتواجد من يرجع بأصوله إلى الفرس، وقد لقيت جمعا منهم في صنعاء وصعدة ومأرب، وهم يحتفظون بأنسابهم ولا يتنكرون لاصولهم الفارسية. وهذا التاريخ يقارب بعثة النبي مُحَمَّد (ص) وهو في سن الاربعين من العمر من عام الفيل، سنة ٥٧٠، وكان ص قد بلغ حينئذ ٤٤ عاما.

وقد اخبر (ص) عن هذه بعد اربع سنين من بعثتة للنبوة .

ثم تجددت الحرب بين الفرس والروم عام ٦٢٢ وهي تقارب عام الهجرة، وكان العرب عامة في حيرة من مصير هذه الحرب التي كانت لها اثارا على حياتهم. وفي الروايات أن أبي بن خلف من مشركي قريش عقد مع عبدالله أبي بكر الخليفة الاول عقدا على خطر بهذه المناسبة.(١)

---

(١) روى أبو عبد الله الحافظ بالإسناد عن ابن عباس في قوله : (ألم غلبت الروم) قال : قد مضى كان ذلك في أهل فارس والروم ، وكانت فارس قد غلبت عليهم ، ثم غلبت الروم بعد ذلك ، ولقي نبي الله مشركي العرب ، والتقت الروم وفارس ، فنصر الله النبي صلى الله عليه وآله وسلم ومن معه من المسلمين ، على مشركي العرب ونصر أهل الكتاب على مشركي العجم . ففرح المسلمون بنصر الله إياهم ، ونصر أهل الكتاب على العجم . قال عطية : وسألت أبا سعيد الخدري عن ذلك ، فقال : التقينا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومشركو العرب ، والتقت الروم وفارس ، فنصرنا الله على مشركي العرب ، ونصر أهل الكتاب على المجوس . ففرحنا بنصر الله إيانا على مشركي العرب ، ونصر أهل الكتاب

وكان التنافس قائما بين القوتين في عصر الرسالة الفرس [ايران اليوم] والروم [ايطاليا اليوم]، ومن الطبيعي ان تستمر الحرب بين القوتين العظيمتين في ذلك العصر بين مد وجزر، ولها آثارها على المجتمعات المعاصرة لها عامة، ومنها مجتمع المشركين العرب.

وفي هذه السورة أخبر النبي بمصير الحروب المادية التي حساباتها قامت الحرب الفارسية الرومانية. وكان كما قال (ص) مما لا يدع مجالا للشك في استناد ذلك إلى الوحي المبين.

ثم أشار سبحانه إلى دعوة الاسلام القائمة على الوحي والداعية إلى التوحيد الذي يقوم فيه الحكم على اساس العدل الالهي، وبه يكون النصر الحقيقي.

وسرد سبحانه من الآيات الكونية مصدرا بقوله:(ومن آياته) مع الإشارة إلى ما يرتبط بها من الآيات الاخرى والتي تستوجب الايمان بالله تعالى والامر باقامة الحكم الالهي العادل على الارض. والذي يختلف في أساسه عن الحكم الكافر الظالم المتمثل بالفرس والروم معا.

على المجوس ، فذلك قوله (يومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله) . وقال سفيان الثوري : سمعت أنهم ظهروا يوم بدر . وقال مقاتل : فلما كان يوم بدر ، غلب المسلمون كفار مكة ، وأخبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن الروم غلبت فارسا ، ففرح المؤمنون بذلك . وروي أنهم استردوا بيت المقدس ، وأن ملك الروم مشى إليه شكرا ، وبسطت له الرياحين ، فمشى عليها . وقال الشعبي . لم تمض تلك المدة التي عقدها أبو بكر مع أبي بن خلف ، حتى غلبت الروم فارسا ، وربطوا خيولهم بالمدائن ، وبنوا الرومية فأخذ أبو بكر الخطر من ورثته ، وجاء به إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فتصدق به . وروي أن أبا بكر لما أراد الهجرة ، تعلق به أبي ، وأخذ ابنه عبد الله بن أبي بكر كفيلا . فلما أراد أن يخرج أبي إلى حرب أحد ، تعلق به عبد الله بن أبي بكر ، وأخذ منه ابنه كفيلا . وجرح أبي في أحد ، وعاد إلى مكة فمات من تلك الجراحة ، جرحه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . وجاءت الرواية عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : (لفارس نطحة أو نطحتان) ثم قال : (لا فارس بعدها أبدا والروم ذات القرون كلما ذهب قرن خلف قرن هبهب إلى آخر الأبد) . والمعنى : إن فارس تنطح نطحة أو نطحتين فيبطل ملكها ، ويزول أمرها . والهبهب: السريع. (تفسير مجمع البيان – للشيخ الطبرسي – ج ٨ – ص ٤٤ – ٤٥).

ثم ختم ذلك باخبار يوم الحساب الذي يفترق فيه حضارة الاسلام عن الحضارتين الفارسية والرومية، وما تستلزم ذلك من الحياة الفردية والاجتماعية.

فاتحة السورة:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(الم ○ غُلِبَتِ الرُّومُ ○ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ○ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ○ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ○ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ○ يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآَخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ).(الروم: ١-٧).

استفتح السورة بالحروف المقطعة (الم) من دون تعقيب لها بصفات القرآن الكريم، ربما لوضوحه في الآيات الاخرى، كما تقدم ذلك. وراجع "دراسة حول القران الكريم".

ثم أشار إلى الصراع الفارسي الروماني ونتيجة هذا الصراع السياسي القائم على أساس المادة والماديات، وما تفترق عنها الدين الاسلامي من النصر القائم على أساس العدل.

قال سبحانه:

(غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ): والدنو: القرب ، فان غلبة الفرس على الرومان عام ٦٢٢ كانت في الشامات، وهي الاراضي المتاخمة مع الجزيرة العربية، ومركزها (روما- ايطاليا اليوم) وهي بعيدة عن الجزيرة العربية جغرافيا.

(وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بِضْعِ سِنِينَ)، وكلمة (بضع) تدل على العدد من العشرة فما دون، وقد تحقق هذا الاخبار المستند إلى الوحي.

ثم أشار إلى حقيقة النصر الالهي الذي يختلف في المقاييس المادية بقوله:

(لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ)، فان لله سبحانه حكمه سواء قبل النصر أو بعده، فان الارادة الالهية هي الحاكمة في الكون، وليست القوى المادية.

(وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ)، فان المنتفعين ماديا من الملوك الغساسنة في الشام لمساندتهم الروم، والمناذرة في العراق لمساندتهم الفرس ، يفرحون بانتصار من يساندونهم، لكونهم عملاء لهم.

وقد غلب الفرس على الروم سنة ٦١٤ بعد سبع سنين ، ومن ذلك يظهر ان تاريخ الوحي القرآني هذا كان قبل عام ٦٢١ وقبل الهجرة النبوية.

وأما المؤمنون، فلا يجدون الحروب القائمة على اساس المصالح المادية نصرا للمبادئ العادلة النابعة من الحكم الالهين الذي يعم كافة الشعوب.

وعن تحقق الوعد الالهي قال:

(وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ) بالنصر حينما تجتمع اسباب النصر، ومنها : الاستعداد له.

(وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) حقيقة النصر القائم على العدل في المجتمع من القاعدة إلى القمة، وليس مجرد النصر المادي الذي يحصل للقيادات فقط.

والى السبب في هذه الرؤية الضعيفة في الحياة ، أشار بقوله:

(يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) ويقيسون النصر بالمقاييس المادية البحتة.

(وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ) بان النصر الحقيقي انما يكون بتوافق الاعمال والنتائج، فان النصر المادي الذي يستلزم الظلم ليس نصرا، بل هو عدوان. فبما ان الانسان المادي غافل عن النتائج التي تترتب على الظلم من العقوبات العادلة، يتصور ان النصر المادي هو المقياس في النصر.

ثم أشار إلى ما يقتضي العبرة من التاريخ.

ثم سرد سبحانه سلسلة من الآيات الكونية الدالة على توحيد الله سبحانه والامر بالنصر الالهي العادل القائم على اساس العدل في الحياة، وان ذلك هو النصر الحقيقي القائم على التوازن بين الدنيا والآخرة.

حرية الفكر:

(أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ).(الروم: ٨).

ان تصارع القوى العظمى القائم على اساس المادة والماديات ومصيرها من اعظم العبر التي يجب على الانسان دراستها واستخلاص النتائج منها، فان النصر المادي والعسكري مهما كان قويا فلا يوصل الانسان إلى الحقيقة، فلا يتمتع الانسان فيه بحرية التفكير.

وهذا المقطع يدعوا إلى حرية التفكير في الاسباب والنتائج للحروب المادية البحتة، والتي لابد وان تنتهي إلى الاعتقاد بان الايمان بالله هو الداعي إلى العدل وهو النصر الحقيقي في الحياة، قال سبحانه بالاستفهام الإنكاري:

(أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ) بحرية الفكر من دون استناد إلى أفكار الآخرين أو دعايات اصحاب المصالح فيما يدعوا إلى الايمان بالله أو بالمادة، وآثار كل منهما في الحياة.

(مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى)، فان الفكر الحر بعد مشاهدة الاثار في الآفاق والأنفس من خلق السماوات والارض وما بينهما من طبقات الجو، يرى انها مخلوقة بامرين ظاهرين لكل من يتأمل فيهما:

الاول: انها خلقت (بِالْحَقِّ)، فان الآثار المترتبة على خلق السماوات والارض وما بينهما محكومة بقوانين طبيعية مؤثرة فيها ، وهي تستمد قوتها من ارادة الله التي اودعها فيها، فتنتهي كل قوة إلى ارادته تعالى.

الثاني: انها خلقت بِ (أَجَلٍ مُسَمًّى)، فان هذه القوى المودعة في الاشياء ليست ابدية، ولابد وان يكون لها نهاية.

ويكفي هذان الامران في الاذعان بالايمان بما اخبر به الرسل والانبياء من الحساب والكتاب في يوم القيامة. ولكن موقف الانسان المادي لا يستند الا إلى المحسوسات من دون تفكر لما يستلزمها في الحياة.

(وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ)، فينكرون البعث والمعاد من دون اعتبار للفكر الحر ، بل لمجرد رغبات نفسية وعوامل أخرى غير حرية الفكر.

عبرة التاريخ:

قال سبحانه:(أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ

بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ○ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ○ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ). (الروم: ٩-١١).

في هذا المقطع اشارة إلى عبرة التاريخ التي يعرض عنها الانسان المادي بالرغم من ان التاريخ مدرسة حية يجب الاعتبار بها، فان الانسان في عصره اليوم لا يختلف عن الانسان في العصور السابقة من الناحية المادية، فان الامم السابقة بما فيها الفرس والروم وفراعنة مصر وغيرهم قد حكموا على اساس مادي بحت في حياتهم السياسية والاجتماعية، وبلغت حضاراتهم القمة في عصرهم ، وتنافسوا فيها غاية التنافس ماديا وعسكريا وحضاريا، ولكنها جميعا فقدت قوتها ، لانها لم تستند إلى العدالة ولم تتمتع بتلاحم الشعب معها، وانتهت امرها بانتهاء قوتها في الاجيال اللاحقة، بل في عصر الحاكم المادي نفسه وفي حياته بالثورة عليه احيانا.

قال سبحانه بالاستفهام الانكاري:

(أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ)، بالسير عمليا أو بدراسة التاريخ لمعرفة ماضي من سكن في هذه الارض الواسعة وانواع الحضارات الحاكمة فيها.

(فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ) من الامم البائدة من عاد وثمود ولوط أو المعاصرة عند نزول هذه السورة قبيل الهجرة النبوية، وهم الفرس والروم المتحاربين، وهم جميعا يمتازون بثلاث نقاط، هي:

١-(كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً)، فان القوة العسكرية المادية التي تمتع بها هؤلاء أخضع الغساسنة للروم في الشامات، ومنهم المسيحيون اليوم. وكذلك المناذرة للفرس في العراق، والمشركون كانوا فاقدين للسلاح.

٢-(وَأَثَارُوا الْأَرْضَ)، فان الحكومات القائمة استخدمت كل الوسائل المادية لتنمية الزراعة وسد احتياجاتها، بخلاف المشركين في مكة، باعتبارها منطقة جبلية تفقد الاراضي الصالحة للزراعة.

(وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا)، فان العمران الحضاري في طاق كسرى للفرس، واطلال الروم في تركيا وغيرها من البلدان، والأهرامات لفراعنة مصر، وهي أعظم بكثير من حضارة العرب المشركين في مكة.

وهذه الاقوام جميعا طغت ولم تلتزم بالمبادئ الايمانية.

(وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ) من الآيات الواضحة الداعية إلى الايمان والعمل الصالح في الحياة، وقد رفضتها الحكومات الغابرة في التاريخ باعتمادها على المادة والماديات فقط، المعتمدة على الظلم.

(فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ)، لانه تعالى أنذرهم على لسان الأنبياء والرسل.

(وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)، باعراضهم عن المبادئ الايمانية المبتنية على العدل في الحكم.

(ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَى)، فان أي عمل له نتيجة، وان أي فعل له رد فعل، فالعمل السيئ له اثره السيئ ايضا.

(أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ) ورفضوا دعوة الرسل والانبياء بتطبيق حكم الله في الارض.

(وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ)، لاغترارهم بالمادة والماديات فقط، واهمالهم رسالة الله سبحانه في الحياة.

وختم المقطع بالأشارة إلى أن التكذيب والاستهزاء لا يغير من الواقع شيئا، فقال سبحانه مشيرا إلى ثلاثة حقائق:

١-(اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ)، بالخلق ابتداء من العدم إلى الوجود برأفته الحاكمة في الكون.

٢-(ثُمَّ يُعِيدُهُ)، بالبعث والنشور بعد الموت بارادته تعالى ، فان ذلك ليس بأعظم من بدء الخلق من العدم إلى الوجود.

٣-(ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) في يوم القيامة للحساب العادل.

يوم الحساب:

قال سبحانه:(وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ○ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ ○ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ○ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ○ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ). (الروم١٢-١٦).

صور سبحانه في هذا المقطع يوم الحساب العادل الذي يجازى فيه المؤمن والمجرم كل بما يستحقه جزاء عادلا:

الاول: الابلاس، وهو اليأس (وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ)، لانه يوم النتائج، وفيه تظهر الحقائق المرة للمجرمين.

الثانية: الشفاعة (وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ)، فان الذين أشركوهم في الطاعة في الحياة الدنيا ، هم في شغل عنهم وعن غيرهم، فهم لا يتمكنون من انقاذ انفسهم، فكيف لهم بانقاذ غيرهم؟ وهذا من اسباب اليأس ، بالاضافة إلى ما سبق منهم من الكفر.

الثالث: رفض الشركاء (وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ)، فان المجرمين في هذا الوقت بالذات يرون نتيجة اعمالهم ، وهو وقت الحساب الذي لا يمكن معه العمل، فيرفضون الشركاء، ولكن بعد فوات الاوان، فان الرفض كان يجب ان يكون في الدنيا قبل يوم الامتحان في يوم القيامة، والرفض حينئذ لا يجدي.

وعن النتيجة الحتمية في يوم القيامة قال سبحانه :

(وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ)، فالناس فيه على فريقين رئيسيين، مؤمنين وكفار، ولكل منهم جزاءه العادل:

الفريق الاول: (فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)، فانهم بسبب ايمانهم واعمالهم الصالحة يستحقون الجزاء العادل.

(فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ)، والحبور: السرور. والروضة: ما يرتضيه الانسان من الجنان.

الفريق الثاني: (وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ)، فان كفرهم قارن العمل بالتكذيب العملي للرسالات وتكذيب وجود العاقبة للاعمال.

(فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ)، والحضور: الاقامة في العذاب، كما أوعدوا عليه في الدنيا جزاء عادلا.

البعث حقيقة:

قال سبحانه:(فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ○ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيّاً وَحِينَ تُظْهِرُونَ ○ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ). (الروم:١٧-١٩).

ذكر سبحانه في هذا المقطع على ان البعث حقيقة وان انكره الماديون، فان في تطور الحياة دلالة على ذلك في مختلف حالات الانسان في كل يوم من حياته في المساء والصباح والعشي والظهيرة، وهي مواعيد تتكرر في حياة الانسان في كل يوم وليلة ما دام حيا، وكل موعد فهو مسبوق بالعدم قبله، وهو واثق من ان هذا اليوم ملحوق بما يقتضيه الموقف، فكيف ينكر المعاد؟!! وينكر البعث بعد انعدام الجسد، لمجرد انه مسبوق بالعدم ؟!! مع دلالة الآيات الكونية على امكانه وانذار الانبياء والرسل به؟

فان كل مرحلة من هذه المراحل الأربع تستوجب تسبيح الله سبحانه وتنزيهه لقدرته العليا الحاكمة في الكون، فقال سبحانه عنها:

أوّلاً:(فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ)، فان المساء مسبوق بالعدم، والدخول في المساء أمر لا يشك فيه أي انسان، ويتحقق ذلك بنظام طبيعي اوجده الله سبحانه بقدرته.

ثانيا:(وَحِينَ تُصْبِحُونَ)، فان الصباح ايضا مسبوق بالعدم، والدخول في الصباح أمر لا يشك فيه أي انسان، ويتحقق ذلك بنظام طبيعي اوجده الله سبحانه بقدرته.

(وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)، وفي هذا تأكيد لما تقدم في سورة الاسراء من قوله تعالى: (تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً). (الإسراء: ٤٤).

ثالثا:(وَعَشِيّاً)، وهو في الليل ، حيث يخلد فيه الانسان إلى الراحة والنوم.

رابعا:(وَحِينَ تُظْهِرُونَ)، فان الظهيرة: منتصف النهار، وهي اظهر هذه المواعيد الأربعة، حيث يستغله الانسان في تأمين مصالحه الحياتية عادة.

وعلى اساس هذه المواعيد الاربعة ينظم الانسان برامجه اليومية من مواعيد الاكل الضروري للحياة والقيام بوضائفه الاجتماعية والعبادية من الصلوات الخمس المفروضة.

وهذه المواعيد تشابه البعث في انها تحصل بعد عدمها ، فكما ان ذلك لا يستوجب الشك في تحققها بعد انقضائها، كذلك لا يستلزم الموت الشك في تحقق البعث بعد موت الانسان.

وختم الله سبحانه المقطع بالتأكيد على ان ذلك كله واقع تحت القدرة الالهية الحاكمة في الكون، شأنها شأن كل الآيات الكونية، وخص بالذكر ثلاثة محسوسة لكل البشر ، وهي:

١-(يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ)، فان وجود الانسان مسبوق بالعدم، والنطفة المنوية لا تعد انسانا حيا وان كانت مادة طبيعية له، وكذلك اصناف الحيوانات والنباتات.

(وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ)، فان الانسان الحي يخرج منه المادة المنوية التي تعتبر غير انسان ، وان كانت مادة له، وكذلك اصناف الحيوانات والنباتات.

(وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا)، فان الارض البائرة من النبات تعتبر مواتا، وبعد ظهور النبات فيها بالزراعة تعتبر محياة.

فتكفي هذه الثلاثة دلالة على قدرة الله العاليا الحاكمة في الكون.

ثم بين سبحانه ارادته العليا في البعث فقال سبحانه:

(وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ)، فان البعث انما يكون في سلسلة من العلل والمعلولات المنتهية إلى ارادته تعالى . ويكفي ذلك حجة على المنكرين.

من آيات الله:

قال سبحانه:(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ○ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ○ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ ○ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ○ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ○ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ ○ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ ○ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ). (الروم: ٢٠-٢٧).

سرد سبحانه في هذا المقطع آياتا كونية من آيات الله سبحانه في مختلف مظاهر الحياة الفردية والاجتماعية، وما يترتب عليها من المسؤوليات، مما ترتبط بسلسلة علل

ومعلولات تنتهي في وجودها إلى علة العلل وهو الله سبحانه، الذي خلق الكون والحياة، ولنعم ما قال الجامي (ت/٨٢٨هـ):

لولا لمعات نور برق القدم من حمى الجود وبحر الكرم

من يخرجنا من ظلمات العدم أو يعصمنا من هفوات القدم؟

وأشار رحمه الله إلى ان هذه اللمعات تشع ، وكلها تستلزم الايمان بالبعث.

ولقد ذكر الله سبحانه من آياته الظاهرة في الكون ما يلي:

الاولى – خلق البشر:

واشار في ذلك الى أمرين:

الاول: ابتداء خلق الانسان ، فقال:

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ)، فان وجود الانسان المعاصر ينتهي إلى اصل هو الطين المتكون من الماء والتراب، وحيث ان نسبة الماء إلى التراب في الطين اقل، كانت نسبة الانسان إلى التراب الذي خلق منه الانسان الاول.

(ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ)، و(ثم) تفيد التراخي، فان مراحل التطور البشري مختلفة في اصلها وفي مراحل الحمل حتى الولادة والى الوفاة. و(إذا) للمفاجأة، وهي باعتبار ان هذه المراحل في التطور غير متوقعة لمن لا يؤمن بالاسباب والمسببات كما هو شأن المشركين، فان خلق البشر نفسه المسبوق بالعدم حجة على امكان البعث المسبوق بالعدم، فان ادل دليل على امكان الشئ هو وقوعه.

الثاني: التكاثر بالزواج ، فقال:

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً)، فان خلق الانسان في نفسه وان كان ذا دلالة واضحة على امكان خلق الشئ من العدم ، ولكن ذلك يكون محدودا لو لم يكن في ذلك استمرار في التناسل جيلا بعد جيل، ولا يكون ذلك الا بالتزاوج ، و (من) ابتدائية، بمعنى خلق من جنس البشر أزواجا.

ثم أشار إلى خصائص الرابطة الزوجية فقال:

١-(لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا)، فان الزواج بين الجنسين يوجب سكونا للنفس لهما معا ، لتأمين بعض الحاجات الجسمية للانسان؟

٢-(وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً)، وهي الاحسان من دون حاجة اليهن، وتكثر في الاقران ابتداء من احدهم، من دون حاجة موجبة لها.

٣-(وَرَحْمَةً)، وهي الاحسان لمن يحتاج اليه جسميا أو روحيا، كالرحمة للصغير والكبير فيما لا يتمكنون القيام به.

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)، فهذه النقاط الثلاث أعمدة اصيلة في العلاقة الزوجية في الاسلام، وهي تتبع نظام العلل والمعلولات في الحياة، وهي ايضا مسبوقة بالعدم كما هو الحال في مسالة البعث، فكل ذلك ينتهي إلى ارادة الله سبحانه الحاكمة في الخلق والكون.

الثانية - اختلاف المخلوقات في آثارها في الحياة:

وأشار إلى نوعين منها:

أوّلاً: في الكون (وَمِنْ آَيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)، فان هذا الخلق اللامتناهي يتبع نظاما دقيقا في الكون، يسعى العلم الحديث الى كشفه ومعرفة اسراره، ولم يتمكن إلى الآن سوى اكتشاف بعض اسراره، ومعرفة بعض الاجزاء الصغيرة منه، وكان آخر ما توصل اليه العلم الهبوط على سطح القمر بسلطان العلم.

ثانيا: في الانسان (وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ)، فان هذا الاختلاف يتبع نظاما اجتماعيا في اللغات ونظاما وراثيا في الألوان، وكلها تعتمد على سلطان العلم في سلسلة من العلل والمعلولات التي تنتهي إلى المبدأ الاول.

وبالنتيجة:(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ) من البشر وغيرهم، فان البشر في عالمه يشاهد اختلاف الالسنة والالوان، وغير البشر يشاهد ما في السماوات والارض من آيات الله في الكون.

الثالثة – القدرة الانسانية وآثارها في الحياةك

وأشار إلى أمرين منها:

أوّلاً: النوم (وَمِنْ آَيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ)، فان هذه الحالة المتوالية على الحيوانات بما فيها الانسان، وسيلة للاستراحة التي يفتقر اليها في الحياة، وبدونها يكون الموت اقرب اليها من أي شئ آخر ، وبها تنتهي الحياة.

ثانيا: العمل (وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ)، فان الانسان لو كان في جنسه معوقا عن العمل ، بأن كان فاقدا لبعض الاعضاء والجوارح والاطراف، لكان ناقصا غير متمكن من كثير مما يفتقر اليه في الحياة، والعجز عن السعي للحصول لما يفتقر اليه، فوجود الاعضاء من فضل الله في الكون.

وهذه القدرة في البشر أمر مسبوق بالعدم ، وهي في وجودها تستند إلى علل تنتهي في سلسله العلل والمعلولات إلى الله سبحانه.

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ) ما يذكّر به الانبياء والمرسلون من الآيات، دون من يعرض عن السماع، فانه يكون اعراضه سببا في وقوعه في الجهل كالحيوانات التي همها علفها.

الرابعة – مادة الحياةك

وقد أشار سبحانه إلى المراحل الطبيعية لماء المطر بقوله:

أوّلاً:(وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً)، وهو من العلل الطبيعية المصاحبة لنزول المطر، وفي نفس الوقت يتصف بحالتين هما : الخوف من الصاعقة ، والطمع في المطر.

ثانيا:(وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً)، وهي المرحلة الثانية بعد البرق.

ثالثا:(فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا)، فيتكون النبات التي بها تحيى الارض.

وهذه الامور تترتب في سلسلة من العلل والمعلولات الطبيعية التي تحت القدرة الالهية المطلقة.

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) ان كل حركة في الحياة تقع في سلسلة من العلل والمعلولات الطبيعية المرتبطة بعضها ببعض حتى تنتهي إلى علة العلل وهي الذات المقدسة.

الخامسة – ارادة الله الحاكمة في الكون، فقال:

(وَمِنْ آَيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ)، والقيام – لغة-: الثبوت. والمراد بالقيام في المقام: النظام الثابت الحاكم في الكون كله، فان أي اختلال في المجموعة الشمسية يؤثر في الكون. وهذا النظام الدقيق يرتبط في سلسلة من العلل والمعلولات الطبيعية المرتبطة بعضها ببعض حتى تنتهي إلى علة العلل وهي الذات المقدسة بارادته في الخلق والنظام القائم.

دلالة الآيات على البعث:

ثم عقب هذه الآيات بما لها من الدلالة على البعث في يوم القيامة ، فان هذه الآيات كلها مسبوقة بالعدم، وكما انها محسوسة بالفعل لوجودها، كذلك البعث في يوم القيامة، فانها تستند إلى علل ومعلولات طبيعية ترتبط بعضها ببعض حتى تنتهي إلى علة العلل وهي الذات المقدسة.

وقد لخص الأشارة إلى الدلالات في نقاط:

١-الدعوة (ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ)، فلا يكون البعث الا بالامر الالهي بالدعاء، واذا أراد الله أمرا فانما يقول له كن فيكون.

وقد استخدم في ذلك كلمتي (ثم) الدالة على التراخي، و(إذا) الفجائية، لان الدعوة للبعث متعقبة على العدم، وهو امر مفاجئ بالخروج من العدم إلى الوجود ، وتسلسلت عللها الطبيعية، قال سبحانه: (يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلاً).(الاسراء: ٥٢).

٢-السبب في الدعوة: (وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)، فان الكون بأسره بما فيه من الحيوان والملائكة والانس والجن تحت القدرة الالهية المطلقة، فله الملك الحقيقي لهم من دون اختيار وارادة لهم في الوجود امام ارادة الله.

(كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ)، والقنوت – لغة-: الخضوع بالطاعة، فهم جميعا من الملائكة والجن والانس ينفذون الارادة الالهية بالخضوع والطاعة والانقياد.

٣-امكان البعث (وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ)، فان الملاك في الخلق والبعث واحد، فان كل منهما مسبوق بالعدم ، فكما ان الخلق ممكن، لانه واقع، فان ادل دليل على امكان الشئ هو وقوعه. فكذلك البعث ممكن، لانه اعادة الشئ المعدوم كما هو الحال في الخلق من العدم.

(وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ)، لان اعادة المعدوم اهون من الخلق من العدم المحض، والملاك فيهما واحد، وهو الخلق من العدم سواء كان محضا ام مسبوقا بالوجود.

ثم أشار سبحانه للتمثيل للبعث بالبدأ بالخلق إلى ان الهدف من هذا هو التمثيل لاعادة الانسان المادي الذي لا يؤمن الا بالامور المادية المحسوسة، وهذا المثل أدنى بالنسبة إلى المثل الالهي الذي يعم الكون كله ، فانه المثل الاعلى من اعادة الانسان المعدوم من جديد، والذي يستلزم الايمان بالبعث ورفض الشرك والمشركين. قال سبحانه:

(وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى) من التمثيل باعادة المعدوم الذي هو أهون من بدء الخلق.

(فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) من النظام الحاكم في الكون كله بما يعجز عن تفسيره العلم.

(وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) في خلق السماوات والارض ونظمهما الذي لا يدانيه غيره في الخلق ، من دون شريك ، وبحكمة من دون خلل في النظام.

رفض الشرك:

قال سبحانه:(ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلاً مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيات لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ○ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ). (الروم: ٢٨-٢٩).

في هذا المقطع يستدل على بطلان الشرك بمثل مادي محسوس من نفس البشر ، والسياق يقتضي ان يكون الخطاب للرؤساء من المشركين، ويتلخص في ان رؤساء المشركين يرفضون الشركة مع عبيدهم، بل يخافون من العبيد كما يخاف بعضهم من بعض، فكيف يسوّغون الشركة لله تعالى وهم يرفضون ذلك لانفسهم؟!! بل يجب ان ينزهوا الله عما يتنزهون هم عنه، ويلتزموا بالتوحيد الخالص لله تعالى، فقال سبحانه:

(ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلاً مِنْ أَنْفُسِكُمْ) في حياتكم اليومية الذي لا تستسيغ الشركة مع غيرهم.

(هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ)، وهم العبيد والأماء الذين يملكهم الرؤساء.

(مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ) من المظاهر في الحياة اليومية مادية أو غيرها، كأن يشتركوا معكم في المال أو السلطة أو القرار أو ما شابه.

(فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ)، بان يكون العبيد والسادة كلهم سواء في المال مثلا.

ومن الطبيعي ان الرؤساء يرفضون الشركة مع العبيد والاماء، في أية صورة متصورة.

والى السبب في هذا الرفض أشار بقوله:

(تَخَافُونَهُمْ)، فان الرؤساء لا يأتمنون العبيد على كل شئ، ومنها : ما يزيد على رفعة العبودية والطاعة للرئيس، خشية ان يصبح صاحب الامر.

والى شدة الخوف أشار بقوله:

(كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ)، فان أصحاب السلطة والجاه والمال، وحتى اهل العلم والاختصاص منهم، يخاف بعضهم من بعض ، لشدة المنافسة فيما بينهم على حطام الدنيا، فلا تجد أحدا منهم يشترك مع الآخر –عادة– ويحاول الاستئثار بالحكم والقرار ، وخاصة أصحاب السلطة والحكم.

ثم اشار إلى ان عقيدة الشرك من هؤلاء يستلزم أمرين:

الاول: التناقض في المواقف، لان هؤلاء المشركين يجمعون بين الايمان والشرك، وهو موقف متناقض مع سيرتهم في الحياة الشخصية. وهذا ينافي الفعل.

(كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيات لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)، فان العقل يستلزم عدم التناقض في المواقف.

الثاني: اتباع الهوى (بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ)، فان الشرك ظلم واتباع للهوى من دون أية حجة يستند الها المشركون.

والى نتيجة هذا الموقف الشركي أشار بالاستفهام التوبيخي بقوله:

(فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ)؟ لاختيارهم اسباب الضلالة.

(وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ) في يوم الحساب، لاتباعهم الهوى مع توارد الانذار من الآيات والتنبيه من الانبياء والرسل.

مستلزمات التوحيد:

قال سبحانه:(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ○ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ). (الروم: ٣٠- ٣١).

أشار سبحانه في هذا المقطع إلى مستلزمات التوحيد التي يجب تطبيقها في الحياة والتي لثقل هذه المسؤولية على المشركين فهم يتهربون منها، فأشار إلى اصول هذه المسؤوليات التي لا تنفك عن عقيدة التوحيد ، وهي:

أوّلاً : الثبات (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً)، والاقامة: الثبات بالتركيز على الدين من دون أي انحراف عنه، وأشار إلى ان هذا الثبات يتقوم بشيئين، هما، أوّلاً: الوجه، وهو كناية عن التوجه باستقبال الدين في جميع مظاهر الحياة المحسوسة، وذلك باقامة الشعائر. والثاني: الحنف، وهو الميل القلبي بتصفية الباطن من الافكار المادية التي تعوق الثبات .

ثم قال سبحانه في وصف ذلك:

١-(فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا). فان توافق الظاهر والباطن والسر والعلن امر طبيعي للانسان بالفطرة، والانحراف عن هذه الفطرة هو انحراف عن حقيقة الانسانية.

٢-(لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ)، فان المحاولة في تغيير هذه الطبيعة الانسانية تبديل لخلق الله، ولابد ان يرجع الانسان إلى طبيعته الانسانية مهما طالت العوائق.

٣-(ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ)، أي المستقيم ، لانه يوافق الطبيعة الانسانية.

(وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) هذه الحقائق الثلاث عن الدين بسبب الدعايات الباطلة التي يقوم بها المشركون في التعتيم على الحق.

ثانيا: الانابة (مُنِيبِينَ إِلَيْهِ)، والانابة : الرجوع، بان يكون المرجع عند تعدد المواقف هو الدين ، وليس غيره من الاعراف والعادات القبلية.

ثالثا: التقوى (وَاتَّقُوهُ)، فان تقوى الله اساس كل عمل اسلامي في الحياة.

رابعا: الصلاة (وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ)، فان الدين يتقوم بالصلاة.

خامسا: رفض الشرك (وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ)، فان الشرك يتناقض مع الايمان بالله في اصوله.

وهذه الحقائق الخمس تلازم عقيدة التوحيد، وبدونها لا يكون التوحيد خالصا ، والله العاصم.

من خصائص الشرك:

قال سبحانه:(مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ○ وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ○ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ○ أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَاناً فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ○ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ

بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ○ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ). (الروم: ٣٢-٣٧).

وعلى النقيض من مسؤوليات التوحيد هي خصائص المشركين التي تنبع من اعتقادهم المادي البحت، وأشار إلى حقائق ثلاث:

الاولى: التفرقة (مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ)، فان المشركين لا تنحصر معابدهم ومدارسهم الفكرية في عدد خاص ، لانها قائمة على المبادئ المادية ، ولكل واحد منهم الأمل في أن يؤسس مذهبا ويجعله دينا جديدا ، كما هو المشاهد في الحياة المعاصرة.

والى نتيجة هذه التفرقة أشار بقوله:

(وَكَانُوا شِيَعاً)، أي فرقا مختلفة تكاد تخرج من العد والحصر.

(كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ)، بالافكار الشخصية أو القومية أو المادية، وعلى اثر تعارض هذه الافكار مع المصالح المادية تتولد الحروب والمطاحنات فيما بينهم كما هو مدون في التاريخ.

الثانية : اللجوء إلى الله في المكاره (وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ)، فهم يتوجهون بالدعاء إلى الله عند حصول ما يعترض حياتهم من المرض أو الشدة أو البلاء مما يضر بهم ، وهم في دعائهم يخلصون غاية الاخلاص، ولكن هذه الحالة تتبدل عند انكشاف البلاء والضر إلى الشرك مرة اخرى.

(ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ)، و(اذا) الاولى للشرط، والثانية للمفاجأة، فان النفاق في هذا الفريق الثاني. فمن اصحاب العقول السليمة من

يهتدي ويلتزم بطريق الحق، واما المشرك فينسى فضل الله عليه ويعود إلى ما اعتاد عليه من الانحراف من عادات الشرك والضلالة.

وأشار سبحانه إلى انهم لا يضرون الا انفسهم ، لان جزاء الشرك الموعود به يلاحقهم ، فقال سبحانه:

(لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ)، من اجابة الدعاء عند الضر، المستوجب للشكر والطاعة، ولكنهم كفروا به فاستحقوا الإنذار بقوله تعالى:

أوّلاً: بالخطاب (فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ) في يوم الحساب والجزاء بالعقاب العادل على هذه المواقف.

وثانيا: بالغيبة (أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَاناً)، أي حجة خاصة بهم تعصمهم من العذاب العادل.

(فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ)، وهذا الالتفات من الخطاب إلى الغيبة تأكيد على التوبيخ لهم، فان سياسة النفاق هذه لا تعصم من العقاب العادل الذي يستحقونه بعد الانذار.

الثالثة من خصائص المشركين: تبديل الفرح بالقنوط، قال سبحانه:

(وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا)، وهذا امر طبيعي بالفرح للرحمة العامة، ولكن هذا الفرح من المشركين يتبدل إلى القنوط عند السيئة.

(وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ)، والمؤمن لا يقنط من رحمة الله قط، والمفروض ان السيئة التي اصابتهم كانت بسبب ما اقترفوه مما قدمت ايديهم

، فهم يستحقون ما يترتب على هذا السبب من السيئات لترتب المعلولات على عللها الطبيعية.

وهذه الحقائق الثلاث تكشف عن ان الرؤية لا تزال مستندة إلى اسس مادية بحتة، ولما يدخل الايمان في قلوب المشركين ، فلا ينظرون إلى الحياة الا من منظار المسؤولية الشخصية في الحياة، وكانهم يرون الايمان مجردا عن العمل، مع ان الايمان قوامه الاعتقاد بالجنان والقول باللسان والعمل بالاركان.

وعلق سبحانه على موقف الشرك بالاستفهام الانكاري بقوله:

(أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ)، فان الناس في القابليات والكفاءات على اختلاف الدرجات، وبحسب اعمالهم المدروسة وأهدافهم الصالحة واختلاف موارد رزقهم، وان كانت هذه المقاييس مجهولة للعامة، بل حتى للانسان نفسه. وكم رأينا من اناس تبطروا حينما استغنوا وطغوا، والله العاصم.

وعقب خصائص المشركين خصائص المؤمنين بقوله:

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)، فانها عبرة لمن يتبصر. ويرى المؤمن في خصائص المشركين الروح المادية الطاغية في حياتهم التي تستلزم التفرقة والانحراف عن الانسانية، وان كان بسبب عائد إلى المشرك نفسه.

وكل ذلك يناقض الثبات على المبادئ والوسائل والاهداف التي يتبناها الانسان بحرية الفكر.

والمؤمن المعتمد على المبادئ والوسائل والاهداف الاسلامية عن دراسة فكرية حرة لا تتناقض مواقفه ، بل يكون ملتزما ثابتا فيها يعترف بخطأ نفسه ويحاول أداء مسؤولياته بالنسبة إلى النفس والمجتمع.

من خصائص المؤمنين:

قال سبحانه:(فَآَتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ○ وَمَا آَتَيْتُمْ مِنْ رِباً لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آَتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ○ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ). (الروم: ٣٨-٤٠).

أشار سبحانه إلى بعض خصائص المؤمنين في هذا المقطع، موجها الخطاب إلى الرسول القائد ص باعتباره اسوة المسلمين عامة بقوله:

١-(فَآَتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ)، فان أداء الحقوق إلى أصحابها فرض اسلامي، وأولهم ذوي القربى، لقرابة الرحم ، فان صلة الرحم واجب اسلامي اصيل.

٢-(وَالْمِسْكِينَ)، فان على المؤمن مسؤولية تجاه المساكين، وهم من لا يملكون قوت يومهم.

٣-(وَابْنَ السَّبِيلِ)، وهو المنقطع عن بلده في الغربة.

وهذه المواقف الثلاثة تناقض المواقف المادية ماءة في الماءة، والله سبحانه يؤكد بانها من خصائص المؤمنين، وانهم بالالتزام بهذه المواقف يتصفون بصفتين:

أوّلاً: الخير (ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ)، لانها اعمال خالصة لله تعالى ، وليس للدنيا، فتخرج عن دائرة المقايضة المادية.

ثانيا:(وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)، والفلاح : الظفر والنجاح، وان كانت من ناحية مادية تعتبر خسارة وضررا، لان الانفاق بهذه الانواع من الاحسان يزكي روح المؤمن ويتوجه إلى ربه ويكون في نفسية مرضية عند نفسه وعند الله تعالى.

الربا:

وختم المقارنة بين خصائص المشركين والمؤمنين بالإشارة إلى حكم الاسلام في الربا ، والربا –لغة–: النمو، وهو من الادواء الاقتصادية التي يقع على عاتق الأغنياء بالنسبة الى الفقراء في الحياة، ولا يخرجون منها ما داموا في شرك الربا، لما له من الآثار في المجتمع، فقال سبحانه:

(وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِباً لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ)، فان الربا ممنوع في الاسلام، فما يحصل عليه من زيادة في اموال الناس ممقوتة عند الله ، اذ لا تعتبر الزيادة والنمو زيادة مشروعة، بل زيادة محرمة يجب أن ترجع إلى أصحابها الذين هم احوج اليها من المرابي، فهي زيادة ممقوتة عند الله.

(وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ)، لان الزكاة نمو وطهارة لوجه الله يستخدمه الفقير في حاجته، وتكون سببا لرفع الضيم من الذي يفتقر إلى الرحمة في المجتمع. وعلى النقيض من الربا تكون هذه الزكاة ضعفا في الثواب عند الله. و (المضعف) اسم فاعل لمن يقوم بالضعف ، فيكون المزكي مناقضا للمرابي

من وجهة النظر الاسلامية، لان الزكاة يساعد المحتاج في المجتمع، والمرابي يزيد المحتاج احتياجا، وهما موقفان منتناقضان في المبادي والوسائل والاهداف.

بعض صفات الله:

وفي المقطع التالي اشارة إلى بعض صفات الله تعالى التي لا يمكن ان يتصف بها المشركون بالرغم من تعدد الالهة، وظهور الفساد بسبب تأثر الناس بعقيدة الشرك:

واستفتح المقطع بأربع صفات الخاصة بالذات المقدسة، هي:

١-الخلق (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ)، ولا تتصف آلهة المشركين بهذه الصفة قط.

٢-الرزق (ثُمَّ رَزَقَكُمْ) بالخيرات العامة من النباتات والحيوان وفي الارض والسماء.

٣-الموت (ثُمَّ يُمِيتُكُمْ)، فان الأجل من الله تعالى مقدر لكل انسان بانتهاء حياته.

٤-البعث (ثُمَّ يُحْيِيكُمْ) بعد الموت بالنشور في يوم القيامة.

(هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ)؟.

أما الثلاثة الأولى فلم يدعها احد لالهته، وأما الأخير فلا يؤمن به المشركون اساسا.

(سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) بالله الواحد الأحد الذي لا اله الا هو، من الألهة المدعاة.

الفساد نتيجة الشرك:

قال سبحانه:(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ○ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ ○ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ○ مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ○ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ). (الروم:٤٢-٤٦).

وعن نتيجة عقيدة الشرك قال سبحانه:

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ) من المظالم في الحياة الاجتماعية التي تقوم على اساس الطبقية في المجتمع، القائمة على اساس الشرك، ومن الناحية الاقتصادية القائمة على فرض الربا ظلما على الطبقات الضعيفة من المجتمع، وفي الحياة السياسية القائمة على اساس فرض القوة والرشوة في القضاء والحكم وما شابه، مما يرجع جميعها إلى الشرك بالله تعالى فكريا. والمؤثر في حياتهم عمليا.

ثم أشار إلى ان لهذا الفساد آثارا تعم المجتمع ويذوق المجتمع مرارته، ولم يمنع عنها ارادة الله لحكمة، هي:

(لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)، فان الله كان له ان يهلكهم جميعا بالعذاب، ولكن الله أبى الا ان يرحم العباد ويذيقهم ما قد ينبههم للرجوع إلى رشدهم، فقال سبحانه: (ولو يؤاخذ اله الناس بظلمهم ما ترك على ظهرها من دابة).(فاطر: ٤٥).

ثم أشار إلى أن التاريخ يشهد بأن من الناس من التزم بالحقيقة – وان كانوا قلة– بقوله:(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ) من الامم التي تقدمت في التاريخ ، فان دراسة آثارهم تكشف عن المبادئ والوسائل والاهداف التي ساروا عليها وعاقبة امرهم (كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ) والقليل منهم غير مشركين، ولا تزال الحالة سائدة في المجتمع اليوم كذلك ، فان نسبة الاديان الوثنية ثم المسيحية ثم الاسلام ثم اليهودية. وآثار الاستعباد للضعفاء في البلاد التي تحكمها الشرك بأنواعه، محسوسة لكل من ينظر إلى حياة الأفراد والشعوب، بالرغم مما تتشدق به الحكومات من الاصلاحات والحرية المادية المزعومة.

والى العلاج لهذا الانحراف العام أشار سبحانه بقوله:

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ)، فان الاصلاح المادي لا يكون الا وسيلة اخرى لاستنزاف الشعوب وللابتزاز من قبل من يحسن اللعبة المادية. والدين القيم هو العلاج الوحيد الذي يقوم باصلاح الفرد فكريا، وينبع من ذلك الاصلاح للمجتمع المتكون من الافراد عمليا، و (لا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم).(الرعد:١١).

وهذا التوجه الاسلامي لابد وان يكون في الحياة الدنيا (مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ)، وهو يوم القيامة حيث (يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ)، أي يتفرقون إلى فريقين: الخاسر من الكفار والناجي من الصالحين. وبين موقعهما بقوله: (مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ)، لانه يكون مأخوذا بعمله على طبق اعتقاده، فلا يتعدى لغيره ممن لا يوافقه في العقيدة.

(وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ)، لان الدنيا مزرعة الآخرة، وهم في يوم القيامة يحصدون ما عملوا في الدنيا تمهيدا ليوم الحساب.

وقد وعد الله الجزاء العادل لكل منهما.

(لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ)، فانه وعد على الايمان والعمل الصالح الفضل في الدنيا على لسان الانبياء والرسل.

(إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ)، لانهم استحقوا العقاب العادل باختيارهم ما كان سببا في عدم محبة الله لهم.

ومن آيات الله - الرياح:

قال تعالى:(وَمِنْ آَيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ○ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلاً إِلى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ○ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفاً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ○ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ○ فَانْظُرْ إِلى آَثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ○ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحاً فَرَأَوْهُ مُصْفَرّاً لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ○ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ○ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآَيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ). (الروم: ٤٦- ٥٣).

يتضمن المقطع ذكر الرياح، التي هي من آيات الله، وهي الآية السابعة من الآيات التي بدأت بقوله تعالى: (وَمِنْ آيَاتِهِ)، وقد فصل سبحانه الكلام فيها لما لها من الآثار الايجابية والسلبية في الحياة بصورة عامة في البر والبحر، وما فيها من الدواعي للاعتبار من حيث اسبابها وعللها التي تنتهي إلى واجب الوجود سبحانه.

ومن المعروف ان مهب الرياح في الكون لا يخلو من احدى الجهات الاربع ، وتعرف بالصبا والدبور والجنوب والشمال، على اختلاف الدرجات بينها، وقد ذكرت كتب فقه اللغة أن الرياح الشديدة في البحر توصف بالعصف والقصف، وفي البر بالعقم والضرر. والمهم في المقطع الإشارة إلى آثارها في الحياة العامة.

والى الآثار الإيجابية لها في البحر وما تعود منها مما يرغب فيها عامة الناس, وبها تسير مسار الحياة ، هي:

١-المرغوبة فيها في نفسها (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ)، وهي الرياح الطبيعية التي تلطف الجو العام ويتنعم الانسان بها بالنشاط والحيوية.

٢- الرحمة (وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ)، فان سكون الرياح يوجب الاختناق، وهبوبها من جهة الى اخرى يغير الجو العام ويروح النفس وخصوصا النسيم الطلق الخالي من السموم، ولولاها لأثرت في الصحة العامة.

٣- سير السفن الشراعية (وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ) تعالى، حيث تنتهي العلل اليه، ولولاها لتوقفت السفن الشراعية عن السير الا بالوسائل الصناعية.

٤-التجارة (وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ) تعالى بالتجارة، بواسطة حركة الفلك إلى مختلف بقاع العالم، والتي لا يمكن الوصول اليها الا بواسطتها، وحتى عصرنا الحاضر فان النقل البحري يعتبر من اسهل وارخص الوسائل النقلية للتجارة.

٥-اداء الواجب الاخلاقي تجاه المنعم (وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)، فان التأمل في تفسير خصائص الرياح هذه توجب الشكر اخلاقيا على كل فضل من أي مصدر كان.

ثم أشار سبحانه إلى ان هذه الرسالة كانت لكل الاقوام وفي مختلف العصور فقال:

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلاً إلى قَوْمِهِمْ) من عاد وثمود وغيرهم من المشركين (فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ)، وهي الآيات الكونية المشار اليها، والواضحة الدلالة على وجوده تعالى. وكان موقفهم بين مؤمن ومنكر كافر، فاستحق كل منهم جزاءه العادل.

(فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا)، بالعذاب كالغرق بالنسبة إلى قوم نوح عقابا عادلا لما استحقوه بعد الانذار.

(وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ)، جزاء عادلا لهم لايمانهم بعد البينات.

٦-إرسال السحاب (اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ)، لان سيرها يتوقف على الاسباب الطبيعية التي تنتهي في سلسلة العلل والمعلولات إلى الله سبحانه.

وعن آثار هذا الارسال قال:

أوّلاً:(فَتُثِيرُ سَحَاباً)، والاثارة : التحريك، فان السحاب يتكون من تجمع الأبخرة المتصاعدة من الارض، ومن الطبيعي ان تتوقف في الأمكنة التي تصاعدت منها ما لم تؤثر في تحريكها ونقلها من مكان إلى آخر عوامل معينة، ومن ابرزها الرياح.

ثانيا:(فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ)، فان بسط السحاب في المناطق المختلفة تستند إلى اسباب تنتهي إلى ارادة الله سبحانه.

ثالثا:(وَيَجْعَلُهُ كِسَفاً)، والكسف: القطعة من الشئ، فان السحاب تتقطع قطعا مختلفة، فتنتقل إلى مناطق خاصة من الارض .

رابعا:(فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ)، والودق: قطرات المطر النازل من خلال السحاب.

خامسا:(فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ)، لما يفتقرون اليه من الماء التي بها حياتهم بل وحياة كل شئ.

(وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ)، والإبلاس: اليأس، فانهم قبل نزول المطر كانوا يائسين ، وبعد نزوله اصبحوا مستبشرين.

(فَانْظُرْ إِلى آَثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ) في الارض والبحر، التي تنشأ من الرياح التي بها حياة الزرع والحيوان والانسان.

وختم الآثار الايجابية للرياح بان في حياة الارض بالزرع بواسطة الرياح، دلالة على البعث بقوله تعالى:

(كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا)؟، فان الارض كانت ميتة قبل نزول الماء المحمول بواسطة السحاب عليها، وبعد ذلك أصبحت الارض محياة بالزرع، فهكذا يكون البعث أيضا.

(إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى) بالبعث بأسباب طبيعية هي تحت ارادة الله تعالى.

(وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) بارادته الحاكمة في الكون خلقا وحياة وموتا.

والى الآثار السلبية للرياح أشار بقوله:

(وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحاً) للعذاب والهلاك لمن يستحق ذلك من المشركين.

(فَرَأَوْهُ مُصْفَرّاً)، فان الريح السموم تكون صفراء اللون غالبا، وهي فاقدة للماء الذي به قوام الحياة، وان المشركين الماديين يسندوه إلى أسباب طبيعية من دون اسناد الاسباب الطبيعية إلى أسباب رئيسية تنتهي الى خالقها: الذات المقدسة.

(لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ) بالله وحتى بعد رؤية الريح المصفرة.

ثم وجه الخطاب إلى النبي ص بأن واجب الرسالة هو تبليغها، وانما يؤمن بها من يحرر فكره، دون من يكون منغلقا على نفسه، لانه بموقفه الرافض يكون كالموتى، ومن الطبيعي فيه الحقائق التالية:

١-(فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى)، لعدم قابلية السماع فيهم.

٢-(وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ)، لفقدان آلة السماع لهم، فلا يسمعون الدعوة (إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ) عن الدعوة معرضين عنها.

٣-(وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ)، لان الأعمى فاقد للبصر، فلا يمكنه الرؤية، وحاله حال المشرك الرافض لقبول الحقيقة كالميت والأصم والأعمى ، فلا يكون للرسالة فيهم أثر.

وانما يكون التأثير فيمن يستمع إلى الكلام ، فطبيعي أن تؤثر فيه اذا استعد لقبول الحقيقة، وهذا استثناء من اولئك، كما قال تعالى:

(إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ)، لانهم مستعدون لقبول الحقيقة، فيكون بيان الحقائق مؤثرا فيهم .

الاعتبار بخلق الانسان:

قال سبحانه:(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ). (الروم: ٥٤).

وختم المقطع بأدوار خلق الانسان التي فيها الاعتبار لمن يتأمل حياة نفسه وغيره بتسلسل العلل والمعلولات التي لابد وان تنتهي إلى الإرادة الإلهية في الخلق في مراحل:

الاولى: مرحلة الضعف (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ)، وهي مرحلة ما قبل الولادة من النطفة فالعلقة فالمضغة فانبات العظام فاكساء العظام لحما، فالولادة فالطفولة .

الثانية: مرحلة القوة (ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً)، وهي مرحلة الشباب والكهولة.

الثالثة: مرحلة الضعف أيضا (ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً)، وهي مرحلة الشيخوخة والهرم .

وفي تحديد هذه المراحل بالسنين خلاف في اللغة.

وفي هذه المراحل المتطورة لحياة الانسان دلالة صريحة على سائر العلل والمعلولات التي تنتهي بوجودها إلى علة العلل، وهي الذات المقدسة.

ومن خلال هذه التطورات تظهر بعض صفات الذات المقدسة ، وانها:

١-الخلق (يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ) من المخلوقات بانواعها واشكالها.

٢-العلم بالاسباب (وَهُوَ الْعَلِيمُ) بالمخلوقات من حيث اسبابها واثارها.

٣-القدرة (الْقَدِيرُ) على احيائها واماتتها.

يوم البعث:

قال سبحانه:(وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ○ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ○ فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ). (الروم:٥٥-٥٧).

وصف سبحانه وتعالى يوم البعث من وجهتين، ١-نظر المؤمنين ٢-ونظر المجرمين ، وما يترتب على ذلك من الاثار، فعن نظر المجرمين قال:

(وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ)، والساعة هو البعث في يوم القيامة.

(يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ)، وهم المشركون، لتلبسهم بجريمة الانكار وعدم الايمان بيوم القيامة. مؤكدين بالحلف على انهم (مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ)، أي فترة قصيرة من الزمن ، لتصورهم ان البعث يستدعي وقتا طويلا اطول مما عاشوا فيه، وانه لن يتحقق بهذه السرعة حسب اعتقادهم.

وقد فنَّد سبحانه هذا الزعم بقوله:

(كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ)، والإفك : هو الكذب، فان الفاصل الزمني بين الموت والبعث كبيرة، والله أعلم بها، وان خلقهم بسرعة لا يغير من واقع الحال شيئا.

وعن وجهة نظر المؤمنين قال:

(وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ)، وهم المؤمنون والعلماء بالحقائق في نفس الوقت.

(لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ)، وان الفترة الزمنية لم تكن قصيرة كما تتصورون، لانها كانت محددة بيوم البعث الموعود على لسان الانبياء والرسل، وقد تحقق.

(فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ) الموعود، ولا يغير الحلف والقسم من واقع الحال شيئا، (وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) بصدق البعث، وبعد تحققه تحاولون التأكيد على تسرع الأحداث، مع انه بعد ابلاغ الرسل لا تسرّع في يوم البعث. وبالنتيجة (فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ) بالسرعة في تحقق يوم البعث (وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ)، والعتبى: رفع العتاب، وطلب ذلك بعد الانذار في يوم الحساب لا يغير من واقع الحال – وهو استحقاق العقاب– شيئا.

خلاصة السورة:

قال سبحانه:(وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ○ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ○ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ). (الروم:٥٨-٦٠).

وختم السورة بخلاصة الرسالة القرآنية بالهداية التي حملها الرسول القائد مُحَمَّد ص وموقف المشركين منها ، والواجب الرسالي في مواصلة الدعوة إلى الله مهما كانت الظروف والمواقف، فقال سبحانه عن رسالة القرآن:

(وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ)، فان الرسالة القرآنية تعتمد بالدرجة الأولى على سرد الآيات الكونية والنفسية ليتحرك الانسان برؤية واضحة في الحياة.

وعن موقف الكفار أشار بقوله:

(وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ)، فليس موقفهم سوى الانكار مهما كانت الحجج والأدلة.

وأشار إلى سبب هذا الموقف الرافض بقوله:

(كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ)، فان الجهل المركب هو السبب في رفضهم الدعوة بالرغم من سماعها، فان الجهل يوجب جمود القلب من التفكير ، فلا يستعمل الكافر حينئذ قلبه وعقله في التعرف على الحقيقة، بل يتحرك بدوافع مادية بحتة.

والى الواجب الرسالي للقيادة النبوية أشار بقوله:

(فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ) على الدعوة بالاستمرار فيها، لوضوح الرؤية في الرسالة بالرغم من وجود الاشواك في طريقها، وبالنتيجة (وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ)، فان الوسيلة الأخيرة التي يستخدمها الكفار في مواجهة الدعوة الاسلامية هي الاستخفاف والتحقير كوسيلة للحرب الفسية. وهذا امر متوقع من العدو، ولا يؤثر فيمن يتمتع برؤية واضحة للمبادئ والوسائل والاهداف الاسلامية، وما يمكن ان يعترض طريق الدعوة إلى الله من الصعوبات والاشواك. والله العالم.

ختام سورة الروم، ويليه

تفسير سورة لقمان

فهرس المحتوى

الإهداء..... ٥

سورة المؤمنون (٢٣) ١٤

صفات المؤمنين:..... ١٤
خلق الانسان:..... ١٧
خلق الآفاق:..... ١٩
رسالة نوح:..... ٢٢
رسالة هود:..... ٢٦
الرسل تترى:..... ٣٠
موسى وهارون:..... ٣٢
عيسي بن مريم:..... ٣٥
وحدة الرسل وتعدد المواقف:..... ٣٦
مقارنة:..... ٤٠
اتمام الحجة:..... ٤٢
التوحيد وشبهات الكفار:..... ٤٦
شبهة البعثة:..... ٤٨
دور النبي:..... ٥٢
في طريق الآخرة:..... ٥٤
يوم الحساب:..... ٥٥
وعن الفائزين قال:..... ٥٧

الحياة الدنيا:.....٥٨
ختام السورة: ٦٠

سورة النور(٢٤).....٦٢

السورة الفريضة: ٦٣
عقوبة الزنا:.....٦٤
عقوبة القذف:.....٦٧
عقوبة اللعان:.....٦٩
قصة الإفك:.....٧١
موعظة المتقين:.....٨٣
النقطة الثانية - صلة المسلمين:.....٨٥
النقطة الثالثة - عقوبة القذف: ٨٦
النقطة الرابعة - براءة المؤمنات: ٨٨
النقطة الخامسة - الاسئذان: ٨٩
النقطة السادسة - مسؤولية النظر:.....٩١
زينة النساء:.....٩٣
النقطة السابعة – النكاح:.....٩٦
النقطة الثامنة – الاستعفاف: ٩٧
النقطة التاسعة - تحرير المماليك:.....٩٨
النقطة العاشرة - تحريم البغاء: ٩٩
الله نور السماوات والأرض:..... ١٠١
بيوت الله:..... ١٠٤
أعمال الكفار:..... ١٠٦
آيات الله:..... ١٠٨
علامتا النفاق- العلامة الاولى:..... ١١٢
العلامة الثانية - القسم: ١١٥
الخلافة في الارض:..... ١١٦
ثلاث عورات:..... ١١٩
وحدة الاسرة:..... ١٢٣
طاعة القيادة: ١٢٦
ختام السورة: ١٣٠

سورة الفرقان(٢٥)..... ١٣٢

بركات الله: ١٣٣
شبهات الكفار: ١٣٥
حول القرآن: ١٣٦
حول شخصية الرسول: ١٣٨
يوم الساعة الموعد الفصل: ١٤١
في يوم الحشر: ١٤٤
تفنيد الشبهات: ١٤٦
الشبهة الاولى - في شخصية الرسول: ١٤٦
الشبهة الثانية - نزول الملائكة: ١٤٧
يوم رؤية الملائكة: ١٤٨
الشبهة الثالثة - في نزول القرآن: ١٥١
دحض الشبهات: ١٥٣
دور الانبياء: ١٥٤
دور الرسول: ١٥٧
آيات الله: ١٥٩
مسؤولية الرسول: ١٦٤
عباد الرحمن: ١٦٨
ختام السورة: ١٧٤

سورة الشعراء (٢٦) ١٧٧

مقدمة السورة: ١٧٨
بداية الرسالة: ١٨٢
نص الرسالة: ١٨٤
المحاجة مع فرعون: ١٨٧
إظهار المعجزة: ١٩٠
مع السحرة: ١٩٤
الخروج من مصر: ١٩٧
النصر الالهي: ٢٠٠
رسالة ابراهيم: ٢٠٢
من صفات الله: ٢٠٤
دعاء ابراهيم: ٢٠٥
يوم البعث: ٢٠٧
رسالة نوح: ٢٠٩
رسالة هود: ٢١٣

رسالة صالح: ٢١٧
رسالة لوط: ٢٢٢
رسالة شعيب: ٢٢٥
رسالة القرآن: ٢٢٩
مسؤوليات الرسول: ٢٣٤
قنوات الشياطين: ٢٣٥

سورة النمل(٢٧) ٢٤٠

القرآن الكريم: ٢٤١
صفات المؤمنين: ٢٤٢
رسالة موسى: ٢٤٤
رسالة داود: ٢٤٩
رسالة سليمان: ٢٥١
مع النمل: ٢٥٢
مع الطير: ٢٥٤
الموقف من الدعوة: ٢٦٠
المعجزة الالهية: ٢٦٥
مع بلقيس: ٢٦٨
رسالة صالح: ٢٧١
رسالة لوط: ٢٧٦
رسالة التوحيد: ٢٧٨
الآية الاولى - في السماء: ٢٧٩
الآية الثانية - في الارض: ٢٨٠
الآية الثالثة - في الدعاء: ٢٨١
الآية الرابعة - في الهداية بالفطرة: ٢٨٣
الآية الخامسة – في المعاد: ٢٨٤
شبهة الكافرين: ٢٨٦
هذا القران: ٢٨٩
اشراط الساعة: ٢٩١
الاول - خروج الدابة: ٢٩١
الثاني - يوم الحشر: ٢٩٢
الثالث - نفخ الصور: ٢٩٤
ختام السورة: ٢٩٥

سورة القصص(٢٨) ٢٩٩

فاتحة السورة: ٣٠٠
سياسة فرعون: ٣٠٢
المستضعفون: ٣٠٤
موسى الرضيع: ٣٠٥
في آل فرعون: ٣٠٧
تضامن الاسرة: ٣٠٩
دور المسؤولية: ٣١٢
مع النبي شعيب: ٣١٣
في المدينة: ٣١٥
في المهجر (مدين): ٣١٨
مع بنت شعيب: ٣٢٢
الرجوع الى مصر: ٣٢٦
الوحي الالهي: ٣٢٨
موقف موسى: ٣٣١
مع فرعون: ٣٣٢
مقارنة الموقفين: ٣٣٥
الرسالة المحمدية: ٣٣٧
حكمة الرسالة: ٣٣٩
موقف الكفار: ٣٤٠
المؤمنون بالقرآن: ٣٤٣
حجة الكافرين: ٣٤٥
يوم القيامة: ٣٤٩
عقيدة التوحيد: ٣٥٣
من آيات الله: ٣٥٤
من تاريخ قارون: ٣٥٧
أوّلاً - في المبدأ: ٣٥٩
ثانيا – في المسير: ٣٦١
ثالثا – في المصير: ٣٦٣
ختام السورة: ٣٦٥

سورة العنكبوت(٢٩) ٣٦٩

مقدمة السورة: ٣٧٠
الفتنة والامتحان: ٣٧١
مبادئ الايمان: ٣٧٣
مقارنة باطلة: ٣٧٥
مبادئ الكفر: ٣٧٧
الامتحان في عهد نوح: ٣٧٨
الامتحان في عهد ابراهيم: ٣٧٩
آيات الله: ٣٨٢
من امتحان الكفار: ٣٨٤
نجاح الرسالة: ٣٨٦
الامتحان في عهد لوط: ٣٨٨
البشرى: ٣٩٠
الامتحان في عهد شعيب: ٣٩٢
عاد وثمود: ٣٩٣
الامتحان في عهد موسى: ٣٩٥
التمثيل ببيت العنكبوت: ٣٩٧
مبادئ الايمان: ٤٠٠
الامتحان في عهد نبي الاسلام: ٤٠٢
النقطة الاولى- شخصية الرسول: ٤٠٢
النقطة الثانية- القران الكريم: ٤٠٣
النقطة الثالثة - المعجزة: ٤٠٤
النقطة الرابعة - استعجال العذاب: ٤٠٦
جزاء المؤمنين: ٤٠٨
الرزق من آيات الله: ٤٠٩
ختام السورة: ٤١١

سورة الروم(٣٠) ٤١٥

فاتحة السورة: ٤١٨
حرية الفكر: ٤٢٠
عبرة التاريخ: ٤٢١
يوم الحساب: ٤٢٤

البعث حقيقة:..... ٤٢٦
من آيات الله: ٤٢٨
دلالة الآيات على البعث: ٤٣٣
رفض الشرك:..... ٤٣٥
مستلزمات التوحيد:..... ٤٣٧
من خصائص الشرك:..... ٤٣٨
من خصائص المؤمنين: ٤٤٢
الربا:..... ٤٤٣
بعض صفات الله: ٤٤٤
الفساد نتيجة الشرك:..... ٤٤٥
ومن آيات الله - الرياح: ٤٤٧
الاعتبار بخلق الانسان:..... ٤٥٢
يوم البعث: ٤٥٣
خلاصة السورة: ٤٥٥
ختام سورة الروم، ويليه تفسير سورة لقمان (٣١)..... **Error! Bookmark not defined.**